كلاسيكيات أثر Athar Classics

# زورا نيل هيرستون

# عيونهم كانت تراقب الرب

ترجمة سماح جعفر



مكتبة ٣٩٦








# عيونهم كانت تراقب الرب

عيونهم كانت تراقب الرب / رواية
تأليف: زورا نيل هيرستون
ترجمة: سماح جعفر
الطبعة الأولى 1438 / 2017
ردمك 2-937-84409-2-978






دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net



# عيونهم كانت تراقب الرب

رواية

مكتبة | 396

## زورا نيل هيرستون

ترجمة

سماح جعفر



---

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم
ذكرى لـ نورسين

إلى هنري آلان مو

# شكر وتقدير

يودُّ ورثة زورا نيل هيرستون أن يشكروا كل الذين عملوا بجد على مدى السنوات لتعريف أجيال جديدة من القرّاء على أعمال زورا نيل هيرستون. نحن مدينون لروبرت هيمينوي، أليس ووكر، وجميع منتسبي جمعية اللغات الحديثة الذين ساعدوا في تمهيد الطريق أمام إعادة اكتشاف زورا. كما أننا نقدر بعمق عمل ناشرتنا كاثي هيمينغ، ومحررتنا جوليا سيربرنسكي، ووكيلة أعمالنا فيكتوريا ساندرز، ودعمهن، فبدونهن لما كانت إعادة الإصدار هذه ممكنة.

# مقدمة

## بقلم إيدودج دانتيكات



«السفن البعيدة تحمل أمنية كل رجل على متنها». هكذا تبدأ رواية زورا نيل هيرستون الرائعة حول بحث المرأة عن ذاتها الأصيلة وعن الحب الحقيقي. في البداية قد يبدو متناقضًا أن عملًا شخصيته المركزية هي جاني كروفورد الحازمة والصامدة بشكل ملحوظ ينبغي أن يبدأ بقول مأثور عن «حياة الرجال». ومع ذلك، فهذا أحد التمظاهرات العديدة لمواهب زورا نيل هيرستون الهائلة: قدرتها على تقديم عالم كامل برموزه وقواعده في بضع جمل، ثم أن تضع في هذا العالم رؤيتها لأداء الشخصيات - النساء والرجال الذين تخلقهم، شخصياتها- وظائفهم، انتصاراتهم، وآليات بقاءهم على قيد الحياة. لذلك قبالة تلك السفينة البعيدة مجازًا تأتي بطلتنا جاني كروفورد، وفجأة ندرك أنها كانت في رحلتها الفريدة الخاصة طوال الوقت، وأن أحلامها «خُدعت حتى الموت على يد الوقت»، لكنها لم تهزم تمامًا. ولأن النساء «يتذكرن كل ما لا يردن نسيانه»، تتذكر جاني كروفورد كل اللحظات الحاسمة في حياتها، منذ الوقت الذي اكتشفت فيه لأول مرة أنها فتاة صغيرة «ملونة» من خلال البحث عن وجهها في مجموعة من الصور، وحتى لحظة عودتها إلى إيتونفيل، فلوريدا، من إيفرغليدز، ليست مسلوبة ومخدوعة، كما كان متوقعًا، بل مكسورة الفؤاد، ومتحدية بجرأة، بعد أن كدت في العمل في

حقول الفول، ونجت من الإعصار، وخسرت الرجل الذي أحبته.

جاني كروفورد قادرة على اقتفاء خطواتها الخاصة، وهي تترجل عن سفينتها الخاصة، آتية إلى المنزل، وتتذكر أنها كانت قريبة من الموت لكنها عاشت حياة مليئة جدًا. لذلك على الرغم من الأصوات المحاكمة التي حيّتها لدى عودتها، وعلى الرغم من «القسوة الجماعية» المتذرعة بوضعها الضال، فقد اكتسبت جاني الحق في أن تكون ساردة قصتها الخاصة، بطلة سعيها الخاص، «عضو» ذكرياتها الخاص.

داخل هيكل الدعوة والاستجابة الفضفاض الذي يؤطر الرواية- فيبي صديقة جاني طلبت منها أن تخبرها أين كانت، وأجابت جاني بالقصة التي شكلت الكتاب- جمهور جاني الحميم مكون من شخص واحد. روت جاني مغامراتها لفيبي وأوكلت لها روايتها للآخرين إذا اختارت هي ذلك. («يمكنك أن تخبريهم بها حكيت إذا كنت تريدين. الأمر سيان بالنسبة لي، لأن لساني في فم صديقتي»). جاني تسرد قصتها لنفسها بقدر ما تسردها لفيبي. ردها على دعوة فيبي هو في الوقت ذاته صدى، مثل صدى صوت الحورية الذي يحتفظ فقط بصوتها بعد أن يُمزق إربًا حرفيًا. هيرستون نفسها أيضًا أصبحت صدى صوت جاني عن طريق التقاط الخيط السردي في فترات أو أماكن في واقع الحياة، وذلك ربما لأن جاني تعبت من الكلام. هذا يشبه إلى حد كبير الذين كانوا جالسين على الشرفة في بداية الكتاب والذين كانوا أول من رأى جاني لدى وصولها، جاني، فيبي، وزورا نيل هيرستون شكلن سلسلة القصص الخاصة بهن، وذلك من خلال ربط أصواتهن التي أخذتنا في تلك الرحلة الحميمية الكوميونية التي هي «عيونهم كانت تراقب الرب».

II

لقد كنت دومًا فخورة جدًا بأن أخبر كل من يود أن يسمع أن تحفة زورا

نيل هيرستون الفنية، عيونهم كانت تراقب الرب، كتبت بمجهودها الخاص في سبعة أسابيع في موطني هاييتي. ذات مرة بدوت حمقاء تمامًا أمام مجموعة من الشابات الكاتبات اللاتي شكلن نادي كتاب ودعونني بلباقة للقائهن الأول. بعد فترة وجيزة من إعلان رئيسة نادي الكتاب المنتخبة حديثًا أن الكتاب الأول الذي سيقرأونه سيكون «عيونهم كانت تراقب الرب»، تدخلت لأعلن، «هل تعلمن أن زورا كتبته في سبعة أسابيع في هاييتي؟»

لقد تم صدي على عجل وباقتضاب «إذن؟» من قبل إحدى العضوات.

«إذن؟» أجبتها، بحرج. «هل يمكنك تأليف كتاب مثل هذا في سبعة أسابيع؟»

وبطبيعة الحال المدة التي استغرقتها هيرستون في تأليف الرواية حدث جدال حولها وطعن فيها. ومع ذلك، أنا مرعوبة من قدرتها على إيجاد الوقت خلال أسفارها الأنثروبولوجية والبحث المستمر في هاييتي لإنتاج رواية على الإطلاق. ككاتبة، أنا مندهشة من الطريقة التي غالبًا ما تستخدم بها الأماكن والظروف التي وجدت نفسها فيها لتنشئ غرفة، عالم لنفسها.

حتى مع وجود خطر الانعدام إلا أنها دائمًا تبحث، وتكتشف بطريقة أو بأخرى العزاء، أو ربما اليأس، لتكتب.

العديد من زملائي، وأنا أيضًا، عادة ما نشكو- في بعض الأحيان من عقود الكتب- من عدم وجود ما يكفي من الوقت والمال والمساحة للكتابة. ومع هذا فزورا حاربت لتكتب وفعلت، وعلمت، كما ولابد علمت جاني كروفورد أيضًا، أن «ليس هناك عذاب مثل أن تحمل قصة غير مروية داخلك». وهكذا، بغض النظر عن عدد المرات التي قرأت فيها هذا الكتاب، عندما تبدأ جاني في حكي تلك القصة التي لم تروى داخلها، أكون دائمًا معجبة

على نحو مضاعف، بالقصة نفسها وبالطريقة التي حكيت بها. وحتى عندما أذكر دون تفكير مقاطعي المفضلة من كتابات هيرستون، أفعل ذلك جزئيًا بسبب الفخر بانخراطها في هاييتي، ولكن أيضًا تنفيذًا لمشورة أليس ووكر الحكيمة للغاية في مقدمتها في سيرة روبرت هيمينوي الأدبية عن هيرستون: «نحن الشعب». (وشملت جميع شعوب الشتات الأفريقي في هذه الفئة). «والشعب لا يلقون بعباقرتهم بعيدًا».

لحسن الحظ، على مر السنين، التقيت بعدد قليل جدًا من القراء النشطين من جيلي (المولودين بعد عام 1960 م)، الكُتاب وغير الكُتاب على حد سواء، الذين قد يفكرون حتى في رمي زورا بعيدًا. الكثيرون منا يتذكرون بوضوح انخراطهم لأول مرة مع عملها، لا سيما «عيونهم كانت تراقب الرب». ونظرًا لجهود السيدة ووكر وغيرها، الذين استعادوا ببسالة زورا لأنفسهم ولنا جميعًا، نحن نقرأ زورا في المدرسة الثانوية أو في فصول الكلية، حيث يتم تدريس عملها بحماس من قبل رجال ونساء- معظمهم كانوا أكبر منا بكثير عندما قرأوا أعمالها لأول مرة- ولا زالوا يملكون حماسة وكأنهم اكتشفوها مؤخرًا، كما في الأيام الأولى للعلاقة العاطفية، أو كما الالتقاء بصديق اعتقدت أنه توفي منذ فترة طويلة.

قرأت «عيونهم كانت تراقب الرب» لأول مرة في مادة التاريخ الأسود الاختيارية في مدرسة كلارا بارتون الثانوية في بروكلين، نيويورك. كان معلّم الصف رجل شاب يلقي درسه خلال ساعة الغداء. لم يكن هناك الكثير لقراءته حول زورا وعملها، لذلك ناضلنا لفهم الحوار واللغة، مع الكثير من التدريب من معلمنا. كان معظمنا مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة وقراءة جاني، فيبي، وتي كيك بصوت عالٍ بلهجاتنا الكريولية الثقيلة، مكننا من إيجاد بصيص أمل فيما قرأنا.

في بعض الأحيان، شعرت كما لو أن افتقاري للغة الإنجليزية قد حرمني من المعلومات السردية الثمينة، كنت أحاول إثارة مسائل ربما تتجاوز نطاق الرواية، وأستاذي كان يصبح في غاية السعادة ويثني على حقيقة أنني كنت أمد مخيلتي إلى أبعد من الكلمات أمامي، وهو ما يفترض أن يفعله جميع القراء الجيدين. «أين كان أسرة تي كيك؟» كنت أسأل. «وما الذي فعلته فيبي صديقة جاني عندما غابت جاني؟»

لاحقًا كنت استكشف أسئلة هادفة ومدروسة أكثر حول الكتاب في صف اللغة الإنجليزية للطلاب الجدد في كلية بارنارد، حيث كانت زورا طالبة أيضًا في 1920م. كتبها كانت بين الكتب الموضوعة في صندوق زجاجي في مكتبة بارنارد حيث سلط الضوء أيضًا على كاتبات شهيرات أخريات تخرجن من الجامعة.

منهن الشاعرة، الكتابة المسرحية، والروائية توزيك شانغ. كلما مررت بجانب الصندوق الزجاجي، أحس أن حلمي بأن أصبح كاتبة يصبح ممكنًا أكثر فأكثر، جزئيًا لأن زورا وتوزيك كانتا امرأتين سوداوين، مثلي.

«زورا عاشت في بلدي»، بسعادة قلت لواحد من زملائي، «وأنا الآن أعيش في بلدها». أحب أن أعتقد أن زورا ذهبت إلى هاييتي جزئيًا بسبب أوجه التشابه العديدة بين هاييتي والثقافة الأفرو-أمريكية. كانت زورا من بلدة كلها سود، يشتغل بها ويحكمها السود، وأنا كنت من جمهورية سوداء، حيث أقام فريدريك دوغلاس وحيث درست ورقصت كاثرين دنهام. في «قل لحصاني»، وجدت زورا المعادل للأرنب برير الماكر في قصص العم ريموس الشعبية في هاييتي. ومن خلال الإيمان المتناقل في المناطق الريفية أن موتانا سيعودون يومًا لجينين وأفريقيا، فقد كشفت أصداء القناعات القوية للعديد من أولئك الذين أجبروا على ركوب سفن العبيد حتى نقطة

اللاعودة.

كان هناك الكثير من الأشياء التي وجدتها مألوفة في «عيونهم كانت تراقب الرب» الدقة الشفهية في كل من السرد والحوار؛ التجمعات الكوميونية على الشرفات المفتوحة عند الغسق؛ القص الحميم (كريك؟ كراك!)؛ جلسات الحكايات الطويلة، سواء عن الناس الحقيقيين الذين أخطأوا (zen) والناس المتخيلين الذين يتخبطون بفرح شديد (blag). وصفها للدفن المتقن لموت بغل جاني الأليف ذكرني بحادثة ذكرتها بتفصيل في «قل لحصاني»، حيث أمر الرئيس الهاييتي انطوان سيمون بجنازة كاثوليكية حسنة في الكاتدرائية الوطنية لماعزه الأليف سيالو، وهو أمر يضحك حوله العديد من الهايتيين لسنوات.

في الصف في بارنارد، أثرنا بسرور المسائل الهيكلية حول «عيونهم كانت تراقب الرب». أكانت قصة حب أم قصة مغامرة؟ قررنا أنها يمكن أن تكون الاثنين، كما هو حال العديد من الروايات المعقدة الأخرى. إلى جانب ذلك، ألا تشمل المغامرات غالبًا رومانسية؟ أليست كل الرومانسيات مغامرات مثيرة؟

لقد أثرنا قضايا شغلتنا كنسويات وأنثويات (womansits)[1] صغيرات. أكانت جاني كروفورد قدوة جيدة للإناث أو أنها تُعَرَّف فقط من قبل الرجال

1- الأنثوية هي نظرية اجتماعية متجذرة في الظلم العنصري والقائم على نوع الجنس للنساء السود. هناك تفسيرات مختلفة حول ما يعنيه مصطلح «أنثوية»، والجهود المبذولة لتقديم تعريف شامل وموجز كانت ناجحة بشكل هامشي. الغموض في النظرية يسمح بالتوسع المستمر لمسلماتها، على الرغم من أن هذا الغموض يعتبر أعظم نقاط ضعفها. في جوهرها، الأنثوية هي منظور للتغيير الاجتماعي قائم على المشاكل اليومية وتجارب النساء السود والنساء الأخريات من الأقليات في التركيبة السكانية، ولكن على نطاق أوسع تسعى للقضاء على عدم المساواة ليس فقط للنساء السود، ولكن لجميع الناس. (المترجمة)

في حياتها؟ جادل الكثيرون منا أن جاني لم يتوجب عليها أن تكون نموذجًا يحتذى به على الإطلاق. ببساطة كانت لابد وأن تكون شخصية مدركة ومعقدة تمامًا، كما كانت. فهي بالتأكيد أظهرت إرادة خاصة بها على الرغم من الجهود المبذولة من جدتها وزوجيها الأولين للسيطرة عليها، فقد تركت زوجها الأول عندما صارت الحياة معه لا تطاق، ومضت مع تي كيك ضد رغبة الجميع بعد وفاة الزوج الثاني.

لماذا سمحت جاني لتي كيك بضربها؟ يعتقد البعض منا أن هيرستون حاولت أن تصور الشخصيات على أنهم ليسوا قديسين جدًا ولا أشرار أيضًا. رجالها ونساؤها كانوا دقيقين ويعكسون القوة البشرية، وكذلك الضعف. لو كان تي كيك قاسيًا جدًا، لما كانت جاني أحبته على الإطلاق. لو كان تقيًا بانتظام، فبدلًا من أن يكون مساويًا لها، كما كان وهما يعملان في الحقول، سيصبح معبودها، و«كل الآلهة الذين يتلقون الإجلال قساة. كل الآلهة يوزعون المعاناة دون أسباب... أنصاف الآلهة يُعبدون بالنبيذ والزهور. لكن الآلهة الحقيقية تشترط الدم». وفي النهاية، جاني تتلقى من تي كيك ما يعادل الثلاثة- النبيذ، الزهور، والدم- صار مثل قريب عزيز لا يمكننا التغاضي عن حبه أبدًا بكل إخلاص. تي كيك يهب حياته لجاني، وهذا، دون أي شيء آخر، بمثابة تكفير عن العديد من خطاياه.

وعلى الرغم من خيارات جاني فيما يتعلق بتي كيك، أو ربما بسببه، فقد عرفت حرية أكبر من الكثير من النساء (بالتأكيد معظم النساء الفقيرات) في وقتها. وبقدر ما كانت تحب تي كيك، إلا أنها اختارت في نهاية المطاف أن تعيش وليس أن تموت معه، وفعلها النهائي لم يكن أن تلحق به إلى القبر، ولكن أن تدفنه وتعود وحدها إلى المجتمع الذي لن يتقبلها ويرحب بها دون أن تقدم له تفسيرًا حول المكان الذي كانت فيه، والأحداث التي مرت بها.

لعقود عديدة، ونأمل أن تكون لقرون قادمة، ستظل رواية «عيونهم كانت تراقب الرب» هي مركز تراث زورا نيل هيرستون باعتبارها روائية. ربما لأنها كتبت في فترة قصيرة وانفعالية، كما ذكر. هذه رواية بها إحساس طاغٍ بالاستعجال والإلحاح في حبكتها المتعددة الطبقات، وتيرتها السريعة، سردها المعقد، وفي الكرب الخام التي تحركها المسارات المتعارضة التي وضعت لجاني كروفورد وهي تحاول النجاة من تصور جدتها المقيد حول حياة المرأة السوداء، وتحقق تحررها الذاتي. مثل كل المفكرين الفردانيين، جاني كروفورد تدفع الثمن بالاستبعاد بسبب الانشقاقية، كما هيرستون نفسها، التي اتهمت بتنميط الناس الذين تحبهم ببساطة لو استمعت إليهم عن كثب أكثر من غيرهم، ولو سعت إلى استعادة وإعادة تصنيف أصواتهم.

لا تقدم الرواية نظرة نفاذة فقط لتطور عملية التفكير لدى جاني، ولكنها تجعلنا نفتطن لطريقة عمل عقول أولئك الذين يرغبون في إدانتها. جاني، مع ذلك، لم تكن انتقادية بشكل مفرط حيال ردود أفعال جيرانها. فإما كانت تتجاهلهم تمامًا أو ترثى لهم لعدم تركهم قط لأمان مدينتهم، ولأنهم لم يعيشوا ويحبوا بعمق كما فعلت. بعد أن نجت من كل ما مرت به، أصبح لدى جاني الآن فهم أعمق لتصرفاتها الخاصة، فضلاً عن فهم أكبر للسلوك البشري بشكل عام.

«إنها حقيقة معروفة يا فيبي، عليك الذهاب إلى هناك لتعرف ماذا هناك»، شرحت لصديقتها. «هناك شيئان يجب على الجميع فعلهما لأنفسهم... عليهم التوجه إلى الرب وعليهم أن يعرفوا كيف يعيشون لأنفسهم».

إلى جانب الصراع التقليدي بين رغبات الفرد واستنكار المجتمع، هناك العديد من الزخارف المعاصرة في هذه الرواية، الأحداث التي كان يمكن

التقاطها بسهولة من عناوين الصحف في بواكير القرن الحادي والعشرين: الزواج دون حب؛ العنف اللفظي والجسدي؛ الموت الرحيم، أو القتل دفاعًا عن النفس، وهذا يتوقف على كيفية تفسير ذلك؛ الحب الممنوع؛ العلاقات العامة والعاطفية بين رجل أصغر سنًا وامرأة أكبر في محطات مختلفة من الحياة. العديد من الشخصيات الثانوية في الرواية متعددة الثقافات بشكل حيوي، من الأميركيين الأفارقة إلى الهنود إلى الكاريبيين الذين يعيشون ويعملون في إيفرغليدز. (حتى يومنا هذا تظل العمالة المهاجرة والأعاصير عناصر ملموسة جدًا للحياة في ولاية فلوريدا).

تأثير عمل زورا، وخاصة «عيونهم كانت تراقب الرب»، سيظل محسوسًا لسنوات في أعمال عدة أجيال من الكُتاب. على سبيل المثال، تتشارك جاني كروفورد قرابة أدبية مع سيلي لآليس ووكر في «اللون الأرجواني»، فعيونها لم تكن تراقب الرب فقط، بل كلماتها وحروفها وصوتها كانت تتحدث مباشرة إلى الرب.

جزء من السبب الذي جعل ناني جدة جاني تدفعها للزواج بلا حب من لوغان كيليكس، زوجها الأول، هو أن ناني ولدت في زمن العبودية، ولم يكن لديها الكثير من الخيارات في مصيرها الخاص. كانت ناني تشتهي ملذات صغيرة، مثل الجلوس مكتوفة الأيدي على الشرفة، وأرادت لحفيدتها أن تحصل على ذلك، إلى جانب المال والمكانة بغض النظر عن التكلفة النفسية. ما لم تفكر فيه ناني أنه ربما يكون لجاني أفكارها الخاصة عن الحرية. ومع ذلك، كانت ناني أيضًا منزعجة بسبب حلم مؤجل يخصها. ناني تعترف لجاني الشابة، «أريد أن أقدم عظة عظيمة حول النساء الملونات المحظوظات، ولكن لم يقدم أي أحد منبرًا لي».

في رواية توني موريسون «محبوبة»، جدة محبوبة بايبي سغز ألقت خطبة،

لكن ناني لم تحصل على فرصتها للتبشير. بايبي سغز «أصبحت واعظة غير كنسية تزور المنابر»، على كل حال، كان المنبر الأكثر استخدامًا ذلك الذي خلقته بايبي سغز لنفسها، في الهواء الطلق، في المقاصة: «بعد أن موضعت نفسها على صخرة جانبية ضخمة، أحنت بايبي سغز رأسها وصلّت بصمت... وأخيرًا نادت النساء. وقالت: اصرخن للأحياء والموتى. ابكين. ودون تغطية عيونهن، أطلقت النساء العنان لأنفسهن».

ما الفرق الذي كان يمكن أن يحدث في حياة جاني لو أنها سمعت جدتها تلقي هذه الموعظة، لو أنها سمعت ناني تقول، كما قالت بايبي سغز، «أحبي قلبك أكثر من رحمك وأعضاءك الخاصة... أحبي قلبك. لأن هذه هي المكافأة».

## VI

في السرد الحلقي لـ «عيونهم كانت تراقب الرب»، في نهاية الكتاب، حياة جديدة كاملة أمامنا، مصير مجهول يواجه جاني كروفورد التي لا تزال شابة نسبيًا. لقد حكت قصتها وأحست بالرضا «هذا الكشف الذاتي التواق القديم». والآن يجب عليها أن تستمر.

نحن نعلم أن جاني لن تنسى أبدًا تي كيك. ليس فقط لأنها أحبته بعمق شديد، ولكن لأن حياتها وأسفارها معه فتحت لها العالم وقلبها بطرق لا رجعة فيها. ومع ذلك، فإننا نحصل على تلميحات أن جاني ستستمر في العيش بشروطها الخاصة، حتى بعد أن فقدت حبيبها، فقد اكتشفت العديد من الطبقات العميقة من نفسها أيضًا.

«الآن، هكذا حدث كل شيء يا فيبي، كما أخبرتك»، قالت لصديقتها

وهي تستعد لإنهاء قصتها. «وهكذا، فقد عدت إلى المنزل مرة أخرى وأنا سعيدة بأن أكون هنا. لقد وصلت إلى الأفق والآن عدت إلى هنا في منزلي وأعيش من خلال المفاضلات».

حياة جاني، على سبيل المقارنة، قد تبدو أكثر اضطرابًا من غيرها. ومع ذلك، كلٌ من ماضيها ومستقبلها يمكن تمييزهما من خلال الطريقة التي تصف بها حبها لتي كيك في نهاية الكتاب. ليست مثل حجر الرحى الذي هو نفسه في كل مكان وله نفس التأثير على كل ما يمسه، ولكن مثل البحر، بحر السفن البعيدة التي تحمل أمنية كل رجل على متنها، البحر القوي الذي «يأخذ شكله من الشاطئ الذي يقابله»، وهو «مختلف مع كل شاطئ».

# مقدمة

في عام ١٩٨٧م، في الذكرى الخمسين للإصدار الأول لكتاب «عيونهم كانت تراقب الرب»، أدرجت مجلة جامعة إلينوي شعارًا في الزاوية اليمنى من طبعة الذكرى: «١٩٨٧ / الذكرى الـ٥٠ - لا يزال من أكثر الكتب مبيعًا!» على الغلاف الخلفي، باستخدام اقتباس من صحيفة ساترداي ريفيو لدوريس غرومباش، تعلن فيه أن «عيونهم كانت تراقب الرب»، أفضل رواية سوداء في وقتها « و «واحدة من أفضل الروايات في كل العصور». كانت زورا نيل هيرستون لتندهش وتسر لهذا الانقلاب المذهل في استقبال روايتها الثانية، والتي ظلت لما يقرب من ثلاثين عامًا بعد نشرها لأول مرة غير مطبوعة، وغير معروفة إلى حد كبير وغير مقروءة، ومرفوضة من قبل المؤسسات الأدبية بطرق خفية وحتى غير خفية. أشاد أحد النقاد البيض في عام ١٩٣٧م بالرواية في ساترداي ريفيو أنها «قصة حب غنية ومفعمة بالحيوية، ولو كانت غريبة بعض الشيء»، ولكن واجه صعوبة في التصديق بأن مدينة مثل إيتونفيل، «مأهولة وتخضع بالكامل للزنوج»، يمكن أن تكون حقيقية.

كان النقاد الذكور السود أقسى بكثير في تقييمهم للرواية. منذ بداية حياتها المهنية، كانت هيرستون تتعرض لانتقادات شديدة لعدم كتابة التخييل في تراث الاحتجاج. قال ستيرلينغ براون في عام ١٩٣٦ عن كتابها السابق «البغال والرجال» أنه لم يكن لاذعًا بما فيه الكفاية، لأنها لم تصور

الجانب القاسي لحياة السود في الجنوب، وأن هيرستون جعلت الحياة الجنوبية السوداء تبدو هادئة وسعيدة. كتب آلان لوك، عميد العلماء والنقاد السود خلال نهضة هارلم، في مراجعته السنوية للأدب في مجلة أبرتيونيتي أن رواية هيرستون «عيونهم كانت تراقب الرب» تعزوها خطوات لتلتحق بالاتجاهات الأكثر جدية الشائعة في تلك الأوقات. وسأل، متى ستتوقف هيرستون عن خلق «هذه البدائيات الزائفة التي لا زال جمهور القراء يحب أن يضحك معها، يبكي عليها، ويحسن بحسد تجاهها»، و «تأتي للتعامل مع الخيال الدافع والخيال التوثيقي الاجتماعي؟» إن النقد الأكثر ضررًا من كل ذلك جاء من الكاتب الأسود الأشهر والأكثر تأثيرًا، ريتشارد رايت. الذي كان يكتب للمجلة اليسارية (نيو ماسز). شجب رايت رواية «عيونهم كانت تراقب الرب» وقال إنها قدمت للأدب ما قدمته العروض الكوميدية التي تم تطويرها في القرن التاسع عشر للمسرح، بمعنى أنها جعلت البيض يضحكون. قال إن الرواية «لا تحمل أي موضوع، ولا رسالة، ولا فكر»، ولكنها استغلت تلك الجوانب «الغريبة» لحياة الزنجي لترضي ذوق الجمهور الأبيض. بحلول نهاية الأربعينيات، العقد الذي كانت الهيمنة فيه لرايت وللخيال العاصف للواقعية الاجتماعية، لم يمكن الصوت الخفيض للمرأة التي تبحث عن تحقيق الذات مسموعًا ولن يسمع.

مثل معظم أصدقائي وزملائي الذين كانوا يدرسون في أقسام الدراسات المتعلقة بالثقافة السوداء المتشكلة حديثًا في أواخر الستينيات، يمكنني أن أذكر بشكل واضح جدًا اكتشافي لرواية «عيونهم كانت تراقب الرب». في وقت ما خلال عام ١٩٦٨م، في واحدة من العديد من المكتبات السوداء المزدهرة في البلاد – مكتبة فون، كانت في ديترويت– عبرت قرب الكتاب الورقي ذو الغلاف النحيل (بـ ٧٥ سنت)؛ مع صورة منمنمة لجاني كروفورد وجودي

ستاركس على الغلاف- كانت تضخ ماءً من البئر، شعرها الطويل منسدل أسفل ظهرها، ورأسها ملتف قليلًا فقط في اتجاهه مع نظرة شوق وترقب. وهو يقف على مسافة بقميصه الحريري الفخم والحمالات الأرجوانية، ومعطفه على ذراع واحدة، ورأسه متجه إلى جانبها، مع نظرة تحدث جاني من الآفاق البعيدة.

ما أحببته فورًا في هذه الرواية إلى جانب شعريتها العالية وبطلتها الأنثى كان استثماراتها في التراث الشعبي الأسود. هنا، في نهاية المطاف، كان هناك امرأة تسعى لهويتها الخاصة، على عكس الكثير من الشخصيات الساعية الأخرى في الأدب الأسود، رحلتها سوف تأخذها، ليس بعيدًا عن السواد، بل أعمق وأعمق فيه، الذهاب إلى إيفرغليدز بتربتها الغنية السوداء، القصب البري، والحياة المجتمعية التي تمثل الانغماس في التراث الأسود. بالنسبة لمعظم النساء السود اللاتي اكتشفن «عيونهم كانت تراقب الرب» لأول مرة، ما كان أكثر إقناعًا هو شخصية جاني كروفورد القوية، المتبلورة، المعتمدة على ذاتها، والتي تختلف اختلافًا جذريًا عن أي امرأة واجهوها في الأدب قط. أندريا راشينغ، أستاذة في قسم دراسات الأدب الأفرو-أميركي في جامعة هارفارد، تتذكر قراءة «عيونهم كانت تراقب الرب» في مجموعة دراسة نسائية مع نيلي مكاي، باربرا سميث، وغيل بيمبرتون. «أحب لغة هذا الكتاب»، تقول راشينغ: «ولكن في الغالب أحب الكتاب لأنه كان عن امرأة لم تكن مثيرة للشفقة، لم تكن مأساوية، تحدّت كل ما كان متوقعًا منها، انطلقت مع رجل دون أن تكلف نفسها عناء الطلاق من الآخر ولم تنكسر، أو تنسحق، أو تنهار».

رد فعل النساء في جميع أنحاء البلاد اللاتي وجدن أنفسهن ممثلين بهذه القوة في النص الأدبي في كثير من الأحيان كان مباشرًا وشخصيًا. كان

القراء يتحدثون عن جاني وتي كيك كما لو كانا شخصين يعرفونهما عن كثب. تتذكر شيرلي آن وليامز الذهاب إلى مؤتمر في لوس أنجليس في عام ١٩٦٩م حيث قال المتحدث الرئيسي، توني كيد بامبارا، للنساء في الجمهور، «هل الأخوات هنا على استعداد لتي كيك؟» وردت ويليامز التي كانت تتذكر أن حتى تي كيك كان له عيوبه، «هل كل تي كيك في العالم مستعدٌ لنا؟» درست ويليامز «عيونهم كانت تراقب الرب»، لأول مرة في جامعة فريسنو في ولاية كاليفورنيا، في منطقة زراعية للمهاجرين حيث الطلاب، مثل الشخصيات في رواية «عيونهم كانت تراقب الرب»، كانوا يحصلون على قوتهم من الأرض. «لأول مرة»، تقول ويليامز، «رأوا أنفسهم في هذه الشخصيات ورأوا حياتهم تُصَوَّر بفرح». تعليق راشينغ على الأنثى كبطلة، وقصة ويليامز عن الصورة البهيجة للثقافة معًا يجسدان ما رآه النقاد في وقت لاحق كمساهمة الرواية الفريدة في الأدب الأسود: فهي تجزم بالتراث الثقافي الأسود وتراجعه لاستخدامه في تمكين المرأة السوداء.

بحلول عام ١٩٧١م، كانت رواية «عيونهم كانت تراقب الرب» ظاهرة سرية، تطفو هنا وهناك، أينما كان هناك اهتمام متزايد بالدراسات الأفرو-أمريكية وأستاذة أدب سوداء. كانت أليس ووكر تُدَرِسُ الرواية في ولسلي في العام الدراسي ١٩٧١-١٩٧٢م عندما اكتشفت أن هيرستون لم تكن سوى حاشية في المنحة الدراسية. وقرأت في مقال لفولكلوري أبيض أن هيرستون دفنت في قبر دون شاهد حتى، قررت ووكر أن مثل هذا المصير كان إهانة لهيرستون وبدأت بحثها عن القبر لوضع شاهد عليه. في مقال شخصي، «البحث عن زورا نيل هيرستون» كُتِبَ لمجلة (مِس)، تصف ووكر الذهاب إلى ولاية فلوريدا والبحث خلال الحشائش العالية للعثور على ما اعتقدت أنه كان قبر هيرستون لتضع عليه علامة «زورا نيل هيرستون/ عبقرية من

الجنوب/ روائية/ فولكلورية/ أنثروبولوجية/ ١٩٠١-١٩٦٠م». بهذه الكتابة على شاهد قبرها والمقال، آذنت ووكر ببدء حقبة جديدة في تدريس «عيونهم كانت تراقب الرب».

وبحلول عام ١٩٧٥، كانت رواية «عيونهم كانت تراقب الرب»، والتي نفذت طبعاتها مرة أخرى، مطلوبة بشدة حتى أن عريضة تم تعميمها في ديسمبر ١٩٧٥م لمؤتمر جمعية اللغة الحديثة (MLA) لإعادة طباعة الرواية مرة أخرى. في نفس العام في مؤتمر حول أدب الأقليات عقد في جامعة ييل وأداره مايكل كوك، تم توزيع بعض النسخ من «عيونهم كانت تراقب الرب» التي كانت متاحة لمدة ساعتين للمشاركين في المؤتمر، الكثيرون منهم كانوا يقرأون الرواية لأول مرة. في مارس من عام ١٩٧٧م، عندما نشرت لجنة مجموعات الأقليات ودراسات اللغة والأدب القائمة الأولى للكتب التي لم تعد نسخها متوفرة وتوقفت طبعاتها والأكثر طلبًا على المستوى الوطني، قال منسق البرنامج، ديكستر فيشر: «عيونهم كانت تراقب الرب بالإجماع في رأس القائمة».

بين عامي ١٩٧٧م و١٩٧٩م كانت نهضة زورا نيل هيرستون في ازدهار كامل. السيرة الذاتية التي كتبها روبرت هيمنوي «زورا نيل هيرستون: سيرة أدبية»، والتي نشرت في عام ١٩٧٧م، كانت الكتاب الأكثر مبيعًا في مؤتمر جمعية اللغة الحديثة «MLA» في ديسمبر١٩٧٧م. طبعة جامعة إلينوي الجديدة من «عيونهم كانت تراقب الرب»، والتي نشرت بعد عام من سيرة هيمنوي في مارس من عام ١٩٧٨م، جعلت الرواية متاحة على أساس ثابت طيلة السنوات العشر القادمة. ونشرت مطبعة (ذا فيمنست برس) في عام ١٩٧٩م كتاب «أحب نفسي عندما أضحك... وأحبها عندما أبدو لئيمة ومثيرة للإعجاب: زورا نيل هيرستون»، الذي حررته أليس ووكر. ربما أكثر

من أي شيء آخر، هذه الأحداث الأدبية الثلاثة جعلت من الممكن إنتاج سلسلة من الدراسات حول أعمال هيرستون.

ولكن الحدث الذي كان بالنسبة لي حقًا بداية الموجة الثالثة من الاهتمام البالغ برواية «عيونهم كانت تراقب الرب» وقع في ديسمبر من عام ١٩٧٩م في مؤتمر جمعية اللغة الحديثة في سان فرانسيسكو في جلسة عنونت باقتدار بـ «التراث وتحولاته في الخطابات الأفرو-أمريكية» والذي كان برئاسة روبرت ستبتو من جامعة ييل، وجون كالاهان من كلية لويس وكلارك، وأنا (حين كنت منتسبة إلى جامعة ديترويت). على الرغم من حقيقة أن الندوة كان من المقرر انعقادها صباح يوم الأحد، وكانت آخر ندوة في المؤتمر بأكمله، إلا أن الغرفة كانت معبأة بجمهور مهتم بشكل استثنائي. في تعليقه في نهاية الندوة، أثار ستبتو القضية التي أصبحت واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل وهي: ما إذا كانت جاني قادرة أم لا على إيجاد صوتها في «عيونهم كانت تراقب الرب». ما أقلق ستبتو كانت مشهد قاعة المحكمة الذي استدعيت فيه جاني ليس فقط للحفاظ على حياتها الخاصة وحريتها ولكن أيضًا لجعل هيئة المحلفين، وكذلك من يسمع قصتها، يفهم معنى حياتها مع تي كيك. وجد ستبتو جاني صامتة بشكل غريب في هذا المشهد، بينما تحكي هيرستون القصة على لسان شخص ثالث لا نسمع جاني تتكلم، على الأقل ليس بصوتها الشخصي. كان ستبتو مقتنعًا تمامًا (ومقنعًا بحجته) أن إطار القصة الذي تتحدث فيه جاني إلى فيبي يخلق الوهم بأن جاني وجدت صوتها، وأن إصرار هيرستون على رواية قصص جاني بلسان شخص ثالث يضعف قوتها كمتحدثة. في حين يكافح بقيتنا في الغرفة للعثور على أصواتنا، ترتفع أليس ووكر وتمتلك صوتها، وتصر بحماس أن النسوة لا يجب أن يتكلمن عندما يعتقد الرجال أنه ينبغي عليهن، وأنهن سوف يخترن متى وأين يرغبن في

التكلم لأنه بينها وجدت العديد من النسوة أصواتهن، فقد كن يعرفن أيضًا متى كان من الأفضل لهن عدم استخدامها. ما كان ملحوظًا أكثر حول المناقشات الحيوية وأحيانًا الساخنة التي تلت تصريحات ستبتو ووكر كان افتراض الجميع في تلك الغرفة أن «عيونهم كانت تراقب الرب» هو نص مشترك، وأن رواية منذ عشر سنوات فقط لم تكن معروفة ولا متوفرة دخلت حيز القبول الحساس ربما كأكثر النصوص حظًا ومعرفة في تاريخ الأدب الأفرو-أميركي.

كانت ندوة جمعية اللغات الحديثة «MLA» تلك مهمة لسبب آخر. دفاع ووكر عن خيار جاني (الذي كان في الواقع خيار هيرستون) الذي كان صامتًا في أماكن حاسمة في الرواية تحول إلى أن يكون أول قراءة نسوية للصوت في «عيونهم كانت تراقب الرب»، وهي القراءة التي تم دعمها في وقت لاحق من قبل العديد من دارسي هيرستون الآخرين. في مقال حديث عن «عيونهم كانت تراقب الرب»، وحول مسألة الصوت يقول مايكل أكوارد أن صوت جاني في نهاية الرواية كان كوميونيًا، وأنها عندما أخبرت فيبي أن تروي قصتها («يمكنك إخبارهم بما قلته لو أردتِ، الأمر سيان بالنسبة لي، فلساني في فم صديقتي») اختارت صوتًا جمعيًا بدلًا عن الصوت الفردي، مما يدل على التقارب مع الروح الجمعية للتراث الشفهي الأفرو-أميركي. يوافق ثاد ديفيس على هذه القراءة للصوت، مضيفًا أنه في حين أن جاني هي راوية الحكاية، فإن فيبي هي حاملة الحكاية. يقول ديفيس أن حياة جاني التجريبية قد لا تسمح لها بإحداث تغييرات أكبر مما تسببت في تحققها في حياة فيبي؛ ولكن فيبي، التي تقف داخل الدور التقليدي للمرأة، هي الأكثر ملاءمة لإيصال الرسالة إلى المجتمع.

وكذلك مثل ستبتو، أنا أيضًا غير مرتاحة لغياب صوت جاني في مشهد

قاعة المحكمة، وأعتقد أن هذا الصمت يعكس عدم ارتياح هيرستون مع نموذج البطل الذكر الذي يؤكد نفسه من خلال صوته القوي. عندما اختارت هيرستون بطلة أنثى للقصة واجهتها معضلة مثيرة للاهتمام: وجود الإناث كان في جوهره منتقدًا من قبل الثقافة الشعبية التي يهيمن عليها الذكور، وبالتالي لا يمكن أن يكون ممثلها البطولي. عندما تقول جاني في نهاية قصتها أن «الكلام لا يساوي الكثير لو طُلِقَ من التجربة»، فإنها تشهد على القيود المفروضة على الصوت وتنتقد الثقافة التي تحتفل بالشفاهي لدرجة استبعاد النمو الداخلي. خطابها النهائي لفيبي في نهاية «عيونهم كانت تراقب الرب» يلقي في الواقع شكوكًا على أهمية التعبير الشفاهي، ويدعم ادعاء أليس ووكر أن صمت المرأة يمكن أن يكون متعمدًا ومفيدًا:

«بالتأكيد الكلام لا يساوي الكثير لتل البقول عندما لا تستطيع فعل أي شيء آخر... فيبي، عليك أن تذهبي إلى هناك لتعرفي هناك. لا والدك ولا والدتك ولا أي شخص يمكنه أن يريك ذلك. هناك شيئان على المرء أن يفعلهما لنفسه. عليه أن يذهب إلى الرب، وعليه أن يتعلم العيش لأجل ذاته».

لغة الرجال في «عيونهم كانت تراقب الرب» كانت دائمًا مفتقدة تقريبًا لأي نوع من الشعور الباطني، ونادرًا ما يظهر الرجال في عملية النمو. حديثهم إما لعبة أو وسيلة لممارسة السلطة. حياة جاني كانت عن تجربة العلاقات، وعلى الرغم من أن جودي وتي كيك وسائر الرجال الآخرين في الأساس شخصيات ساكنة، فإن جاني وفيبي كانتا توليان اهتمامًا أكبر لحياتهن الداخلية الخاصة -التجربة- لأنها موقع النمو.

إذا كان هناك أي شيء تعلمناه من الدراسات الكثيرة لرواية «عيونهم كانت تراقب الرب»، فهو أن النص غني ومعقد، وأن كل جيل من القراء سوف يجلب شيئًا جديدًا لفهمنا لها. إذا كنا أحسسنا في السابق بالوصاية

تجاه النص ولم نكن مستعدين لإخضاعه للتحليل الأدبي خلال السنوات الأولى من ولادته الجديدة، فذلك لأنه كان نصًا محببًا لمن اكتشف منا فيه شيئًا من تجاربنا، ولغتنا، وتاريخنا. في عام ١٩٨٩م، وجدت نفسي أطرح أسئلة جديدة حول «عيونهم كانت تراقب الرب» -تساؤلات حول تناقض هيرستون تجاه بطلتها الأنثى، حول تصويرها غير النقدي للعنف ضد المرأة، حول الطرق التي كان صوت جاني بها مهيمنًا عليه من قبل الرجال حتى في مسارات نموها الداخلي. في «عيونهم كانت تراقب الرب»، لم تعطنا هيرستون شخصية نسائية بطلة بشكل لا لبس فيه. لقد وضعت جاني على مسار الحكم الذاتي، وتحقيق الذات، والاستقلال، ولكنها وضعتها أيضًا في موقف البطلة الرومانسية كموضوع بحث تي كيك، وفي أحيان جعلتها خاضعة تمامًا للوجود الرائع لتي كيك لدرجة أن حياتها الداخلية كانت تكشف المزيد عنه وليس عنها. ما تبينه لنا رواية «عيونهم كانت تراقب الرب» هو كاتبة تكافح مع مشكلة البطل الساعي كامرأة وصعوبات منح المرأة شخصية تمتلك مثل هذه السلطة والجرأة في عام ١٩٣٧م.

لأن رواية «عيونهم كانت تراقب الرب» ظلت تطبع باستمرار منذ عام ١٩٧٨م، فقد أصبحت في المتناول سنويًا لآلاف القراء. ويتم تدريسها في الكليات في جميع أنحاء البلاد، وشعبيتها وتوافرها ولدا عقدين من الدراسات الأدبية المميزة. ولكنني أريد أن أتذكر التاريخ الذي وجه هذا النص نحو ولادة جديدة، وخاصة الروح الجماعية في الستينيات والسبعينيات التي حركتنا في العمل السياسي لاسترداد الأعمال المفقودة من الكاتبات السوداوات. هناك تناظر جميل بين النص والسياق في حالة «عيونهم كانت تراقب الرب»: كما أن الرواية تؤكد وتحتفل بالثقافة السوداء فإنها تعكس نفس التأكيد للثقافة السوداء لإثارة الاهتمام في النص؛ جاني تحكي قصتها

لمستمعة صديقة، فيبي، لتوحي لي بكل أولئك النساء اللاتي اكتشفن حكاياتهن الخاصة في قصة جاني ونقلنها من واحدة إلى أخرى. وبالتأكيد، كما تمثل الرواية امرأة تعيد تعريف شرائع الهيمنة الذكورية وتصححها، فأولئك القراء، مثل جاني، جعلن أصواتهن مسموعة في عالم الرسائل، ليصححن الشرائع بينما يؤكدن مكانهن الصحيح فيها.

ماري هيلين واشنطن

# 1

السفن البعيدة تحمل أمنية كل رجل على متنها. بالنسبة للبعض فهي تأتي بالمد والجزر. وبالنسبة لآخرين فهي تبحر إلى الأبد في الأفق، تحت ناظريك دائمًا، لكنها لا تهبط حتى يحول المراقب عينيه بعيدًا بتخلٍ، بينما يسخر الوقت من أحلامه حتى الموت. هذه هي حياة الرجال.

الآن، النساء ينسين كل تلك الأشياء التي لا يردن تذكرها، ويتذكرن كل ما لا يردن نسيانه. الحلم هو الحقيقة. ثم يقمن بعمل وفعل الأشياء وفقًا لذلك.

بداية كل هذا كانت امرأة، عائدة من دفن فقيد. ليس فقيدًا غافله المرض وقضي محاطًا بالأصدقاء الواقفين عند وسادة قدميه. بل عادت من الموت الخطل والمنتفخ؛ الموت المفاجئ الذي يجعل العيون مفتوحة باتساع عند المحاكمة.

الجميع رآها وهي عائدة لأنها عادت عند الغروب. غربت الشمس، لكنها تركت بصماتها في السماء. كان ذلك وقت الجلوس في الشرفات على جانب الطريق. كان وقت السماع والتحدث. هؤلاء الجالسون على الشرفات كانوا منهكين طوال اليوم. التوحش والبهيمية كانت تحتل جلودهم. ولكن الآن، كل من المدير والشمس قد اختفيا، لذلك فقد استعادت جلودهم القوة والبشرية. أصبحوا أرباب الصوت وكل الأشياء الثانوية الأخرى. مرّروا الأمم خلال أفواههم. جلسوا ليصدروا الأحكام.

رؤيتها وهي آتية جعلتهم يتذكرون الحسد الذي اختزنوه خلال أوقات

أخرى. لذا فقد مضغوا الجزء الخلفي من عقولهم وابتلعوه باستمتاع. أطلقوا تصريحات نارية مصحوبة بالأسئلة، وأدوات قاتلة من الضحك. كانت قسوة جماعية. مزاج ينتعش. فالكلمات كانت تتحرك دون سادة؛ تمشي بتؤدة مثل اللحن في الأغنية.

«لمَ عادت إلى أوفرهيلز؟ ألم تجد فستانًا لترتديه؟ أليس هذا هو نفسه الفستان الأزرق المليء بالبقع الذي غادرت به؟ أين كل ذلك المال الذي تركه لها زوجها بعد وفاته؟ ماذا تظن هذه المرأة الأربعينية نفسها فاعلة وهي تسدل شعرها بهذا الشكل كما لو أنها فتاة صغيرة؟ أين تركت ذاك الفتى اليافع الذي تركت المكان معه؟ ظننت أنها ستتزوجه؟ أين تركها؟ ما الذي فعله بكل مالها؟ أراهن أنه هرب مع فتاة يافعة - لمَ لم تحافظ على مكانتها؟»

عندما وصلت إلى حيث يجلسون أدارت وجهها نحو الناس القرود[1] وحيتهم. تدافعوا بضجيج «مساء سعيد» وتركوا أفواههم مفتوحة وأذانهم مليئة بالأمل. خطابها كان سارًا كفاية، ولكنها بقيت متوجهة نحو مدخلها. وصمتت الشرفات منذهلة.

لاحظ الرجال مؤخرتها الصلبة كما لو أن هناك ثمار عنب في تجاويف وركها؛ والحبل الضخم من الشعر الأسود يتأرجح حتى خصرها وينحل في الهواء مثل الريشة؛ ثم يحاول نهديها المشاكسين صنع ثقوب في قميصها. هم، الرجال، كانوا ينقذون بالعقل ما فقدوه بالعين. أخذت النسوة القمصان البالية والأردية الموحلة وقادوها بعيدًا عن الذكرى. كان سلاحًا ضد قوتها ولو اتضح أنه ليس ذي أهمية، لا يزال هناك أمل أنها قد تنخفض إلى مستواهم في يوم من الأيام.

---

1- بالهندية: الناس القرود هو مصطلح استخدمه روديارد كيلينغ في كتاب الأدغال لوصف قرود غابة سيوني. (المترجمة)

لكن لم يتحرك أحد، لم يتكلم أحد، لم يفكر أحد حتى في بلع لعابه حتى انغلق باب مدخلها خلفها.

بيرل ستون فتحت فمها وضحكت بشدة لأنها لم تعرف ما الذي يمكنها فعله غير ذلك. وأسقطت حملها بالكامل على السيدة سميكينز وهي تضحك. شخرت السيدة سميكينز بعنف واصطكت أسنانها.

«أوف! دعوها وشأنها جميعًا. ليس علينا أن نهتم بها. لو لم يكن لديها الكياسة بشكل كافٍ لتقف وتعلم الجميع بما كان يحدث معها، فدعوها تمضي!»

«إنها لا تستحق حتى الحديث عنها»، قالت لولو موس ببطء عبر أنفها. «إنها تحاول أن تبدو مترفعة، ولكنها حقيرة. هذا ما لدي لقوله حول أولئك النسوة المسنات اللاتي يطاردن فتيانًا يافعين».

فيبي واتسون أمالت كرسيها الهزاز إلى الأمام قبل أن تبدأ بالتحدث «حسنًا، ليس هناك أي أحد يعرف ما يجري ليقول أي شيء. حتى أنا، صديقتها المقربة، لا أعرف ما يجري».

«ربما لا نرى الأشياء كما ترينها، ولكننا جميعًا نعلم كيف ذهبت من هنا وجميعًا بالتأكيد رأيناها تعود. ليس هناك فائدة لتذرعك لأجل سيدة مسنة مثل جاني ستاركس يا فيبي، سواء كنت صديقتها أو لا».

«بالنسبة لهذا الأمر، فهي ليست مسنة كما هو حال بعضكن».

«إنها تُقارب الخمسين عامًا على حد علمي يا فيبي».

«لا تبدو أكبر من الأربعين في هيئتها».

«إنها كبيرة جدًا بالنسبة لفتى بعمر تي كيك».

«تي كيك لم يعد فتى بعد الآن. فهو لابد قد بلغ الثلاثين».

«لا أهتم بكل هذا، كان يجب عليها التوقف وتبادل بضع كلمات معنا. إنها تتصرف وكأننا فعلنا لها شيئًا». اشتكت بيرل ستون. «إنها هي التي على خطأ».

«تعنين أنك غاضبة لأنها لم تتوقف وتخبرنا عن أمور تخصها وحدها. على كل حال، ما هو الشيء السيء جدًا الذي رأيتموها جميعًا تفعله؟ أسوأ شيء عرفتها تفعله كان إنقاص بضع سنوات من عمرها وهو شيء لا يؤذي أي شخص. أنتن ترهقنني. الطريقة التي تتحدثن بها تجعلني أعتقد أن ليس هناك شيء يفعله سكان هذه المدينة في أسرتهم سوى الصلاة للرب. أعذرنني لأنني سأذهب لأعطيها طبق عشاءً». وقفت فيبي بصرامة.

«لا تبالي بنا»، ابتسمت لولو، «اذهبي فقط، سوف نراقب لأجلك المنزل حتى تعودي. لقد أنهيت عشاءي. من الأفضل أن تذهبي لتطمئني عليها وتطلعي بقيتنا على ما يحدث».

«يا إلهي»، وافقت بيرل، «لقد انتهيت من هضمت طبق اللحم والخبز ذاك منذ وقت طويل. وأستطيع البقاء بعيدة عن المنزل كما أريد. زوجي ليس نيقًا».

«أه، فيبي، إذا كنت جاهزة للذهاب يمكنني أن أتمشى برفقتك إلى هناك»، تبرعت السيدة سيمبكينز. «الظلام قد حل. ربما يقبضك الرجل الوحش هاه».

«أشكرك، ولكن لا شيء يمكنه إمساكي خلال هذه الخطوات البسيطة التي سأسيرها. على كل حال فقد أخبرني زوجي أن ليس هناك شبح بإمكانه إمساكي. وبالنسبة لجاني لو كان لديها أي شيء لتخبركم به، فسوف

تسمعونه».

أسرعت فيبي وهي تحمل زبدية مغطاة في يدها. تركت الشرفة التي تقذف ظهرها بأسئلة غير مجابة. لقد أملوا أن الإجابات ستكون فظة وغريبة. عندما وصلت فيبي واطسون إلى المكان لم تدخل من خلال المدخل الرئيسي وعبر الممر وصولًا إلى الباب الرئيسي، بل مشت عبر جانب السياج ودخلت عبر المدخل الحميم الصغير وزبديتها مكدسة بالأرز الأسمر. لابد أن جاني في هذا الجانب.

وجدتها جالسة على عتبات الشرفة الخلفية واللمبات كلها مضاءة والمواقد منظفة.

«مرحبًا جاني، كيف حالكِ؟»

«أوه، بخير تمامًا، أحاول فقط إزالة بعض التعب والوحل من قدمي». وضحكت قليلًا.

«نعم أرى ذلك يا فتاة، تبدين بحال جيدة. تبدين وكأنك بعمر ابنتك». ضحكتا سوية. «حتى بوجود كل أولئك المتطفلين من أوفرهيلز فقد أظهرت أنوثتك».

«استمري! استمري! لابد أنكِ تظنين أنني أحضرت لك شيئًا. بينما لم أحضر شيئًا سوى نفسي».

«إنه لكرم وافر. أصدقائك لن يتمنوا شيئًا أفضل».

«سوف أقبل هذا الإطراء منك يا فيبي، لأنني متأكدة أنه نابع من القلب». مدت جاني يدها. «يا إلهي يا فيبي ألن تعطني هذا الطعام الذي أحضرته لي؟ لم أتناول شيئًا اليوم». ضحكتا سوية. «أعطني إياه وأجلسي».

«عرفت أنك ستكونين جائعة. ليس هناك وقت لجلب حطب الموقد بعد أن حل الظلام. أرزي الأسمر ليس جيدًا جدًا هذه المرة. ليس به ما يكفي من دهن لحم الخنزير المقدد، لكنني أعتقد أنه سوف يقضي على جوعك».

«سوف أطلعك على رأيي خلال دقيقة»، قالت جاني، وهي ترفع غطاء الزبدية. «يا فتاة، إنه جيد جدًا! لقد حولتِ شيئًا عاديًا إلى شيء مذهل».

«أعرف أنني لم أجلب طعامًا كثيرًا يا جاني. لكنني سأحضر لكِ في الغد طعامًا وافرًا».

أكلت جاني بشهية ولم تقل شيئًا. سحابة الغبار متعدد الألوان التي أثارتها الشمس في السماء كانت تستقر بدرجات بطيئة.

«حسنًا فيبي، خذي طبقك. ليس هناك شيء يمكنني أن أفعله بطبق فارغ. هذا الطعام كان مفيدًا جدًا».

ضحكت فيبي على مزح صديقتها القاسي. «لا زلت مجنونة كما كنتِ دائمًا».

«ناوليني خرقة الغسيل التي على الكرسي المجاور يا عزيزتي. دعيني أنظف قدمي». أخذت قطعة القماش وفركت بنشاط. أتاها الضحك من الشارع الرئيسي.

«حسنًا، أرى أن تلك الأفواه المتغطرسة ما زالت جالسة في ذات المكان. وأعتقد أنهن يلكنني في أفواههن الآن».

«نعم بالتأكيد. تعرفين أنك إذا مررت بجانب بعض الأشخاص ولم تتحدثي لتلائميهم فإنهم سوف يخوضون في جميع نواحي حياتك ويعرضون كل ما فعلته خلالها. يظنون أنهم يعرفون عنك أكثر مما تعرفينه عن نفسكِ. القلب الحسود يخلق آذانًا غادرة. إنهم يريدون أن يسمعوا منك ما يظنون أنه

حدث».

«لو لم يعد الرب يفكر فيهم بعد الآن فأنا أفعل، لقد فقدن الكرة بين الحشائش العالية»[1].

«أسمع ما يقلنه لأنهن يجتمعن في شرفتي لأنها على الطريق الرئيسي. زوجي ينزعج منهن أحيانًا ويجعلهن يعدن إلى منازلهن».

«سام محق أيضًا. فهن يبلين مقاعدك فقط».

«نعم، يقول سام إنهن يذهبن إلى الكنيسة ليتأكدن من أنهن سيرتفعن يوم الدينونة. لأنه اليوم الذي يصبح فيه كل سر معروف. وهن يردن أن يكن هناك ليسمعن كل شيء».

«سام مجنون تمامًا، لا يمكنك التوقف عن الضحك عندما تكونين معه».

«نعم عزيزتي. يقول إنه يريد أن يكون هناك أيضًا حتى يعرف من سرق غليونه».

«فيبي، سامك هذا لا يتوقف أبدًا! يا له من مجنون!».

«معظم هؤلاء السود النزقين يحبون التدخل في شئونك، حتى أنهم قادرون على تعجيل موتهم للوصول إلى يوم الدينونة ليعرفوا ما تخفينه لو لم يتمكنوا من معرفته في وقت أبكر. يجب أن تعجلي وتخبريهن عن زواجك من تي كيك، ولو أنه أخذ كل مالك وتركك لأجل فتاة صغيرة، وأين هو الآن وأين كل ملابسك ولمَ عدتِ إلى أوفرهيلز».

«لن أزعج نفسي بإخبارهم أي شيء يا فيبي. إنهم لا يستحقون العناء.

1- كرة مفقودة في الحشائش العالية مثل يشير إلى الأشخاص الذي لا يعرفون ماذا يفعلون، أو أين هم أو كيفية القيام بشيء ما. (المترجمة)

يمكنك إخبارهم بما قلت لو أردتِ. لأن لساني في فم صديقتي».

«لو رغبتِ فسوف أخبرهم ما أخبرتني أن أخبرهم به».

«في البداية، الناس أمثالهم يضيعون وقتًا طويلًا بوضع أفواههم في أشياء لا يعرفون شيئًا عنها. والآن يريدون أن ينظروا إلى حبيبي تي كيك ويعرفوا ما إذا فعل الصواب أم لا! إنهم لا يعرفون إذا كانت الحياة فوضى من فطائر دقيق الذرة، وإذا كان الحب هو لحاف السرير!»

«طالما يجدون اسمًا لنخره فهم لا يهتمون من هو، وما الذي حدث، خاصة لو جعلوك تبدو كالشرير».

«لو أنهم يريدون أن يعرفوا، لِمَ لم يأتوا لكي يُقَبِلوا ويُقَبَلوا؟ يمكنني حينها أن أجلس وأخبرهم بأشياء. لقد كنت متدبة للجزء الأكبر من حياتي. نعم سيدتي! المحفل الكبير، مؤتمر المعيشة الضخم هو المكان الذي كنت فيه خلال هذا العام ونصف ومعظمكم لم تروني».

جلستا متقاربتين في تلك الظلمة الفتية العذبة. كانت فيبي تواقة لأن تشعر وتعيش من خلال جاني، ولكنها كرهت إظهار الحماس خوفًا من أنها قد تظن أنه مجرد فضول. كانت جاني مليئة بذلك التوق البشري -الوحي الذاتي. عقدت فيبي لسانها لفترة طويلة، لكنها لم تتمكن من عدم تحريك قدميها. وتحدثت جاني.

«لا يجب عليهن القلق بشأني وبشأن عودتي إلى أوفرهيلز طالما ما زال لدي تسعمئة دولار في حسابي البنكي. لم يبدد تي كيك مالي، ولم يتركني لأجل فتاة صغيرة أيضًا. لقد قدم لي سلوان العالم كله. ولو كان هنا لأخبرهم نفس الشيء أيضًا، ولكنه توفي».

قالت فيبي بلهفة، «تي كيك مات؟»

«نعم فيبي، لقد مات تي كيك. وذلك هو السبب الوحيد لعودتي إلى هنا - لأنني لم أجد شيئًا يجعلني سعيدة حيث كنت. هناك في إيفرغليدز، هناك في حقول الوحل».

«يصعب عليّ فهم ما تعنينه، بالطريقة التي تحكينه بها. ولكن أنا أعاني صعوبة في الفهم أحيانًا».

«ليس هناك شيء مما تظنينه. لذلك لن تكون هناك فائدة من إخبارك شيئًا دون أن أتمكن من شرحه لكِ. لن تعرفي ما إذا كان الجلد حيوان المنك أو الراكون ما لم تري فروه. اسمعي فيبي، هل ينتظرك سام لإعداد العشاء؟».

«كل شيء مُعد وبانتظاره. لو لم يمتلك العقل الكافي ليأكل ما أعددت، فهذا من سوء حظه».

«حسنًا إذن، يمكننا أن نجلس هنا ونتحدث. لقد فتحت المنزل كله لأجعل الهواء الطلق ينتشر».

«فيبي، لقد كنا صديقتين حميمتين لعشرين عامًا، لذا أعتمد عليك من خلال فكرة جيدة. وأكلمك من وجهة النظر تلك».

الوقت يجعل كل شيء قديمًا، حتى الغروب الفتِي أصبح شيئًا كبيرًا بينما كانت جاني تتكلم.

# 2

رأت جاني حياتها كشجرة كبيرة وعلى أوراقها الأشياء تعاني، الأشياء تستمتع، الأشياء تَفعَلُ ولا تَفعَل. بالية ومتهالكة كانت في الفروع.

«أعرف تمامًا ما أود أن أقوله لكِ، لكن من الصعب معرفة أين أبدأ».

«لم أرَ والدي أبدًا. ولم أكن أعرف إذا كنت سأراه أو لا. أمي أيضًا رحلت عنا قبل أن أصبح كبيرة بما يكفي. جدتي ربتني. جدتي والناس البيض الذين كانت تعمل عندهم. كان لديها منزل في فناءهم الخلفي، وهناك نشأت. لقد كانوا بيضًا جيدين هناك في غرب فلوريدا. يدعون آشبورن. كان للسيدة أربعة أحفاد وقد كنا نلعب سوية ولم أكن أدعو جدتي قط بجدتي بل ناني. لأن كل من في المكان كانوا يدعونها بهذا الاسم. اعتادت جدتي أن تمسكنا ونحن نتشاقى وتضربنا جميعًا، وكانت السيدة آشبورن تقوم بالمثل. لا أتذكر أنه مر يوم دون أن يضربوننا، فأولئك الصبيان الثلاثة ونحن الفتاتان كنا مزعجين جدًا».

«كنت ألعب مع أولئك الأطفال البيض طوال الوقت ولذلك لم أعرف أنني لم أكن بيضاء حتى بلغت السادسة من العمر. لم أكن لاكتشف الأمر حينها لو لم يأتِ رجلٌ ليلتقط صورًا، ودون إخبار أحد، طلب منه شيلبي الفتي الأكبر الذي كان في السادسة أن يلتقط صورتنا. بعد مرور أسبوع عاد الرجل وأحضر الصورة للسيدة آشبورن لتراها وتدفع له، وهو ما فعلته قبل أن تضربنا جميعًا».

«لذا عندما نظرنا إلى الصورة وأشار الجميع إلى أنفسهم لم يتبقَ في الصورة

سوى فتاة صغيرة داكنة البشر بشعر طويل تقف قرب إلينور. كان يفترض أن هذه أنا، لكنني لم أميز تلك الفتاة داكنة البشرة على أنها أنا. لذا سألت: أين أنا؟ لا أراني».

«ضحك الجميع، حتى السيد آشبورن. الآنسة نيلي، والدة الأطفال التي عادت إلى المنزل بعد أن توفي زوجها، أشارت إلى الفتاة ذات البشرة الداكنة وقالت، «هذه أنتِ يا آلفابيت، ألا تعرفين نفسك؟»

«كانوا جميعهم يدعونني آلفابيت، وقد كانت تطلق عليّ الكثير من الأسماء. نظرت إلى الصورة وقتًا طويلًا ولاحظت أنه الذي في الصورة كان فستاني، وأيضًا شعري لذا قلت: أوه، أوه! أنا ملونة! ثم ضحكوا جميعهم بقوة. ولكن قبل أن أرى الصورة ظننت أني مثل الباقين».

«كنا نستمتع بوقتنا هناك حتى بدأ الأطفال في المدرسة في إغاظتي بأننا نسكن في الفناء الخلفي لأناس بيض. كان هناك فتاة معقدة تدعى ماربيلا اعتادت أن تشتاط غضبًا كلما رأتني. اعتادت السيدة آشبورن أن تلبسني الملابس التي لم يعد أحفادها يرتدونها بعد الآن والتي كانت لا تزال أفضل بكثير من ملابس باقي الأطفال الملونين».

«ثم اعتادت أن تضع ربطات في شعري. وكانت هذه الربطات تغيظ ماربيلا كثيرًا. لذا فقد كانت تسخر مني طوال الوقت وتجعل الآخرين يقومون بالمثل. كانوا يبعدونني عن الألعاب في الساحة وكانوا يقولون إنهم لا يستطيعون اللعب مع شخص يعيش في الفناء الخلفي لأسياده البيض. ومن ثم أخبروني بأن لا أصبح مأخوذة بمظهري جدًا لأن أمهاتهم أخبروهم عن مطاردة والدي بالكلاب طوال الليل. أخبروهم أن السيد آشبورن والشريف أطلقوا الكلاب البوليسية لتطارد والدي بسبب ما فعله بأمي. لكنهم لم يخبروهم كيف حاول والدي التواصل مع والدتي بعدها لكي

يتزوجها. لم يذكروا هذا الجزء من الحكاية قط. جعلوا القصة تبدو سيئة جدًا ليزعزعوا كياني. لم يتذكر أي منهم اسمه حتى، ولكن جميعهم عرفوا قصة الكلاب البوليسية عن ظهر قلب. لم تكن ناني تحب أن تراني محبطة، لذلك فقد فكرت أنه سوف يكون أفضل لي لو كان لنا منزل يخصنا. اشترت ناني الأرض وكل شيء وساعدتنا السيدة آشبورن في باقي الأشياء».

انتباه فيبي النهم ساعد جاني على رواية قصتها. لذا عادت بتفكيرها إلى سنوات طفولتها، وشرحتها لصديقتها بعبارات سهلة وناعمة بينها كل ما حول المنزل حوله الليل إلى لحم وظلمة.

فكرت لحظة، وقررت أن حياتها الواعية كانت قد بدأت في بوابة ناني. فخلال ظهيرة نادتها ناني لتأتي إلى المنزل لأنها رأتها تسمح لجوني تايلور بتقبيلها عند البوابة.

كان أحد أيام الربيع في غرب ولاية فلوريدا. كانت جاني قد قضت معظم اليوم تحت ظل شجرة الكمثرى المزدهرة في الفناء الخلفي. كانت تنفق كل دقيقة يمكنها أن تسرقها من وقت الأعمال تحت تلك الشجرة على مدى الأيام الثلاثة الماضية. لأوضح أكثر، منذ أن تفتح أول برعم صغير. بدا الأمر وكأنه كان يدعوها لتأتي وتلقي نظرة على لغز. لغز تحول السويقات البنية الجرداء إلى براعم النبات اللامعة؛ وأوراق البراعم إلى العذرية الثلجية للازدهار. كل ذلك كان يحركها بشكل كبير. كيف؟ لماذا؟ كان مثل أغنية ناي منسية في وجود آخر وتم تذكرها مرة أخرى. ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ هذا الغناء الذي سمعته لا علاقة له بأذنيها. وردة العالم كانت تزفر رحيقًا. تتبعها خلال كل لحظات استيقاظها وداعبها في نومها. ربطت نفسها بمسائل أخرى غامضة أخرجتها من المراقبة الخارجية ودفنت نفسها في لحمها. والآن تبرز وتنقب خلال ذاكرتها.

كانت ممددة على ظهرها تحت شجرة الكمثرى متمرغة في أنشودة الصوت الجهير للنحل الزائر، وفي ذهب الشمس والتنفس اللاهث للنسيم عندما أتتها الأصوات الخافتة لكل هذه الأشياء معًا. تطلعت إلى غبار طل النحل وهو يتسلل إلى عرين البرعم؛ ألف كأس زهرة يتقوس لتلبية أحضان الحب ورجفة نشوة الشجرة من الجذر إلى أصغر فرع وهي تتقشد مع كل ازدهار وتزبد بفرحة. إذن كان هذا الزواج! لقد استدعيت لتشهد كشفًا. ثم شعرت جاني بألم حلو وحشي تركها مترنحة وضعيفة.

بعد وقت قصير قامت من حيث كانت تستلقي وجالت في الحقل الصغير بأكمله. كانت تبحث عن إثبات للصوت والرؤية، وفي كل مكان وجدت واعترفت بالإجابات. إجابة شخصية لأجل المخلوقات الأخرى كلها عدا ذاتها. كانت تحس أن الإجابة تبحث عنها، ولكن أين؟ كيف؟ متى؟ وجدت نفسها أمام باب المطبخ وتعثرت هناك في هواء الغرفة حيث الذباب يقوم بحركات بهلوانية ويغني، يتزاوج ويهب نفسه في الزواج. عندما وصلت إلى الممر الضيق تذكرت أن جدتها نائمة في الداخل لأنها كانت تعاني من صداع. كانت مستلقية على السرير فخرجت جاني على أطراف أصابعها من الباب الأمامي. آه لو كنت شجرة كمثرى - أي شجرة تزهر! مع نحل يقبلني ويغني في بداية العالم! كانت في السادسة عشر من عمرها. كان لها أوراق لامعة وبراعم متفجرة كانت تود أن تناضل في الحياة لكن بدا وكأن الأمر يراوغها. أين كانت نحلاتها المغنيات؟ لا شيء في المكان أو في منزل جدتها كان يجيبها عن الأمر. بحثت بقدر أكبر عن العالم من قمة درجات السلم الأولى وبعد ذلك نزلت إلى البوابة الأمامية وانحنت أكثر لتنظر إلى أعلى الطريق وأسفله. تبحث، تنتظر، تتنفس بفارغ الصبر. تنتظر أن يخلق العالم.

خلال الهواء الغبِر شاهدت كائنًا مجيدًا قادمًا على الطريق. في السابق

كانت تعرف بأنه جوني تايلور الكسول، طويل القامة الهزيل. كان ذلك قبل أن يمنح الغبار الذهبي للقاح بريقًا لخرقه وعينيها. في المراحل الأخيرة من نوم ناني، حلمت بأصوات. أصوات بعيدة ولكن مستمرة، وتقترب تدريجيًا. صوت جاني. كانت جاني تتحدث بصوت خفيض وكان هناك صوت رجل لم تستطع تمييزه. جعلها هذا الحلم تستيقظ في الحال. انتصبت وأطلت من النافذة ورأت جوني تايلور يمزق جاني بقبلة.

«جاني!»

صوت المرأة العجوز كان يفتقر إلى السلطة والتأنيب، ومليء بالتفتت والتداعي، - فظنّت جاني أن ناني ربما لم تراها. لذا فقد مددت نفسها خارج حلمها وذهبت إلى داخل المنزل. وكانت تلك نهاية طفولتها.

بدا رأس ناني ووجهها مثل جذور واقفة لشجرة قديمة انتزعتها العاصفة. قاعدة قوة قديمة لم تعد مهمة. أوراق البالما كريستي الباردة التي لفتها جاني حول رأس الجدة بقطعة قماش بيضاء ذبلت وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من المرأة. عيناها لم تبرم ولم تثقب، بل صهرت وأذابت جاني، والغرفة والعالم إلى إدراك واحد.

«جاني لقد أصبحتِ امرأة الآن لذا...»

«لا ناني، أنا لست امرأة بعد». الفكرة كانت جديدة جدًا وثقيلة على جاني. لذا حاربت وأبعدتها.

أغلقت الجدة عينيها وأومأت بتأكيد بطيء ومنهك عدة مرات قبل أن تتمكن من إخراج صوتها.

«نعم يا جاني، لقد وصلت لمرحلتك الأنثوية. لذا سوف أخبرك بما ادّخرته لأقوله لكِ منذ وقت طويل. أريد أن أراكِ متزوجة في الحال».

«أنا، أتزوج؟ لا جدتي، لا سيدتي! ما الذي أعرفه عن الزواج؟»

«ما رأيته الآن كثير عليّ يا حبيبتي، لا أريد لأي أسود منحط، أنفاسه قذرة وسرواله مجعد مثل جوني تايلور، أن يستعمل جسدك كممسحة لقدميه».

كلمات ناني جعلت جاني تحس أن قبلتها عبر البوابة كانت مثل كومة روث عقب المطر.

«انظري إليّ يا جاني. لا تجلسي هناك وتطأطئ رأسك. انظري لجدتك!» بدأ صوتها يتمزق على أشواك مشاعرها. «لا أريد أن أتحدث إليك بهذا الشكل. في الحقيقة فقد ركعت للقدير عدة مرات لأسأله متوسلة - ألا يجعل الحمل ثقيلًا عليّ».

«ناني، أنا فقط.. - أنا لم أقصد أي سوء».

«ذلك ما يجعلني خائفة. أنت لا تعنين أي سوء. أنت لا تعرفين أين يكمن السوء حتى. لقد كبرت عزيزتي ولن أبقى موجودة لإرشادك وإبعادك عن السوء والخطر لوقت طويل. أريد أن أراك متزوجة الآن».

«ومن ذلك الذي سأتزوجه هكذا؟ أنا لا أعرف أي أحد».

«الرب سوف يسخر واحدًا. إنه يعلم أنني لا أحتمل العبء خلال حرارة اليوم. شخص ما حدثني عنك منذ وقت طويل. لم أقل شيئًا لأن هذا لم يكن ما أردته لكِ. كنت أريد لك أن تتعلمي وتخرجي بعدها لتختاري من الأجمة الأفضل والتوت الأعذب. لكن هذه ليست فكرتك كما أظن».

«ناني، من - من الذي كان يسألك عني؟»

«الأخ لوغان كيليكس. إنه رجل جيد».

«لا ناني، لا سيدتي! ألهذا كان يتجول في أنحاء هذا المكان؟ إنه يبدو مثل

هيكل عظمي قديم في مقبرة».

جلست المرأة المسنة باستقامة ووضعت قدميها على الأرض، ودفعت الأوراق عن وجهها.

«إذن لا تريدين أن تتزوجي بشخص محترم أليس كذلك؟ تريدين أن يتم تقبيلك وتحتضني ويتم تحسسك من قبل عدة رجال؟ تريدينني أن أحس بنفس الحزن الذي خلقته فيّ والدتكِ؟ أليس شعري أبيض بالقدر الكافي؟ أليس ظهري محنيًا بالقدر الكافي لإرضائك؟!»

رؤية لوغان كَيليكس وحدها كانت كافية لتدنس شجرة الكمثرى، ولكن جاني لم تعرف كيف تقول لناني ذلك. لقد كانت منحنية وعابسة على الأرض فقط.



«جاني».

«نعم سيدتي».

«أجيبيني عندما أتحدث. لا تجلسي هناك فقط دون أن تكلفي نفسك عناء الرد عليّ بعد كل ما مررت به لأجلك!»

صفعت وجه الفتاة بعنف، ودفعت رأسها إلى الخلف فالتقت عيونهما في صراع. وبينما كانت يدها مرفوعة للصفعة الثانية رأت الدمعة الضخمة التي تدفقت من قلب جاني ووقفت في محجريها. شاهدت الألم الرهيب، والشفاه التي أُحكمت لكبح البكاء. بدلًا عن ذلك نَحَت الشعر الثقيل من وجه جاني ووقفت هناك تعاني بمحبة وتبكي داخليًا لأجلهما معًا.

«تعالي إلى جدتك حبيبتي. واجلسي في حجرها كما تعودتِ. جدتك لن تؤذي شعرة من رأسك. ولا تريد لأحد آخر أن يفعلها أيضًا لو كان الأمر بيدها. حبيبتي، الرجل الأبيض هو المسئول عن كل شيء كما عرفت دائمًا.

ربما في مكان ما بعيد على المحيط يمكن للرجل الأسود أن يكون ذا سلطة. لذلك فالرجل الأبيض هنا يلقي الحمل على الأرض ويأمر الزنجي بأن يلتقطه. ويرفعه لأنه مضطر لفعلها، ولكنه لا يستطيع حمله. فيمده للنسوة من شعبه. لذلك فالمرأة الزنجية هي بغل العالم كما أرى. كنت أصلي ليصبح الأمر مختلفًا بالنسبة لكِ. يا رب، يا رب، يا رب!»

لفترة طويلة جلست والفتاة مضمومة بإحكام على صدرها الغائر. ساقا جاني الطويلتان تدلتا على ذراع الكرسي وضفائرها الطويلة تدلت على الجانب الآخر. بدأت ناني التي كانت تنشد قليلًا وتجهش بالبكاء قليلًا بترديد الصلاة على رأس الفتاة الباكية.

«رحمتك يا رب! لقد قضيت وقتًا طويلًا لأصل إلى هنا. يا يسوع! يا يسوع! لقد فعلت ما بوسعي».

أخيرًا هدأتا كلتيهما. «جاني، منذ متى كنت تسمحين لجوني تايلور بتقبيلك؟»

«هذه المرة فقط يا جدتي. لا أحبه مطلقًا. ما جعلني أفعل ذلك هو... أه، لا أعرف».

«أشكرك ربي يسوع».

«لن أفعلها مجددًا يا جدتي. أرجوك لا تجعليني أتزوج بالسيد كيليكس».

«ليس لوغان كيليكس هو ما أريد لك الحصول عليه حبيبتي، بل الأمان. أن لا أكبر في السن فقط يا عزيزتي. أنا أكاد أبلغ نحبي. خلال إحدى الصباحات القريبة سوف تتوقف الملائكة ذوات السيوف هنا. لا أعرف اليوم أو الساعة، لكن لن يكون هذا بعد وقت طويل. لقد سألت الرب عندما كنت رضيعة بين ذراعيّ أن يبقيني هنا حتى تكبري. لقد سمح لي بأن

أرى هذا اليوم. وبعد فإن صلواتي اليومية هي لجعل اللحظات الذهبية تمد في أيامي قليلًا حتى أراكِ في أمان في هذه الحياة».

«دعيني انتظر جدتي، أرجوك، فقط لوقت قليل».

«لا تظني أنني لا أحس بك يا جاني، أنا أفعل. لم أكن لأحبك أكثر من الآن حتى لو شعرت بألم ولادتك بنفسي. الحقيقة هي ما يهم، فلقد أحببتك أكثر مما أحببت أمك التي ولدتها من أحشائي. ولكن عليك أن تدركي أنك لست طفلة عادية مثل أغلبهم. ليس لديك أب، ويمكنك القول أيضًا أن ليس لديك أم. ليس لديك أي أحد سواي. وأنا رأسي مسن ومتجه نحو القبر. ولن تستطيعي الوقوف وحدكِ. فكرة أنك سوف تتجولين بضياع من مكان لآخر مؤلمة. كل دمعة تسكبينها تعتصر كأس دمٍ من قلبي. يجب عليّ أن أعمل لحمايتك قبل أن يصبح رأسي باردًا».

تنهيدة حزينة انفجرت من جاني. وأجابتها المرأة العجوز بتربيتة مهدئة من يدها.

«تعلمين حبيبتي أننا كملونين نعتبر فرعًا دون جذور، وهذا يجعل الأشياء تحدث بطريقة غريبة. أنت على وجه التحديد. بالنسبة لي أنا، فقد ولدت في فترة الاستعباد لذا لم يكن بإمكاني تحقيق أحلامي حول ما يجب أن تكون عليه المرأة وما يجب أن تفعله. هذه إحدى معوقات الاستعباد. ولكن لا شيء يمنعك من التمني. لا يمكنك هزيمة أحد ما لم تسلبي عنه إرادته. لم أكن أريد أن يتم استعمالي في الزراعة والإنجاب ولم أكن أريد لابنتي أن تستخدم بنفس الطريقة أيضًا. لم يكن حدوث الأشياء بالشكل الذي حدثت به بإرادتي. حتى أنني كرهت الطريقة التي وُلِدتِ بها. ولكن كل ما قلته كان شكرًا للقدير، لدي فرصة أخرى. كنت أريد أن أقدم عظة حول النسوة الملونات اللاتي يشغلن مكانة عظيمة، ولكنني لم أجد منصة لي. وجدتني

الحرية مع طفلة بين ذراعي، لذا فقد قلت إنني سأحمل مكنسة وقدر طبخ وأرمي الأحلام الكبرى في البرية لأجلها. ظننت أنها ستفهم ما أحسست به، ولكن بطريقة ما ضلت طريقها في الحياة وما أعرفه بعد ذلك أنك قدمتِ إلى العالم. لذا بينما كنت أرعاك خلال الليل قررت أن أدّخر هذه العظة لأجلك. لقد انتظرت لفترة طويلة يا جاني، ولكن لا شيء مررت به سيظل صعبًا لو أنك وقفت على أرضية صلبة كما حَلُمت دائمًا».

جلست الجدة العجوز هناك وهي تهز جاني كالرضيعة وتذكرت الماضي. الصور العقلية جلبت مشاعرًا، والمشاعر جلبت أحلامًا من تجويف قلبها.

«في ذلك الصباح في المزرعة الكبيرة قرب سافانا، آتى فارس على جواد وأخبرنا عن احتلال شيرمان لأتلانتا. وأن ابن مارسي روبرت قتل في شكموغ. لذا فقد أمسك بمسدسه وانتقى أفضل جواد عنده وانطلق مع بقية الرجال والصبية لدفع اليانكيز مرة أخرى إلى ولاية تينيسي.

«جميعهم كانوا يصفقون ويصرخون وينادون على الرجال الذين امتطوا صهواتهم ومضوا. لم أستطع أن أرى شيئًا لأن والدتك كانت تبلغ أسبوعًا واحدًا من العمر، وأنا كنت لا أزال مستلقية على ظهري. ولكن بعد فترة قليلة قال إنه نسي شيئًا وعاد إلى كابينتي وجعلني أسدل شعري للمرة الأخيرة. ومرر يده فيه، وجذب إصبعي الكبير كما اعتاد أن يفعل دائمًا ومضى بعدها كالبرق. سمعتهم يهتفون لأجله لآخر مرة. ثم بعدها صمت المنزل الكبير والحقول حوله.

خلال برودة المساء أتت السيدة سائرة نحو بابي. دفعت الباب لتفتحه على مصراعيه ووقفت هناك تنظر إليّ وكأنها تحدق خارج عينيها ووجهها. بدت وكأنها عاشت خلال ألف سنة في يناير دون أي يوم من الربيع. اقتربت ووقفت فوقي في السرير».

«ناني لقد أتيت لأرى طفلتك». حاولت ألا أحس بالصقيع القادم من وجهها، ولكن الجو أصبح باردًا جدًا هناك حتى أنني كنت أتجمد تحت الأغطية. لذا لم أستطع التحرك بسرعة كما وددت. ولكنني عرفت أن عليّ أن أبذُل جهدًا وأفعلها.

«من الأفضل لك أن ترفعي الأغطية عن تلك الرضيعة بسرعة!» قالت لي بعنف. «يبدو أنك لا تعرفين من هي السيدة في هذه المزرعة. ولكنني سأريك». مع الوقت استطعت أن أرفع الغطاء عن صغيرتي لكي ترى الوجه والرأس.

«من أين لابنتك هذه الأعين الرمادية والشعر الناعم؟» وبدأت في صفعي على فكي. لم أحس بأول واحدة قط لأنني كنت أحاول معاودة وضع الغطاء على رضيعتي. ولكن الأخيرة آلمتني مثل النار. كان لدي مشاعر مختلطة كثيرة ولم أعرف أي واحد منها يجب أن أتبع، لذا لم أبكِ ولم أفعل أي شيء آخر. ولكن بعدها راحت تسألني لمَ تبدو طفلتي وكأنها بيضاء. سألتني هذا السؤال خمسًا وعشرين أو ثلاثين مرة، وبدا وكأنها لا تستطيع إيقاف نفسها. لذا قلت لها، «لا أعرف شيئًا سوى ما أُمرت بفعله، فأنا لست سوى زنجية وعبدة».

بدلًا عن أن أهدئها كما وددت، بدا وكأنها تستطيش غضبًا أكثر. ولكنني استطعت أن أعرف أنها تعبت فهي لم تضربني بعدها. مضت إلى جانب السرير ومسحت يدها بمنديلها. «لن أوسخ يدي فيكِ. ولكن غدًا في الصباح الباكر سوف يأخذك المشرف إلى مكان الجلد ويربطك هناك على ركبتيك. مئة جلدة على ظهرك العاري. سوف أدعهم يجلدونك حتى يسيل الدم تحت قدميك! سوف أعد الجلدات بنفسي. ولو متِّ فسوف أتحمل الخسارة».

«وعلى كل حال عندما يبلغ هذا الرضيع السيء شهرًا سأبعده عن هذا

 

المكان».

«رحلت بغضب وتركت شتائها معي. عرفت أن جسدي لم يشفَ بعد، ولكنني لم أكن لأهتم بذلك. في ظلام الليل لففت رضيعتي جيدًا ومضيت في طريقي بمحاذاة النهر. كنت أعرف أن المكان مكتظ بمختلف أنواع الثعابين السامة، ولكنني كنت خائفة أكثر مما تركته خلفي. اختبأت هناك ليلًا ونهارًا وكنت أُسكتُ الرضيعة عندما تبدأ في البكاء، خوفًا من أن يسمعها أحد فيقبض علينا. بعض الأصدقاء كانوا يقدمون اهتمامهم. وبرعاية الرب لم يجدني أحد. لم أفهم كيف لم يقتل حليبي الطفلة، بما أنني كنت خائفة وقلقة طوال ذلك الوقت. ضوضاء البوم أرعبتني؛ أفزع شجر السرو كانت تزحف وتتحرك عند حلول الظلام، ومرتان أو ثلاث سمعت فهودًا تحوم في المكان. لكن لم يؤذني شيء لأن الرب كان معي.

ثم ذات ليلة سمعت أصوات البنادق تنفجر مثل الإعصار. واستمرت طوال الليل. وفي الصباح استطعت أن أرى سفينة ضخمة على مقربة، وجلبة كبيرة. لففت ليفي بالطحالب ودسستها بين أغصان الأشجار ومشيت في طريقي نحو السفينة. كان الرجال جميعهم يرتدون ثيابًا زرقاء، وقد قالوا إن شيرمان كان سيأتي لمقابلة السفينة في سافانا، وأننا العبيد سوف نصبح أحرارًا. لذا فقد عبرت بين الناس ووجدت مكانًا لأبقى فيه.

مر وقت طويل عقب ذلك قبل الاستسلام الكبير في رتشموند. ثم بعد ذلك رن الجرس الكبير في أتلانتا وكان على كل الرجال الذين يرتدون اللون الرمادي الذهاب إلى مولتري، ودفن سيوفهم في الأرض ليبينوا أنهم لن يحاربوا أبدًا من أجل العبودية مرة أخرى. لذا عرفنا أننا بتنا أحرارًا.

لم أكن لأتزوج أي أحد، رغم أنني كنت محاطة بكومة منهم، لأنني لم أكن أريد أن يأتي أحد ويعامل طفلتي بطريقة سيئة. لذا فقد انضممت إلى أناس

بيض طيبين وأتيت معهم إلى ولاية غرب فلوريدا لأعمل وأجعل الشمس تشرق في كلا جانبي الشارع لأجل ليفي.

لقد ساعدتني السيدة في الاعتناء بها كما كانت تساعدني في الاعتناء بكِ. أدخلتها المدرسة عندما صارت في السن الملائم. كنت أعتقد أنني ربما سأتمكن من جعلها تصبح معلمة.

ولكن في أحد الأيام، لم تعد إلى المنزل في الموعد المحدد. وانتظرت وانتظرت، ولكنها لم تأتِ قط في تلك الليلة. أخذت فانوسًا وتجولت في كل مكان أسأل عنها ولكن لم يرها أحد. في الصباح التالي أتت زاحفة على يديها وركبتيها. مشهد غريب على عيني. أحد الأساتذة في المدرسة اختطف طفلتي وخبأها في الغابة طوال الليل، وبعد أن اغتصبها هرب قبل طلوع الشمس.

أن يحدث لها أمر مشابه وهي لا تزال في السابعة عشر من عمرها! الرحمة يا رب! أحس وكأنني أرى الأمر كله مرة أخرى. مر وقت طويل قبل أن تتحسن، وبحلول ذلك الوقت عرفنا أنك قادمة في الطريق. وبعد أن وُلدتِ أصبحت أمك مدمنة على الخمر والبقاء في الخارج طوال الليل. لم يكن بإمكاني حملها على البقاء هنا أو البقاء في أي مكان آخر. الرب وحده يعلم أين هي الآن. إنها ليست ميتة، لأنني أحس بذلك، ولكن أحيانًا أتمنى لو كانت ميتة.

ربما ليس بالأمر الجلل يا جاني لكنني فعلت جل ما أستطيعه معك. لقد جرفت وكشطت واشتريت قطعة الأرض الصغيرة هذه، لكي لا تضطري للبقاء في فناء آل آشبورن وتضطري لطأطأة رأسك أمام الأطفال الآخرين في المدرسة. كان هذا عاديًا عندما كنت طفلة. ولكن عندما كبرت بما يكفي لفهم الأشياء، أردت لك أن تنظري إلى نفسك باعتداد. لم أرد أن يتغضن ريشك بسبب الأشياء التي يلقيها الأشخاص على وجهك. ولا يمكنني

الموت بسلام وأن أفكر أن الرجال البيض والسود يمكن أن يستغلوكِ: تعاطفي معي قليلًا. ضعيني إلى راحتي برفق يا جاني فأنا طبق مكسور.

# 3

هناك سنوات تقدم أسئلة وسنوات تجيب. لم يكن لدى جاني فرصة لمعرفة الأشياء، لذا فقد كان عليها أن تسأل. هل ينهي الزواج العزلة الكونية للمهجور؟ هل يُخَضِع الزواج الحب كما تفعل الشمس مع اليوم؟

في الأيام القليلة التي كانت تعيشها قبل الانتقال إلى لوغان كيليكس وفدادينه الستين، كانت جاني تتساءل كثيرًا. كانت تمضي جيئة وذهابًا من شجرة الكمثرى تفكر وتتساءل، وأخيرًا بسبب كلام ناني وتخميناتها الخاصة أحست بارتياح. نعم، سوف تحب لوغان بعد أن يتزوجا. لم تكن تعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك، لكن ناني والراشدين الآخرين قالوا ذلك، ولابد أنهم على حق. الأزواج دائمًا ما يحبون بعضهم البعض، وهذا هو ما يعنيه الزواج. وهكذا أحست جاني بسعادة حول الفكرة، لأنها بهذا الشكل لن تصبح مدمرة ومتعفنة. لن تصبح وحيدة بعد الآن.

تزوج جاني ولوغان في ردهة ناني ذات ظهيرة يوم سبت مع كعكة من ثلاث طبقات وأطباق كبيرة من لحم الأرانب والدجاج المقلي. كان الطعام متوفرًا بكثرة. هذا ما ارتأته ناني والسيدة آشبورن. ولكن لم يضع أحد أي شيء في عربة لوغان ليجعلوا رحلتها مجيدة في الطريق إلى منزله. كان مكانًا معزولًا في منتصف الغابة حيث لم يأت أحد أبدًا. المنزل كان عديم النكهة أيضًا. ولكن على كل حال دخلت جاني وانتظرت أن يبدأ الحب. هبط القمر الجديد وطلع ثلاث مرات قبل أن يبدأ القلق يتملك عقلها. ومن ثم ذهبت لترى ناني في مطبخ السيدة آشبورن في يوم خبز البسكويت.

ابتسمت ناني بابتهاج وسعادة ودعتها لتقترب من طاولة الخبز حتى تتمكن من تقبيلها.

«رحمتك يا رب، أنا بالتأكيد سعيدة برؤية طفلتي! تعالي إلى الداخل لكي تعرف السيدة آشبورن أنك هنا. أوه! أوه! أوه! وكيف هو زوجك؟»

لم تدخل جاني إلى حيث كانت السيدة آشبورن. ولم تقل أي شيء تجاه حماسة جدتها الكبيرة أيضًا. فقط جلست على المقعد بتراخٍ وبقيت هناك. بين إعداد البسكويت وفخرها المشع لم تلاحظ ناني شيئًا لدقيقة كاملة. ولكن بعد برهة أحست أن المحادثة من طرف واحد فرفعت رأسها لتنظر إلى جاني.

«ما الأمر يا حلوتي؟ لا تبدين نشيطة هذا الصباح؟»

«آه، لا شيء يذكر. لقد أتيت لأعرف معلومة منكِ».

المرأة العجوز بدت مذهولة، ثم أطلقت ضحكة كبيرة. «لا تقولي لي أنك حامل منذ الآن، دعينا نرى - بحلول هذا السبت يكون قد مر شهرين وأسبوعين».

«لا، لا أعتقد ذلك على أي حال». احمرت جاني قليلًا.

«ليس لديك شيء لتخجلي منه عزيزتي، أنت امرأة متزوجة. ولك زوجك الوفي تمامًا مثل السيدة آشبورن أو أي شخص آخر!»

«الأمور جيدة من هذه الناحية. وأعرف أن لا شيء هناك».

«أكنت تتجادلين مع لوغان؟ يا ربي، أعرف أن ذلك الزنجي الحقير لم يمد يده على طفلتي! لأنني سوف آخذ العصا وأغرسها فيه!»

«لا، إنه لا يفكر حتى في ضربي. ويقول إنه لن يحاول أبدًا أن ينزل وزن يده عليّ بحقد. إنه يقطع كل الأخشاب التي يظن أنني ربما أحتاجها ومن ثم

يدخلها إلى المطبخ لأجلي. ويملأ دلاء الماء».

«لم أكن أتوقع أن يحدث هذا على كل حال. لكنه عندما يعاملك بهذه الطريقة الجيدة فهو لا يقبل يديك. بل يقبل قدميك، وليس هناك رجل من هذا النوع الآن».

«نعم سيدتي».

«حسنًا، لو فعل كل ذلك فلم أتيت إلى هنا عابسة بهذا الشكل؟»

«لأنك أخبرتني أنني لابد وسأحبه، ولكن.. ولكن لم أفعل. ربما إذا أخبرني شخص ما كيف، ربما أستطيع فعلها».

«أتيت إلى هنا وفمك مليء بهذه الترهات خلال يوم عمل ممتلئ. الآن لديك دعم تتكلين عليه في أيامك القادمة، والجميع يخفضون قبعاتهم لأجلك ويدعونك السيدة كيليكس، وأنت تأتين لتقلقينني بخصوص الحب».

«ولكن ناني، أود أن أحبه أحيانًا. لا أريد أن يكون هو فقط راغبًا بي».

«إذا كنت لا تريدينه، فهذا من حقك. ولكن ها أنت الوحيدة التي تملك مُقَدَراتٍ ضخمة في المدينة بين بقية الملونين. لديك منزل تم شرائه لأجلك وأرض تبلغ مساحتها ستين فدانًا على الطريق الرئيسي... ارحمني يا رب! هذه هي الشوكة التي نعلق فيها نحن النسوة السوداوات جميعًا. هذا الذي يسمى الحب! هو ما يجعلنا نُجَذبُ ونُسَحبُ ونتعرق ونتحول من لا أستطيع الرؤية في النهار إلى لا أستطيع الرؤية في الليل. لهذا قال الكبار إن كونك أحمقًا لا يقتل أحدًا. فقط يجعلك تتعرق. أراهن أنك تريدين رجلًا متأنقًا ينظر إلى نعل حذائه كلما شرع في عبور الطريق ليتأكد من أن لديه ما يكفي من الجلد ليعبر. يمكنك أن تبيعي وتشتري من هم مثله بما تملكينه. في الواقع يمكنك شرائهم ووهبهم أيضًا».

«أنا لا أفكر في أي منهم، في نفس الوقت لا تهمني هذه الأرض القديمة في شيء. بإمكاني أن ألقي منها كل يوم عشرة أفدنة عبر السياج دون أن أنظر أبدًا أين وقعت. أحس بنفس الشيء تجاه السيد كيليكس أيضًا. بعض الناس لم يخلقوا ليحبهم الآخرون، وهو واحد منهم».

«كيف ذلك؟»

«لأنني أكره كيف أن رأسه طويل جدًا ومسطح عند الجوانب وتلك العظمة الناتئة في مؤخرة عنقه».

«إنه لم يصنع رأسه بنفسه. أنت تتحدثين بسخافة».

«لا أهتم من صنعها، لا أحب ما فعله على أي حال. وكرشه أيضًا كبيرة جدًا، وأظافر قدميه تبدو كتلك التي للبغال. ثم أن لا شيء يمنعه من غسل قدميه كل مساء قبل أن يخلد إلى النوم. لا شيء يمنعه فأنا أجهز له الماء كل يوم. أفضل أن تطلق عليَّ المسامير عن التقلب في السرير وتحريك الهواء بينما هو هناك. إنه لا يذكر أي شيء جميل أبدًا». ثم بدأت في البكاء. «أريد أن تكون الأشياء حلوة في زواجي وشبيهة بالجلوس أسفل شجرة الكمثرى والتفكير. أريد...»

«ليس هناك فائدة من بكائك يا جاني. جدتك أيضًا جربت بعض الأشياء خلال حياتها. ولكن على الجميع البكاء لأجل شيء أو آخر. من الأفضل أن تُتَرك الأشياء كما هي. أنت ما زلت صغيرة. لن تعرفي ما يمكن أن يحدث قبل أن تحين ساعتك. انتظري قليلًا يا طفلتي. سوف يتغير تفكيرك». وودعت نانى جاني بسحنة صارمة، ولكنها كانت متضايقة طوال ما تبقى من اليوم بينما كانت تعمل. وعندما وجدت الخصوصية أخيرًا في كوخها الصغير جلست على ركبتيها حتى نسيت أنها كانت وحدها.

هناك حوض في العقل حيث تسبح الكلمات في فكرة والفكرة في صوت ورؤى. ثم هناك عمق في الفكرة لا يمس بالكلمات، وهناك فجوة مشاعر خربة أعمق لا تمسها الفكرة. دخلت ناني أبدية الألم الواعي هذه مرة أخرى على ركبتيها المسنتين. ونحو الصباح همهمت، «يا رب، أنت تعلم ما في قلبي. لقد فعلت جل ما أستطيعه. الباقي عليك». انتصبت واقفة ثم هوت بثقلها على الفراش. بعد مضي شهر توفيت.

لذلك انتظرت جاني وقت الإزهار، وقت الاخضرار ووقت البرتقال. ولكن عندما طلى غبار الطلع الشمس مرة أخرى ومسحها على العالم بدأت في الوقوف أمام البوابة لتتوقع الأشياء. ما هي الأشياء؟ لم تعرف بالضبط. أنفاسها كانت عاصفة وقصيرة. كانت تعرف أشياء لم يخبرها بها أحد من قبل. على سبيل المثال، كلمات الأشجار والرياح. غالبًا ما كانت تتكلم مع البذور المتساقطة، وتقول: «آه آمل أن تقعوا على أرض ناعمة»، لأنها كانت تسمع البذور تقول هذا لبعضها البعض أثناء مرورهم. كانت تعرف أن العالم حصان يتدحرج في المراعي الزرقاء للأثير. كانت تعرف أن الرب يهدم العالم القديم كل مساء ويبني واحدًا جديدًا عند شروق الشمس. كان من الرائع رؤيته يأخذ شكل الشمس ويخرج من الغبار الرمادي الذي تصنعه. الناس المألوفون والأشياء جميعهم خذلوها لذا تعلقت على البوابة ونظرت إلى أعلى الطريق ونحو البعيد. عرفت الآن أن الزواج لا يصنع الحب. حلم جاني الأول مات، لذا فقد أصبحت امرأة.

# 4

قبل وقت طويل من نهاية العام لاحظت جاني أن زوجها توقف عن التحدث إليها بكلام مقفى. وتوقف عن لمس شعرها الأسود الطويل وتمرير أصابعه فيه. منذ ستة أشهر مضت قال لها أيضًا، «إن كنت أحضر الخشب هنا وأقطعه لأجلك، فيتوجب عليك إدخاله إلى المطبخ. زوجتي الأولى لم تزعجني أبدًا بتقطيع الخشب. كانت تحضر ذلك الفأس وتقطعه مثل الرجل. يجب أن تتخلصي من دلالك الفاسد».

لذا قالت له جاني، «أنا عنيدة بقدر ما أنت قوي. لو لم يكن بمقدورك تحمل تقطيع الخشب فبإمكانك تحمل عدم وجود عشاء. اعذُر عدم اكتراثي يا سيد كيليكس، لكنني لم أقصد أن أقطع رقاقة البطاطس الأولى».

«أنت تعلمين أنني سوف أستمر في تقطيع الخشب لأجلك حتى لو كنت بخيلة جدًا معي. أنا وجدّتك دللناك، وربما عليَّ أن أستمر في الأمر».

ذات صباح ناداها من المطبخ إلى الحظيرة. وكان البغل مسرجًا عند البوابة.

«انظري يا صغيرة، ساعديني في شيء. اجمعي بعض البطاطس من أجلي. لأنني سوف أخرج لبعض الوقت».

«إلى أين تذهب؟»

«إلى لايك سيتي لأقابل رجلًا لأجل شراء بغل».

«لم تحتاج إلى بغلين؟ أم أنك ستقايض هذا؟».

«لا، أنا أحتاج إلى بغلين. البطاطس سوف تنبت بشكل كامل في الشتاء. وسوف تجلب لنا أرباحًا كثيرة. أريد أن أشغل محراثين، والرجل الذي أتحدث عنه لديه بغل مروض بشكل تام حتى أن امرأة يمكنها التعامل معه».

حمل لوغان لفافة التبغ بثبات في فمه وكأنها مقياس حرارة لمشاعره بينما يتمعن في وجه جاني وينتظرها لتقول شيئًا.

«لذا ظننت أنه يجب عليَّ الذهاب لرؤيته». قال ذلك وابتلع ريقه قتلًا للوقت ولكن جاني لم تقل أي شيء سوى، «سوف أجمع البطاطس لأجلك. متى ستعود؟»

«لا أعرف بالضبط. ربما بحلول المساء. إنها رحلة طويلة نوعًا ما - خصوصًا لو تعين عليَّ سحب بغل في طريق العودة».

عندما أنهت جاني أعمالها جلست داخل الحظيرة وهي تحمل البطاطس. ولكن ماء النبع أدركها هناك فحولت كل شيء إلى مكان في الفناء حيث يمكنها رؤية الطريق. تسربت شمس الظهيرة من خلال أوراق شجرة البلوط حيث تجلس وصنعت أنماطًا مزركشة على الأرض. كانت قد جلست هناك لوقت طويل قبل أن تسمع صفيرًا قادمًا عبر الطريق.

كان رجلًا حضريًا أنيقًا يرتدي قبعته ويميلها إلى الجانب بطريقة لا تشبه طريقة ارتداء القبعات في هذه الأنحاء. كان معطفه على ذراعه، لكنه لم يكن في حاجة إليه لإظهار ملابسه. كان قميصه ذا أكمام حريرية مبهرًا بما فيه الكفاية بالنسبة للعالم. كان يصفر، ويحرك وجهه ويمشي وكأنه يعرف إلى أين هو ذاهب. كان ملونًا لكنه كان يتصرف مثل السيد آشبورن أو شخص من هذا القبيل. من أين أتى مثل هذا الرجل وأين هو ذاهب؟ لم ينظر نحوها أو نحو أي شيء إلا إلى الأمام مباشرة، لذلك ركضت جاني إلى المضخة

وضغطت المقبض بقوة بينها كانت تضخ. صنع ذلك ضوضاء عالية وجعل شعرها الثقيل يسقط. لذا فقد توقف ونظر نحوها بتمعن، ثم سألها لو أن بإمكانها أن تقدم له ماءً باردًا.

استمرت جاني بالضخ حتى حصلت على نظرة فاحصة للرجل. كان يتحدث بودية بينها كان يشرب.

كان اسمه جو ستاركس، نعم جو ستاركس من وعبر جورجيا. كان يعمل لدى البيض طوال حياته. وفر بعض المال - حوالي ثلاثمئة دولار بالتأكيد، يضعها في جيبه. ظل يسمع أنهم يبنون مدينة جديدة هنا في فلوريدا وأراد أن يأتي. لقد كان يجني المال حيث كان. ولكن عندما سمع أنهم يبنون مدينة للملونين، عرف أن هذا المكان الذي يجب أن يكون فيه. لطالما أراد أن يكون ذا صوت مسموع، ولكن كان للبيض الصوت الأوحد في المكان الذي أتى منه وفي كل مكان آخر، ما عدا هذا المكان الذي بناه الملونون بأنفسهم. كان ذلك صحيحًا. فالرجل الذي يبني مكانًا يجب عليه ترأسه. دع الملونين يبنون شيئًا أيضًا لو أرادوا النعيق على شيء. كان سعيدًا أنه وفر أمواله كلها. كان يريد أن يصل إلى هناك بينما المدينة في طور التأسيس. كان يريد أن يشتري الكثير. كانت أمنيته ورغبته دائمًا أن يكون له صوت مسموع وقد عاش قرابة الثلاثين عامًا ليجد فرصته. «أين هم والدك ووالدتك؟»

«ميتون كما أظن. لا أعرف عنهما شيئًا لأن جدتي هي التي ربتني. لقد توفيت هي أيضًا».

«هي أيضًا توفيت! حسنًا، من الذي يعتني بطفلة صغيرة مثلك؟»

«أنا متزوجة».

«أنت متزوجة؟ أنت لست كبيرة بما يكفي ليتم فطامك حتى. أنا متأكد

أنك لا زلت تشتاقين للهاية، أليس كذلك؟»

«نعم، نعم أصنعها وأمصها عندما يداهمني الحنين. وأشرب الماء المحلى أيضًا».

«أنا أيضًا أحب ذلك. لا يكبر المرء أبدًا على التمتع بماء محلى بارد ومنعش».

«لدينا الكثير من الشراب المحلى في المزرعة. عصير قصب لو وددت ذلك».

«أين زوجك يا آنسة... سيدة...».

«اسمي جاني ماي كيليكس منذ أن تزوجت. في السابق كان اسمي جاني ماي كروفورد. زوجي ذهب ليشتري لي بغلًا للحراثة. وتركني لأجمع ثمار البطاطس».

«أنت تحرثين! علاقتك بالحرث كعلاقة الخنزير بالعطلة! ولا علاقة لكِ بجمع ثمار البطاطس أيضًا. عروسة صغيرة وحلوة مثلك خلقت لتجلس في الشرفة وتروح عن نفسها وتتناول البطاطس التي زرعها آخرون لأجلك خصيصًا».

ضحكت جاني وصبت لتري شراب محلى من البرميل وملأ جو ستاركس دلو الماء بماء بارد. جلسا تحت الشجرة وتحدثا. كان ذاهبًا إلى الجزء الجديد من فلوريدا، لكنه لم ير ضررًا في البقاء قليلًا. لاحقًا قرر أنه يحتاج إلى الراحة على أي حال، وأن بقاءه لأسبوع أو اثنين قد يريحه.

كل يوم بعد ذلك تمكنا من الالتقاء عند أشجار السنديان المنخفضة عبر الطريق ليتكلما عن الأشياء التي يمكن أن تحدث عندما يصبح متحكمًا كبيرًا بالأمور وهي تجني الأرباح. انسحبت جاني إلى الوراء لفترة طويلة وراقبت الشمس وحبوب اللقاح والأشجار المتفتحة، لكنه ظل يتحدث إلى الأفق

البعيد. تحدث عن التغيير والفرصة. بينما لا تزال مائلة للخلف. ظلت ذكرى ناني قوية وجليلة.

«جاني، لو كنت تظنين أنني سأخدعك وأغشك فأنت مخطئة. أريد أن أتزوجك».

«أتعني هذا يا جو؟»

«اليوم الذي ستضعين فيه يدك في يدي، لن أدع الشمس تغرب ونحن بعيدان. أنا رجل ذو مبادئ. أنت لم تعرفي من قبل كيف تُعامل السيدة وأنا أريد أن أكون من يقوم بذلك لأجلك. نادني بجودي كما تفعلين أحيانًا».

«جودي»، ضحكت لأجله، «ولكن افترض..»

«دعي الافتراض وكل شيء آخر لي. سوف أكون هنا بعد طلوع الشمس بوقت قليل لأنتظرك. تعالي لتمضي معي. ومن ثم كل ما تبقى من حياتك ستعيشينه كما يفترض أن تعيشيه. قبليني وهُزي رأسك. عندما تفعلين ذلك، شعرك الوافر يتساقط مثل اليوم».

فكرت جاني في المسألة يومها وهي في فراشها. «لوغان، هل أنت نائم؟»

«لو كنت نائمًا فقد أيقظتني بمناداتك لي».

«لقد كنت أفكر بشكل كبير فينا؛ فيّ أنا وأنت».

«حان الوقت لذلك. أنت تتعاملين بقوة واستقلالية هنا في بعض الأحيان إذا أخذنا بعين الاعتبار....».

«إذا أخذنا بعين الاعتبار ماذا؟»

«إذا أخذنا بعين الاعتبار أنك ولدتِ في عربة، وأنك ووالدتك ولدتما وترعرعتما في الفناء الخلفي لأسرة بيضاء».

«لم تقل كل ذلك عندما كنت تتوسل لناني للزواج بي».

«اعتقدت أنك ستقدرين المعاملة الجيدة. ظننت أنني سآخذك وأصنع منك شيئًا جيدًا. أنت تظنين أنكم قوم بيض بالطريقة التي تتعاملين بها».

«افترض لو أنني هربت وتركتك يومًا».

نطقتها! وضعت جاني الكلمات على مخاوفه. فهي ربما تهرب بشكل مؤكد. سببت الفكرة ألمًا رهيبًا في جسد لوغان، لكنه اعتقد أنه من الأفضل أن يرد عليها باحتقار.

«أنا ناعس يا جاني. دعينا نتوقف عن التكلم في هذا الأمر. ليس هناك رجال كثر قد يثقون بك لو عرفوا تاريخ أسرتك».

«ربما أهرب وأجد شخصًا يثق بي وأتركك».

«ليس هناك أغبياء كثر مثلي. رجال كثر يمكن أن يتبسموا في وجهك، ولكن لن يعملوا لأجلك ويطعموكِ. لن تبتعدي كثيرًا ولن تتأخري، عندما يتملكك ذلك الجوع سوف تسعدين بالعودة إلى هنا».

«لا تهتم بشيء سوى ملء المعدة وخبز الذرة».

«أنا ناعس. لا غرض لي في القلق حول شيء لن يحدث». انقلب فجأة ممتعضًا في نومه المزعوم والمؤلم. وتمنّى لو أنه آلمها مثلما آلمته.

استيقظت جاني معه في الصباح التالي وكان الإفطار على وشك أن ينتهي عندما هدر لوغان من الحظيرة.

«جاني!» نادى لوغان بحدة. «تعالي وساعديني في تحريك كومة السماد هذه قبل أن تزداد درجة الحرارة. ليس لديك أدنى اهتمام بهذا المكان. ليس هناك فائدة من التسكع في ذاك المطبخ طوال اليوم».

مشت جاني نحو الباب مع المقلاة في يدها وهي تحرك عجين دقيق الذرة وتتطلع نحو الحظيرة. الشمس من كمينها كانت تهدد العالم بخناجر حمراء، ولكن الظلال كانت رمادية وصلبة المظهر حول الحظيرة. بدا لوغان وهو يحمل مجرفته كالدب الأسود الذي يقوم ببعض حركات الرقص الخرقاء على ساقيه الخلفيتين.

«أنت لا تحتاج مساعدتي يا لوغان. أنت في مكانك وأنا في مكاني».

«ليس لديك مكان محدد. فمكانك هو حيث أحتاجك. من الأفضل أن تبدأي بالتحرك، ومن الأفضل أن يكون هذا بسرعة».

«لم تخبرني والدتي أني ولدت على عجل. فلم علي أن أسرع الآن؟ على كل حال ذلك ليس ما أنت غاضب بشأنه. أنت غاضب لأنني لا أنحني وأنظف فدادينك الستين هذه. لم تقدم لي أي خدمة بالزواج بي. ولو أن هذا ما تظن أنك فعلته، فأنا لا أشكرك عليه. أنت غاضب لأنني أخبرك بها تعرفه مسبقًا».

رمى لوغان مجرفته ومشى خطوتين أو ثلاث خطوات خرقاء نحو المنزل، ثم توقف فجأة.

«لم تتبادلي الكثير من الكلمات مع هذا الصباح يا جاني، هل عليّ أن أتبادل معك الحديث! نعم، أنا جيد لدرجة أنني أخرجتك من مطبخ البيض وأجلستك على مؤخرتك الملوكية لتأتي وتقللي من قيمتي! سوف أخذ هذا الفأس وآت إلى هناك وأقتلك! من الأفضل أن تقفي مكانك! أنا صادق وأعمل بجد أكثر من أي شخص في عائلتك، هذا هو السبب في أنك لا تريدينني!» الجملة الأخيرة كانت نصفها نشيجًا ونصفها صراخًا. «أظن أن هناك زنجيًا حقيرًا يبتسم في وجهك ويكذب عليك. اللعنة عليكِ!»

التفتت جاني نحو الباب دون الرد عليه، وقفت في منتصف المطبخ دون أن تعرف ذلك. التفتت إلى الجانب الخطأ ووقفت هناك تفكر. عندما هدأ الخفقان قليلًا فكرت في خطاب لوغان بجدية ووضعته بجانب أمور أخرى كانت قد رأتها وسمعتها. عندما انتهت من ذلك ألقت العجين على المقلاة ومهدته أكثر بيدها. إنها ليست غاضبة حتى. فلوغان كان يتهمها بسبب أمها، جدتها ومشاعرها، ولم يكن بوسعها فعل أي شيء بهذا الخصوص. اللحم المقدد كان يحتاج للتقليب. قلبته وأعادته مرة أخرى. القليل من الماء البارد في وعاء القهوة لإتمامه. قلبت الكعكة في طبق وضحكت قليلًا. لمَ عليها أن تفقد المزيد من الوقت؟ شعور بالتجدد والتغيير تملكها. سارعت جاني بالخروج من البوابة الأمامية، واتجهت جنوبًا. حتى لو لم يكن جو هناك في انتظارها، فالتغيير سيكون جيدًا لها.

هواء الطريق الصباحي كان مثل فستان جديد. جعلها ذلك تشعر بالمئزر يشد خصرها. فكته وقذفته على شجيرة منخفضة بجانب الطريق ومضت في طريقها، تقطف الزهور لتصنع باقة. بعدها مضت إلى حيث كان جو ستاركس ينتظرها داخل عربة مؤجرة. كان مهيبًا جدًا وساعدها للجلوس على المقعد بجانبه. الكرسي وهو جالس عليه بدا وكأنه كرسي عالٍ لحاكم. من الآن فصاعدًا وحتى الموت سيكون لديها غبار زهور ونثارات ربيع على كل شيء. نحلة لزهرتها. أفكارها القديمة أصبحت ذات نفعٍ الآن، ولكن كلمات جديدة يجب تصاغ وتقال لتتسق معهم.

«خليج غرين سبرينغ»، قال للسائق. لذا فقد تزوجا هناك قبل غروب الشمس، كما وعدها جو تمامًا. بملابس حريرية وصوفية جديدة.

جلسا على شرفة المنزل ورأيا الشمس تغطس في نفس الصدع في الأرض الذي ظهرت منه الليلة.

# 5

على متن القطار في اليوم التالي، لم يلقِ عليها جو العديد من الخطابات المقفاة، لكنه اشترى لها أفضل الأشياء في المتجر، مثل التفاح، وكوب كامل من الحلوى. في الغالب تحدث عن خططه للمدينة عندما يصل إلى هناك. لابد وأنهم بحاجة إلى شخص مثله. ألقت جاني الكثير من النظرات على وجهه، وكانت فخورة بما شاهدته. تلك الهيبة التي تماثل ما لدى الناس البيض الأغنياء. القطارات الغريبة، الناس والأماكن لم يخيفوه. حيث ترجلوا من القطار في ميتلاند وجدا عربة لحملهما إلى بلدة الملونين على الفور.

في وقت مبكر من الظهيرة وصلا إلى هناك، لذا قال جو يجب أن نتمشى في المكان وننظر حولنا. تماسكا باليدين وتمشيا من أقصى المدينة إلى أقصاها. أشار جو إلى العشرات من المنازل الضئيلة المنتشرة في الرمال وأشجار السرنوة، وقال: «يا رب، أيسمون هذا مدينة؟ ليست سوى مكان خام في الغابة».

«إنها أصغر مما توقعت قليلًا». اعترفت جاني بخيبة أمل.

«ومما توقعت أنا أيضًا»، قال جو. «كومة من الكلام ولا أحد يفعل شيئًا. يا إلهي، أين العمدة؟» سأل أحدهم. «أريد أن أتحدث إلى العمدة».

جلس رجلان كانا مستلقيين تحت شجرة سنديان ضخمة باستقامة عندما سمعا نبرة صوته. حملقا في وجه جو، وفي ملابسه وزوجته.

«من أين أتيتما على عجل هكذا؟» سأل لو كوكر.

«من وسط جورجيا»، أجاب ستاركس باقتضاب. «جو ستاركس هو اسمي، من وعبر جورجيا».

«هل ستنضمان إلينا أنت وابنتك في الجماعة؟» سأل الشخص المستلقي الآخر. «سعيدون جدًا بانضمامكم. اسمي هيكس. أموس هيكس من بوفورد، جنوب كارولينا. حر، أعزب، غير مرتبط».

«يا إلهي، أنا لست كبيرًا كفاية لتكون لدي ابنة ناضجة. هذه هنا هي زوجتي».

تراجع هيكس وفقد اهتمامه فورًا. «أين العمدة؟» أصر ستاركس. «أريد التحدث معه».

«ربما أتيتما مبكرين»، قال له كوكر. «نحنا ليس لدينا عمدة بعد».

«ليس لديكم عمدة! إذن من يخبركم بما عليكم فعله؟»

«لا أحد. الجميع ناضجون. ولكن لا أعتقد أننا فكرنا أبدًا في هذا الأمر. أعرف أنني لم أفعل».

«فكرت في الأمر ليوم»، قال هيكس حالمًا، «ومن ثم نسيت الأمر ولم أفكر فيه مجددًا منذ وقتها».

«لا عجب في أن الأشياء سيئة»، علق جو. «سوف أشتري في هذا المكان، سوف أشتري بمبلغ كبير. حالما نجد مكانًا نقضي فيه ليلتنا، يجب علينا نحن الرجال جمع الناس معًا وتشكيل لجنة. ثم يمكننا بعدها جعل الأمور تتحسن هنا».

«يمكنني أن أريك أين يمكنكما أن تناما»، عرض هيكس. «هناك رجل انتهى من بناء منزله لكن زوجته لم تأت بعد».

مشى ستاركس وجاني إلى حيث يفترض بهما وخلفهما هيكس وكوكر يرمقانهما بالنظرات.

«هذا الرجل يتحدث وكأنه رئيس عمال»، علق كوكر. «إنه قاهر الجبابرة».

«اللعنة!» قال هيكس. «بنطالي تقريبًا في نفس طول بنطاله. ولكن زوجته تلك! سوف امتلئ بالندم لو لم أذهب إلى جورجيا وأجلب لنفسي واحدة مثلها».

«بماذا؟»

«بكلماتي يا رجل».

«تحتاج إلى المال لإطعام الفتيات الجميلات. فهن يسمعن كلامًا وافرًا».

«ليست مثل كلماتي. فهن يحببن سماعي أتكلم لأنهن لا يستطعن فهم أي شيء مما أقوله. كلامي المخادع عميق جدًا. هناك كثير من التلاعب فيه».

«حقًا!»

«لا تصدقني أليس كذلك؟ لا تستطيع تخيل عدد النسوة اللاتي ينفذن أوامري».

«أنت لم ترني حين أخرج لأتمتع وأوزع المباهج».

«حقًا!»

«أنه لمن الجيد أنها تزوجت قبل أن تراني. يمكنني التسبب ببعض المشاكل عندما أخطط لشيء».

«حقًا!»

«أنا محبب لدى السيدات».

«أفضل أن أرى كل هذا بدلًا عن سماعه. هيا دعنا نرى ما يحدث في هذه المدينة».

في اليوم التالي مضيا إلى حيث كان ستاركس يعيش في الوقت الحاضر. ووجدوا أن البلدة كلها قد عثرت على الغرباء. كان جو على الشرفة يتحدث إلى مجموعة صغيرة من الرجال. وبالإمكان رؤية جاني من خلال نافذة غرفة النوم ترتب حاجياتها. كان جو قد استأجر المنزل لمدة شهر. وكان الرجال في كل مكان حوله، وكان يتحدث إليهم عن طريق طرح الأسئلة.

«ما هو الاسم الحقيقي للمكان؟»

«البعض يسميها ويست ميتلاند وآخرون يسمونها إيتونفيل. هذا لأن الكابتن إيتون أعطانا بعض الأراضي هو والسيد لورانس. ولكن السيد إيتون هو من قدمها لنا أولًا».

«كم أعطوكم من الأراضي؟»

«حوالي خمسين فدانًا».

«وكم تبلغ أراضيكم الآن؟»

«تقريبًا المثل».

«هذا ليس كافيًا. من يملك الأراضي المجاورة لأراضيكم؟»

«الكابتن إيتون».

«وأين هو هذا الكابتن إيتون؟»

«هناك في ميتلاند، أتريد زيارته؟»

«دعوني أتحدث إلى زوجتي لدقيقة ومن ثم أذهب لرؤية هذا الرجل.

لا يمكنكم أن تحصلوا على مدينة دون أن تملكوا أراضٍ لتبنوا عليها. ليس لديكم هنا المساحة الكافية للعن قطة دون أن يمتلئ فمكم بشعرها».

«ليس لديه المزيد من الأراضي ليهبها. سوف تحتاج إلى الكثير من المال لو أردت المزيد».

«أنا أنوي أن أدفع له».

كانت الفكرة طريفة بالنسبة لهم وأرادوا أن يضحكوا. حاولوا بشدة أن لا يفعلوا، ولكن ضحكات متشككة انفجرت من أعينهم وزوايا أفواههم معبرة عن أفكارهم. لذا فقد مشى جو بشكل مفاجئ. وتبعه الكثيرون ليروه الطريق ولكي يكونوا هناك عندما تكشف كذبته.

لم يتقدم هيكس كثيرًا. فقد عاد إلى المنزل وصعد إلى الشرفة حالما أحس أن غيابه من الحشد لن يكون محسوسًا.

«مساء الخير سيدة ستاركس».

«مساء الخير».

«هل تظنين أنك ستحبين المكان هنا؟»

«نعم. أظن ذلك».

«لو احتجت إلى أي مساعدة يمكنك أن تطلبيها مني على الفور».

«ممنونة جدًا».

كانت هناك فترة طويلة من الصمت. لم تحاول جاني فعل شيء كما اعتادت. بدا وكأنها لا تكاد تلاحظ وجوده. كانت تحتاج لأن يتم إيقاظها.

«لابد أن الناس صُمُوت بشكل استثنائي من حيث أتيتِ».

«هذا صحيح. ولكن لابد أن الأمر مختلف من حيث أتيتَ».

فكر لوقت طويل ولكن في النهاية نزل عن الشرفة وهو يقول لها «وداعًا».

«وداعًا».

في تلك الليلة سأله كوكر عن الأمر. «لقد رأيتك عندما تسللت عائدًا إلى منزل ستاركس. حسنًا، ماذا فعلت؟»

«من، أنا؟ لم أقترب حتى من المكان يا رجل. لقد ذهبت إلى البحيرة لأصطاد بعض الأسماك».

«حقًا!»

«تلك المرأة ليست جميلة جدًا عندما تلقي عليها نظرة ثانية. كان علي المرور بجانب منزلهم في طريق عودتي وألقيت عليها نظرة متفحصة. ليس بها شيء مميز سوى ذلك الشعر الطويل».

«حقًا!»

«على كل حال، لا أحمل ضغينة للرجل. لذا فلن أؤذيه بأي شكل. ثم أنها ليست بنصف جمال الفتاة التي هربت منها وتركتها في جنوب كارولينا».

«هيكس، كنت لأستشيط غضبًا وأنعتك بالكاذب لو لم أكن أعرفك جيدًا. أنت تتحدث فقط لتواسي نفسك بكلمات من فيهك. لديك عقل متمكن، ولكنك لا تجيد استخدامه. جميع الرجال يرون ما تراه ولكن لديهم عقول أفضل من عقلك. يجب عليك أن تعرف أنك لن تستطيع أخذ امرأة مثلها من رجل مثله. رجل غني يشتري مائتي فدان من الأراضي ويدفع مقابلها أموالًا طائلة».

«إنه لم يشتريها بالفعل؟»

«لقد فعل. وجاء حاملًا أوراقها في جيبه. ولقد دعا لاجتماع في الغد على شرفته. لم أرى رجلًا ملونًا مثله في حياتي كلها. سوف يبني متجرًا ويحصل على مكتب بريد من الحكومة».

أزعج هذا الأمر هيكس دون أن يعرف السبب. كان شخصًا عاديًا. آلمه أنه اعتاد أن يرى العالم بطريقة معينة وفجأة تغير كل شيء. لم يكن مستعدًا للتفكير في الملونين في مكاتب البريد بعد. ضحك بصخب.

«جميعكم تتركون ذلك المتعالي النزق يخبركم بالأكاذيب! رجل ملون يجلس في مكتب بريد هاه!» أطلق صوتًا مستنكرًا.

«إنه قادر على فعلها يا هيكس. أتمنى ذلك على كل حال. نحن الملونون نحسد بعضنا البعض كثيرًا، ولذلك لا نتحرك من مكاننا أبدًا. نتحدث عن كيف يعطلنا الرجل الأبيض! هاه! ولكن ليس عليه القيام بذلك. فنحن نعطل أنفسنا».

«من قال إنني لا أريد للرجل أن يجلب لنا مكتب بريد؟ بإمكانه أن يصبح ملك أورشليم. ذلك لا يعنيني. ورغم ذلك، لا أرى فائدة من إخبار الأكاذيب فقط لأنه يعرف أن من أمامه لن يعرفوا الفرق. يجب على عقلك أن ينبئك أن البيض لن يعطوه مكتب بريد ليديره».

«نحن لا نعرف ذلك بعد يا هيكس. لقد قال إنه يستطيع وأنا أعتقد أنه يعرف عما يتحدث. لو أن الملونين حصلوا على مدينتهم الخاصة فبإمكانهم أن يحصلوا على مكتب بريد وكل ما يريدونه. ومن ثم، مرة أخرى، أنا لا أعرف كيف يفكر البيض. لذا دعنا ننتظر لنرى».

«أوه، لا بأس سأنتظر. أعتقد أننا سننتظر حتى يتجمد الجحيم».

«حاول التكيف مع الأمر! هذه المرأة لا تريدك. يجب عليك أن تفهم أن

كل النساء لم يولدن فقيرات أو متساهلات. هناك بعض النساء اللاتي ليس بوسعك نيلهن. لا يمكنك الحصول عليهن مقابل وجبة سمك».

تجادلا حول الأمر لفترة ثم ذهبا إلى المنزل الذي يقيم فيه جو ووجداه واقفا هناك مرتديًا قميصه ذا الأكمام ومباعدًا بين ساقيه باتساع، يوجه الأسئلة ويدخّن السيغار.

«أين تقع أقرب منشرة؟» كان يسأل توني تايلور.

«نحو تسعة أميال ناحية أبوبكا»، أجابه توني. «أتفكر في البناء بهذه السرعة؟»

«بالطبع. ولكن ليس المنزل الذي سأعيش فيه لأنني أحتاج إلى أن أختار المكان الذي سأبينه فيه. لكنني أفكر أننا جميعًا نحتاج متجرًا على وجه السرعة».

«أوه متجر؟» زعق جوني بدهشة.

«نعم، متجر هنا في المدينة به كل شيء تحتاجونه. ليس من العملي أن تقطعوا كل هذه المسافة يوميًا لميتلاند لتشتروا وجبة صغيرة أو دقيقًا بينما يمكنكم الحصول عليه هنا».

«سيكون هذا جيدًا، أخي ستاركس، من الجيد أنك ذكرته».

«رباه، بالطبع سيكون هذا جيدًا! كما أن المتجر مفيد لشتى الأمور الأخرى. فيجب عليّ أن أجد مكان لأكون فيه عندما يأتي الناس لشراء الأراضي. ولأن كل مكان يحتاج إلى مركز وإلى مكان رئيسي، ومدينتنا لا تختلف عن أي مكان آخر. من الطبيعي أن يكون المتجر هو مكان الالتقاء في المدينة».

«هذا حقيقي تمامًا».

«سوف نصلح هذه المدينة كلها بشكل رائع. لا تنسوا اجتماع الغد».

كانت الوقت مناسبًا لعقد اجتماع اللجنة على شرفته في اليوم التالي، حمولة العربة الأولى من الخشب كانت قد وصلت وذهب جودي ليريهم أين يضعونها. وطلب من جاني أن تبقي أعضاء اللجنة هناك حتى عودته، لم يكن يريد أن يفوت الاجتماع، ولكنه كان يريد حساب كل شبر من هذا الخشب قبل أن يلمس الأرض. كان بإمكانه أن يهدأ وكان بإمكان جاني أن تستمر في فعل ما تفعله لأن الجميع أتوا متأخرين؛ ومن ثم حالما سمعوا أين كان جودي توجهوا جميعهم هناك ليروا الأخشاب الجديدة وهي تنزل من الشاحنة وتوضع أسفل أشجار البلوط. لذا فقد عقد الاجتماع هناك حيث كان توني تايلور رئيس الجلسة وقام جودي بالحديث كله. حددوا اليوم لترسيم الطرق وذهب الجميع لإحضار فؤوسهم لترسيم طريقين يمران في الاتجاهين. طُبِقَ هذا على الجميع ما عدا توني وكوكر فقد كانا نجارين لذلك جعلهما جودي يذهبان للعمل على بناء متجره. حتى جودي نفسه سيكون مشغولًا بالتنقل بين المدن لإخبار الناس عن إيتونفيل وإقناع المواطنين أن يأتوا إلى هناك.

كانت جاني مندهشة من رؤية الأموال التي أنفقها جودي على الأرض تعود إليه بسرعة. عشر عائلات جديدة اشترت الكثير وانتقلت إلى المدينة في ستة أسابيع. كل شيء بدا كبيرًا جدًا. كدس جودي البضائع المعلبة على الأرض قبل أن يصبح للمتجر سقف كامل حتى، وكان يبيع كثيرًا حتى أنه لم يكن يملك الوقت للذهاب في جولاته الخطابية. لكنها تذوقت طعم ترأس ذلك المتجر لأول مرة في اليوم الذي اكتمل بناؤه. طلب منها جودي أن تتأنق وتقف في المتجر ذلك المساء. كان الجميع يأتون متأنقين، ولم يكن يريد لزوجة

رجل آخر أن تتفوق عليها. يجب أن تنظر إلى نفسها كالبقرة ذات الجرس، بينما النساء الأخريات هن القطيع. لذا فقد ارتدت واحدًا من فساتينها التي اشترتها ومشت في الطريق الجديد الذي تم تمهيده مرتدية لون النبيذ الأحمر. كانت الكشكشة الحريرية تدمدم حولها. وكانت النسوة الأخريات يرتدين الملابس القطنية بينما ارتدت النسوة الأكبر سنًا قطعًا قماشية حول رؤوسهن.

لم يشترِ أحدٌ أي شيء في تلك الليلة. لم يأتوا إلى هناك لذلك السبب. لقد جاءوا ليقوموا بإلقاء التحايا. لذا فقد طرق جو على رأس برميل الصودا وقطع بعض الجبن.

«فليتقدم الجميع إلى الأمام ولتمرحوا. إنها هديتي لكم». أطلق جودي إحدى ضحكاته العالية وتراجع. نقعت جانب الليموناضة كما طلب منها جودي. وقدمت كوب صفيح كبير للجميع. أحس توني تايلور بشعور جيد جدًا حتى أنه أراد أن يلقي خطابًا.

«سيداتي سادتي، لقد اجتمعنا هنا لنرحب بالرجل الذي وجد أرضه بيننا. ولكنه لم يأتِ بمفرده كذلك. فلقد وجد أنه من المناسب أن يحضر معه بهجة منزله، زوجته بيننا أيضًا. والتي لم تكن لتبدو أفضل أو أنبل حتى لو كانت ملكة إنجلترا نفسها. إنه لمن الجيد أن تكون بيننا. أخي ستاركس، نحن نرحب بك وبكل ما رأيت أنه من المناسب جلبه بيننا - زوجتك الحبيبة، ومتجرك، وأرضك».

ضحكة كبيرة تفجرت قطعت حديثه. «هذا يكفي يا توني»، صرخ ليبغ موس. «السيد ستارك رجل ذكي، كلنا نستطيع الاعتراف بذلك، ولكن في اليوم الذي تأتي فيه متبخترًا في الطريق مع مائتي فدان من الأرض على كتفك، أريد أن أكون هناك لأشهد حدوث ذلك الأمر».

عاصفة كبيرة أخرى من الضحك. كان توني منزعجًا قليلًا لأن خطاب حياته الوحيد دُمر بهذا الشكل.

«جميعكم تعرفون ما قصدته. لا أعرف لمَ...»

«لأنك تتحمس لإلقاء خطابات ولا تعرف ما يجب أن تكون عليه»، قال ليبغ.

«لقد كنت أتحدث بشكل جيد تمامًا قبل أن تتدخل».

«لا لم تكن يا توني. لقد كنت خارج نطاق اختصاصك. لا يمكنك الترحيب برجل وزوجته دون إجراء مقارنة حول إسحق[1] ورفقة عند البئر، وإلا فإنك ستحس أنك لم توضح مدى حبهما لبعضهما لو لم تجري هذه المقارنة».

اتفق الجميع أن هذا الأمر حقيقي. ما كان مثيرًا للشفقة فعلًا بالنسبة لتوني هو معرفته أنه لا يستطيع أن يلقي خطابًا دون ذكر ذلك. ضحك البعض على جهله. لذلك قال توني بنزق: «إذا انتهى الجميع من التصرف بسخافة، فدعونا نشكر الأخ ستاركس على استجابته».

لذا فقد اتخذ جو ستاركس وسيغاره مكانًا في منتصف المتجر. «أشكركم جميعًا على الترحيب اللطيف وعلى مد يد الأخوة لي. أستطيع أن أرى أن هذه البلدة مليئة بالاتحاد والمحبة. لقد قصدت أن أضع يدي على المحراث وأُجهدَ كل عصب لأجعل مدينتنا عاصمة للولاية. لذا من الأفضل أن أخبركم في حال لم تكونوا تعرفون وفي حال أردنا التقدم، فعلينا أن نعمل على الإدماج

1- رفقة (بالعبرية):«רִבְקָה» كانت النبية والأم الحاكمة الثانية من أربع أمهات للشعب اليهودي. وكانت زوجة إسحق ووالدة يعقوب وعيسو. رفقة وإسحق دفنا في مغارة الأولياء في الخليل، جنبًا إلى جنب مع إبراهيم وسارة ويعقوب وليئة.

مثل أي مدينة أخرى. يجب علينا أن نتعاون، ويجب أن نختار عمدة لنا لو أردنا أن تتم الأشياء بشكل صحيح. أنا أرحب بكم جميعًا نيابة عني وعن زوجتي في هذا المتجر وفي الأشياء القادمة. آمين».

قاد توني التصفيق الحاد وكان في منتصف المتجر عندما انتهى.

«إخوتي وأخواتي، بما أننا لن نجد أي خيار أفضل، أعتقد أننا يجب أن نجعل الأخ ستاركس العمدة حتى إشعار آخر».

في اللحظة التي أعلن فيها الأمر كان الجميع يتكلمون في لحظة واحدة، لذا لم يكن هناك حاجة لإجراء تصويت.

«والآن دعونا نستمع إلى بعض الكلمات المشجعة من زوجة العمدة ستاركس».

التصفيق المتفجر تمت مقاطعته عندما توجه جو مجددًا إلى منتصف المتجر.

«شكرًا على تهنئتكم، لكن زوجتي لا تعرف شيئًا عن إلقاء الخطب. لم أتزوجها لأجل شيء مماثل. إنها امرأة ومكانها المنزل».

اجتهدت جاني لكي تبتسم بعد صمت قصير، ولكن ذلك لم يكن سهلًا جدًا. لم تفكر أبدًا في إلقاء خطاب، ولم تعرف ما إذا كانت تهتم بإلقاء خطاب على الإطلاق. لابد أنها كانت الطريقة التي تحدث بها جو دون إعطائها الفرصة للتعبير بطريقة أو بأخرى هي التي جعلت الأشياء تبدو سيئة. ولكن على أي حال، فقد مضت خلفه أسفل الطريق تلك الليلة وهي تشعر بالبرودة. مشى على طول الطريق مستثمرًا منزلته الجديدة، يفكر ويخطط بصوت عالٍ، غير مدركٍ لأفكارها.

«عمدة لمدينة كهذه لا يمكن أن يبقى في المنزل لفترات طويلة. المكان يحتاج إلى البناء. سوف أحضر شخصًا ما ليساعد في إدارة المتجر ويمكنك أن

تراقبي سير العمل بينما أهتم بالأشياء الأخرى».

«أه جودي، لا أستطيع فعل أي شيء بالمتجر ما لم تكن هناك. ربما يمكنني أن آتي وأساعدك عندما يكون هناك ازدحام، لكن...»

«يا إلهي، لا أفهم كيف لا تستطيعين القيام بذلك. ليس هناك شيء يمنعك لو كنت تملكين العزم المناسب. يجب عليك القيام بذلك فأنا لدي الكثير من الأشياء الأخرى لأنجزها كعمدة. هذه المدينة تحتاج إلى الإنارة في الحال».

«نعم عزيزي فالمكان مظلم قليلًا هنا».

«بالطبع مظلم، ليس هناك فائدة من جرجرة الأقدام فوق كل هذه الجذوع والجذور في الظلام. سوف أعقد اجتماعًا حول مسألة الظلام والجذوع على الفور. وهذه أول مسألة سأقوم بمعالجتها».

في اليوم التالي ومن خلال أمواله الخاصة أرسل لشركة الكهرباء لتوصيل لمبات في الشارع وطلب من أهل المدينة عقد اجتماع يوم الخميس للتصويت على الأمر. لم يفكر أي منهم أبدًا في تركيب إنارة في الشارع وبعضهم رأى أن هذه فكرة عديمة الفائدة. حتى أنهم أرادوا التصويت ضد الأمر، لكن صوت الأغلبية يحكم.

المدينة بأكملها ظنت أن لا جدوى من الإنارة بعد أن جُلبت. وذلك لأن العمدة لم يخرجها من صناديقها ويعلقها في أماكنها. لقد لفها وأمر بمسحها بعناية ووضعها في العرض لمدة أسبوع حتى يراها الجميع. ثم حدد موعدًا لإضاءتها ونشر الخبر في جميع أنحاء مقاطعة أورانج ليأتي الكل ليشهد إضاءة المصابيح. حتى أنه بعث بالرجال إلى المستنقع لجلب أجود أنواع السرو وأكثرها استقامة، وحرص على إعادتهم إلى هناك مرارًا وتكررًا حتى وجد واحدة تعجبه. وكان قد تحدث إلى الناس بالفعل عن أسلوب الضيافة في

هذه المناسبة.

«أنتم تعلمون أننا لا يمكن أن ندعو الناس إلى بلدتنا دون أن نقدم لهم شيئًا. يجب أن نطعمهم شيئًا، ولا شيء يفضله الناس أكثر من حفلات الشواء. من ناحيتي سوف أقدم خنزيرًا كاملًا. وأظن أنكم جميعًا لو وهبتم بعض المال يمكننا أن نحضر اثنين آخرين. وعليكن أيتها النسوة جميعًا أن تخبزن بعض قوالب الكعك والحلوى والبطاطا الحلوة».

وهكذا جرت الأمور. صنعت النسوة معًا الحلويات وبدأ الرجال بإعداد اللحوم. قبل يوم من تركيب الإنارة، حفروا حفرة كبيرة في الجزء الخلفي من المتجر وملئوها بالكامل بخشب البلوط وأحرقوه حتى تحول إلى سرير متوهج من الفحم. استغرق الأمر منهم ليلة كاملة لشواء الخنازير الثلاثة. كان هيمبو وبيرسون المسؤولين عن الشواء بالكامل في حين ساعد الآخرون في تقليب اللحم بين الحين والآخر بينما يمسحه هيمبو بالصلصة في جميع أنحاءه. في تلك الأوقات كانوا يروون القصص، يضحكون ويروون المزيد من القصص ويغنون الأغاني. كما أنهم قطعوا كل أنواع نبات الكبر ونفحوا بها اللحم ببطء مع باقي التوابل حتى اخترقت العظم. كان الأولاد الصغار يغطون القوائم الخشبية بألواح حتى تستخدمها النسوة كطاولات. ثم بعد غروب الشمس ذهب جميع من انتهوا من أعمالهم إلى المنزل للراحة حتى يحين وقت المأدبة.

بحلول الساعة الخامسة كانت المدينة ممتلئة بكل أنواع المركبات ومحتشدة بالناس. كانوا يريدون رؤية تلك المصابيح تضاء عند الغسق. وعندما اقترب ذلك الوقت، جمع جو الجميع في الشارع أمام المحل وألقى خطابًا.

«يا قوم، الشمس تغرب. وخالق الشمس يعيدها لتشرق في الصباح، ويرسلها إلى سريرها في الليل. نحن البشر الضعفاء لا نستطيع فعل شيء

لجعلها تشرق بسرعة أو تغرب ببطء. كل ما بإمكاننا فعله، لو أردنا ضوءًا قبل أن تشرق أو بعد أن تغرب، هو أن نصنع ضوءًا بأنفسنا. وهكذا صنعنا المصابيح. هذه المناسبة سوف نتذكرها جميعًا حتى مماتنا. أول إنارة في الشارع في مدينة أناس ملونين. ارفعوا أعينكم وحدقوا فيها. وعندما أضغط على مفتاح هذه الإنارة دعوا الضوء يخترقكم، ودعوه يشع، دعوه يشع، دعوه يشع. أيها الأخ ديفيس فلتتلُ لنا الصلوات. واطلب مباركة هذه المدينة بشكل خاص».

بينما ردد ديفيس قصيدة صلاة تقليدية بتغييراته الخاصة، صعد جو على الصندوق الذي كان قد وضع لهذا الغرض وفتح باب علبة المصباح. بينما كانت كلمة آمين تتردد، لمس عود الثقاب المشتعل الفتيل، وأطلقت السيدة بوغل صرخة جهيرة:

«سوف نسير في الضوء،

الضوء الجميل يأتي حيث قطر ندى الرحمة

يتألق مشرقًا في كل مكان حولنا نهارًا وليلًا،

ويسوع هو نور العالم».

وجميعهم أخذوا يرددونها ويغنونها مرارًا وتكرارًا حتى جفت حلوقهم، ولم يعد هناك الكثير من الابتكار في اللحن والوتيرة لتصوره. بعدها، صمتوا وتناولوا الشواء.

عندما انتهى كل شيء في ذلك اليوم، سأل جودي جاني وهما على الفراش، «إذن حبيبتي، أتحبين كونك زوجة العمدة؟»

«إنه أمر جيد كما أعتقد، ولكن ألا تظن أن الأمر يبقينا في توتر دائم؟»

«توتر؟ أتعنين الطبخ وانتظار الناس للاجتماعات؟»

«لا جودي، أظن فقط أن الأمر يبقينا بعيدَين عن بعضنا إلى حد ما. لأنك دائمًا في الخارج تلقي خطبًا وتصلح الأشياء، ويبدو أنني أظل دائمًا أحسب الوقت. وأتمنى أن ينتهي كل هذا قريبًا».

«ينتهي، جاني؟ يا إلهي، أنا لم أبدأ حتى يا جاني. لقد أخبرتك من البداية أنني أريد أن أصير شخصًا مؤثرًا. يجب أن تكوني ممتنة لأن ذلك يجعل منك امرأة مهمة أيضًا».

شعور بالفتور والخوف تملكها. فقد أحست بأنها بعيدة عن الأشياء ووحيدة.

سرعان ما بدأت جاني تشعر بتأثير الرهبة ضد أحاسيسها. زوجة العمدة ليست مجرد امرأة أخرى مثلما افترضت. لأنها تنام مع السلطة كما أنها كانت جزءًا منها في أذهان سكان المدينة. لم يكن بوسعها إلا أن تحس أنها قريبة روحيًا من معظمهم. كان ذلك ملحوظًا خاصة بعد أن أجبرهم جو على حفر خندق خلال المدينة ليظل الشارع أمام المتجر جافًا. وكانوا يغمغمون حول انتهاء العبودية، بينما كل رجل يؤدي مهمته.

كان هناك شيء حول جو ستاركس يرهب المدينة. لم يكن بسبب الخوف البدني. فهو لم يكن مقاتلًا بقبضته. حتى أن بنيته لم تكن مهيبة كما بعض الرجال. ولا لأنه كان مثقفًا أكثر من الباقين. هناك شيء كان يجعل الرجال الآخرين يستسلمون أمامه. فهو يملك تلك السيطرة الفذة في وجهه، وكل خطوة يخطوها تجعل ذلك محسوسًا أكثر.

على سبيل المثال منزله الجديد. كان من طابقين وبه شرفات، مع أسيجة وأشياء من هذا القبيل. ما تبقى من المدينة كان يشبه مساكن الخدم المحيطة

بـ «المنزل الكبير». وبشكل يختلف عن أي شخص آخر في البلدة فإنه قام بتأجيل الانتقال إلى المنزل حتى انتهى من دهنه من الداخل والخارج. دهنه كله باللون الأبيض اللامع. ذلك النوع من الطلاء الأبيض الذي دهنت به منازل الأسقف ويل، ودابليو. بي جاكسون وفاندربول. مما جعل أهل القرية يشعرون بالغرابة من الكلام معه، كما لو أنه ليس مثل أي شخص آخر. ثم كان هناك مسألة المباصق. فخلال وقت وجيز صار هو العمدة، مدير مكتب البريد-المالك-أمين المتجر، ومن ثم اشترى مكتبًا مثل السيد هيل أو السيد غالاوي في ميتلاند مع واحد من تلك الكراسي المتأرجحة ملحقٌ به. طريقته في الجلوس على ذلك الكرسي وهو يحمل السيغار ويوفر أنفاسه خلال الكلام ويتأرجح، هو ما أضعف الناس. وبعدها بصقه في ذلك الإناء الذهبي الذي سيكون أي شخص آخر سعيدًا بوضعه على طاولة الغرفة الأمامية الخاصة به. قال لهم إنه إناء للبصق كان رئيسه السابق يملك واحدًا مثله في مصرفه هناك في أتلانتا. حتى لا يضطر إلى المشي حتى الباب في كل مرة كان عليه أن يبصق. ولا أن يبصق على الأرض. كان امتلاك وعاء البصق الذهبي ذلك أمرًا عمليًا. ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد اشترى وعاء بصق صغير لجاني لكي تبصق فيه. ووضعه في الصالون مع أغصان صغيرة من الزهور رسمت على جميع جوانبه. هذا الأمر أخذ الناس على حين غرة لأن معظم النساء يخزن السعوط وبالطبع كن يملكن أكواب بصق في المنزل. ولكن كيف كان لهن أن يعرفن أن الناس صاروا يبصقون في أشياء صغيرة منمقة من هذا القبيل؟ جعلهم هذا الأمر يشعرون بأنه يتم استغلالهم، ويتم إخفاء الأشياء عنهم. ربما المزيد من الأشياء في العالم إلى جانب أواني البصق تم إخفاءها عنهم، حيث لم يتم إخبارهم بالبصق في أشياء أفضل من علب الطماطم. كان الأمر سيئًا بما فيه الكفاية حين يفعله الناس البيض، ولكن عندما يبدأ شخص من سحنتك ذاتها في أن يكون مختلفًا فذلك يجعلك

تتعجب. هذا يشبه رؤيتك لأختك تتحول إلى «تمساح». غرابة مألوفة. تظل ترى أختك في التمساح والتمساح في أختك، بينما تفضل ألا تفعل. لم يكن هناك شك في أن المدينة تحترمه وحتى أنها معجبة به بطريقة ما. ولكن أي رجل يمشي في طريق السلطة والملكية لابد أن يلقى الكراهية. لذلك عندما وقف المتحدثون خلال إحدى المناسبات وقالوا «عمدتنا الحبيب»، كان ذلك واحدًا من تلك التصريحات التي يقولها الجميع لكن لا أحد يصدقها فعلًا مثل «الرب موجود في كل مكان». كانت مجرد مؤشر لاختتام الكلام. بينما كان الوقت يمر وتتراجع الفوائد التي يقدمها للمدينة كانوا في كثير من المرات يجلسون على شرفة متجره بينما يكون مشغولًا في الداخل ليتناقشوا حوله. مثل ذلك اليوم الذي وجد فيه هنري بيتس يسرق حمولة عربة من نبات قصب السكر وأخذ القصب بعيدًا وجعل بيتس يغادر المدينة. بعضهم اعتقد أن ستاركس لا يجب أن يفعل ذلك. كان لديه الكثير من نبات قصب السكر وكل شيء آخر. ولكنهم لم يقولوا ذلك حين كان جو ستاركس على الشرفة. لكن عندما جاء البريد من ميتلاند ومضى للداخل لترتيبه بدأ الجميع يقولون كلمتهم حول هذا الأمر.

بدأ سيم جونز مباشرة بعدما تأكد أن ستاركس لا يسمعه.

«إنها لخطيئة وشيء مخزٍ طرد رجل مسكين كهذا من هنا. لا يجب على الملونين أن يكونوا قساة جدًا تجاه بعضهم البعض».

«لا أرى الأمر على هذا النحو أبدًا»، قال سام واتسون باقتضاب. «دع الملونين ليتعلموا كيف يعملون بجد ليأخذوا ما يريدونه مثل أي شخص آخر. لم يمنع أحد بيتس من زراعة أشجار القصب التي يريدها. لقد قدم له ستاركس وظيفة، ماذا يريد أكثر من ذلك؟»

«أن أعرف ذلك»، قال جونز، «لكن يا سام، جو ستاركس صارم جدًا مع

الناس. كل ما صنعه هو نتيجة مجهود بقيتنا. لم يكن يملك كل ذلك عندما أتى إلى هنا».

«نعم، ولكن لا شيء مما تراه الآن أو تجلس عليه كان موجودًا عندما أتى. أعطى الشيطان حقه».

«ولكن الآن يا سام كل ما يفعله هو تنمية كرشه وإخبار الجميع بما عليهم فعله. فهو يحب أن يرضخ الجميع لصوته».

«بإمكانك أن ترى تغيرًا في راحته عندما يتحدث إليك»، قال أوسكار سكوت. «هذه القبضة تجعلك تحس بشعور غريب في معدتك».

«إنه زوبعة بين النسائم»، قاطعهم جيف بروس. «بالحديث عن الرياح، فهو رياح ونحن الحشائش. ونحفحف في الاتجاه الذي يهب هو فيه»، قال سام واتسون موافقًا، «ولكن رغم ذلك فنحن نحتاج إليه. ليس بيده أن يغير حقيقة كونه متسلطًا. بعض الناس يحتاجون العروش، وكراسي السلطة والتيجان ليجعلوا تأثيرهم محسوسًا. وهو يملك عرشًا في كرسيه المتأرجح ذاك».

«ما لا أحبه في الرجل هو أنه يتحدث إلى أناس أميين من خلال كتب تتناثر من فكيه»، قال هيكس. «يفعل ذلك لكي يظهر ثقافته. بالنظر إليّ ربما لن تدرك ذلك، لكن لدي أخ قس في أوكلاهوما متعلم بشكل جيد. لو كان هنا، لم يكن جو ستاركس ليخدعه كما يفعل مع بقيتنا».

«عادة ما أفكر في زوجته الصغيرة تلك وكيف تقدر على التعامل معه، لأنه رجل باستطاعته أن يغير كل شيء، دون أن يغيره أي شيء».

«أتعرف، أنا أيضًا أفكر معظم الوقت في هذا الأمر. فهو يصب غضبها عليها بين الحين والآخر عندما تقوم بخطأ بسيط في المتجر».

«ما الذي يجعلها تربط رأسها مثل امرأة مسنة في المتجر؟ لا أحد يستطيع إجباري على ارتداء خرقة حول رأسي لو كنت أملك شعرًا مثل هذا».

«ربما هو يجبرها على هذا الأمر. ربما يخشى أن يقوم أحدنا بلمسها عندما تكون في المتجر. إنه بالطبع سر خفي بالنسبة لي».

«إنها بالطبع لا تتحدث كثيرًا. الطريقة التي يصرخ ويتنمر بها في المتجر أحيانًا عندما تخطئ ظالمة جدًا، ولكن لا يبدو أنها تمانع أبدًا. يبدو أنهما يفهمان بعضهما البعض».

كان لدى المدينة سلة مملوءة بالمشاعر الجيدة والسيئة حول مكانة جو وممتلكاته، ولكن لم يملك أحد التهور لتحديه. بدلاً عن ذلك فلقد خضعوا له، لأنه كان كل تلك الأشياء، ومن ثم فقد كان كل تلك الأشياء لأن المدينة كانت تخضع له.

# 6

في كل صباح يدفع العالم نفسه ويكشف المدينة للشمس. ويكون لدى جاني يوم جديد. وكل يوم يكون فيه عمل في المتجر، ما عدا الأحد. المتجر نفسه كان مكانًا جيدًا لو لم يكن عليها أن تبيع فيه الأشياء. عندما يجلس الناس على الشرفة وعندما يتجولون في الأرجاء، تبدو صورة أفكارهم وكأنهم وهبوها للآخرين لينظروا إليها ويروها، كان الأمر محببًا. حقيقة أن صور التفكير كانت تبدو دائمًا كتلوين موسع للحياة، جعلت سماعها حتى يصير محببًا أكثر.

خذ على سبيل المثال قضية بغل مات بونر الأصفر. فهم يتناولونه في محادثاتهم في كل يوم يرسله الرب. وخاصة إذا كان مات بنفسه هناك ليسمعهم. كان سام وليبغ ووالتر هم زعماء الحكايات حول البغل. والآخرون يتفوهون بأي شيء حالما تتاح لهم فرصة، ولكن يبدو كما لو أن سام وليبغ ووالتر يمكنهم أن يسمعوا ويروا المزيد حول هذا البغل من باقي المقاطعة كلها مجتمعة. كان كل ما يحتاجونه هو رؤية هيئة مات الطويلة نازلة عبر الشارع وبحلول الوقت الذي يصل فيه إلى الشرفة يكونون مستعدين له.

«مرحبًا مات».

«مساء الخير سام».

«سعيد لأنك انضممت إلينا الآن يا مات. أنا وآخرون كنا على وشك البحث عنك».

«لماذا؟»

«لأجل أمر مهم يا رجل، مهم جدًا!»

«نعم يا رجل»، تدخل ليبغ بحسرة. الأمر يحتاج انتباهك التام. يجب عليك ألا تفقد المزيد من الوقت».

«ما الأمر إذن؟ عليكم الإسراع بإخباري».

«ربما من الأفضل ألا نخبرك هنا في المتجر. فذلك لن يكون جيدًا. من الأفضل أن نتمشى بجانب بحيرة سيبيليا».

«ماذا هناك يا رجل؟ أن لست متفرغًا لحماقاتكم الآن».

«بغلك يا مات. ربما من الأفضل أن تذهب لرؤيته. لقد حل به سوء».

«ماذا حدث له؟ هل سبح في البحيرة وأمسك به تمساح؟»

«بل أسوأ. فقد أمسكت النسوة ببغلك. عندما كنت أمر قرب البحيرة ظهيرة اليوم رأيت زوجتي وبعض النسوة الأخريات وهن يثبتن بغلك إلى الأرض ويستخدمن قوائمه كألواح للغسيل».

انفجرت الضحكات التي كانوا يكتمونها بشدة. لم يضحك سام أبدًا. «نعم يا مات، بغلك هذا نحيل جدًا لدرجة أن النسوة يستخدمن أضلعه كألواح تنشيف، ويعلقن الأشياء لتجف في عرقوبه».

أدرك مات أنهم خدعوه مرة أخرى وجعلته الضحكات يغضب، وعندما يغضب فإنه يبدأ في التمتمة. «أنت كاذب قـ قـ قـ قذر يا سام، وقدماك غير متطابقتين. أ أ أ أ أنت!»

«يا رجل، لا فائدة من أن تغضب. أنت تعلم أنك لا تطعم ذلك البغل. كيف له أن يسمن؟»

«أ أ أ أ أنا أطعمه بالفعل! أنا أ أ أ أعطيه جردلًا مليئًا بالذرة في كل وجبة».

«يعرف ليغ كل شيء عن جردل الذرة ذلك. لقد اختبأ في مزرعتك وشاهدك. إنه ليس جردلًا الذي تطعمه به بل أقرب إلى كوب الشاي».

«أنا أطعمه. إنه فقط لا يريد أن يسمن. إنه يبقى ضعيفًا ومعظمًا نكاية بي. فهو خائف أنه سيضطر إلى أن يعمل لو فعل».

«نعم، تقوم بتغذيته. تغذيه بـ «الوعود» وتلفه بـ «الجلد الخام».

«أنا أطعم ذاك المشاكس اللئيم! أي كان ما أفعله فأنا لا أستطيع أن أتفق معه. فحالما أضعه أمام المحراث يقاتلني، حتى أنه يرجع أذنيه للخلف ويستعد للرفس والعض عندما أدخل إلى الحظيرة لإطعامه».

«سوي الأمر يا مات»، قال ليغ. «جميعنا نعرف أنه لئيم. لقد رأيته يركض خلف ابن روبرت في الشارع وكان يوشك على الإمساك به وربما تمزيقه حتى الموت لو لم يتغير اتجاه الرياح بشكل مفاجئ. كان الفتى الصغير يحاول أن يصل إلى السياج الذي يضع ستاركس البصل خلفه وقد كان البغل يركض خلفه باستماتة ويحاول الإمساك به في كل قفزة حتى هبت الرياح فجأة وأبعدت البغل عن طريقه، وقبل أن يستجمع المشاكس اللئيم قواه تمكن الفتى الصغير من القفز خلف السياج». ضحك جميع من بالشرفة واستشاط مات غضبًا.

«ربما ينطلق البغل خلف أي أحد»، قال سام،

«ربما يظن أن وقع خطوات أي شخص قادم هي لمات بونر الذي يأتي ليجعله يعمل بمعدة فارغة».

«آه يا رجل، آه يا رجل، أوقف كل ذلك في الحال»، اعترض والتر. «هذا البغل لا يظن أنني أبدو كمات بونر. هو ليس بهذا الغباء. لو ظننت أنه لا يعرف الفرق فسوف أخذ صورة وأعطيها له ليرى الفرق. لن أدعه يظن بي

شيئًا مماثلًا».

جاهد مات ليقول شيئًا ولكن لسانه خذله لذا فقد قفز من الشرفة ومشى بغضب لا مثيل له. لكن ذلك لم يقطع الثرثرة حول البغل. فهناك قصص أكثر حول مدى ضعف ذاك البغل؛ سنه المتقدم؛ تصرفاته الشريرة وآخر حماقاته. انغمس الجميع في الأحاديث حول البغل. كان بنفس أهمية العمدة، بل وتدور حوله أحاديث أفضل.

أحبت جاني تلك المحادثات وفي بعض المرات كان لديها قصص جيدة عن البغل، لكن جو كان يمنعها من إشباع رغبتها. لم يكن يريد لها أن تتحدث مع أناس قذرين مثلهم. «أنت السيدة ستاركس زوجة العمدة يا جاني. لا أعرف لم تريد امرأة مستقرة مثلك أن تختلط بأولئك الحمقى الذين لا يملكون حتى المنازل التي ينامون فيها. وليس لهم فائدة إطلاقًا. إنهم مجرد مجموعة من التافهين الذين يضيعون الوقت خلال أشياء تافهة».

لاحظت جاني أنه في حين أنه لم يتحدث عن البغل، فقد كان يجلس ويضحك حول الأمر. يضحك ضحكته الصاخبة تلك. ولكن بعد ذلك عندما يبدأ ليبغ أو سام أو والتر أو الآخرون في التحدث عن جانب آخر من العالم، كان جو يوبخها من داخل المتجر لكي تبيع شيء ما. وكان يبدو أنه يستمتع بالقيام بذلك. لماذا لا يمكن أن يذهب بنفسه في بعض الأحيان؟ كانت قد بدأت تكره ذلك المتجر على أي حال. ومكتب البريد أيضًا. فالناس دائمًا يأتون ليسألوا عن البريد في الوقت غير المناسب، مثل عندما تحاول عد شيء أو الكتابة في دفتر حساب. مما يجعلها مشوشة لدرجة لصق الطوابع الخاطئة. ثم أيضًا، فإنها لا تتمكن من قراءة خط الجميع. بعض الناس يكتبون بطريقة مضحكة جدًا ويخطّون الأشياء بطريقة مختلفة عما تعرفه. وكقاعدة عامة، جو يرتب البريد بنفسه، لكن في بعض الأحيان عندما لا يكون هناك

يتوجب عليها أن تفعل ذلك بنفسها، ودائما ما ينتهي الأمر بفوضى عارمة.

المتجر نفسه كان يصيبها بالصداع. العمل على إنزال الأشياء من الرف أو إخراج شيء من برميل كان شيئًا عاديًا. وطالما أراد الناس فقط علبة من الطماطم أو رطل من الأرز فهذا جيد. ولكن لنفترض أنهم قالوا رطلًا ونصف من لحم الخنزير المقدد ونصف رطل من شحم الخنزير؟ كل شيء يتغير من مشي قصير ويمتد إلى معضلة رياضية. أو ربما كان سعر الجبن سبعة وثلاثين سنتًا للرطل، وجاء شخص ما ليطلب ما تبلغ قيمته عشرة سنتات. لقد مرت خلال العديد من الثورات الصامتة على أشياء من هذا القبيل. هذه مضيعة للحياة والوقت. ولكن جو كان يخبرها أنها يمكن أن تفعل ذلك إذا أرادت وأراد لها أن تستخدم امتيازاتها. كانت هذه الأشياء هي الصخرة التي ترتطم بها.

مسألة غطاء الشعر تلك كانت تغضبها بشكل يصعب تجاوزه. ولكن جودي كان مصرًا عليها. شعرها يجب ألا يظهر في المتجر. لم يبدُ هذا منطقيًا على الإطلاق. كان ذلك لأن جو لم يخبر جاني أبدًا كم هو غيور. لم يخبرها كم مرة رأى رجلًا آخر يتمرغ حولها مجازيًا عندما كانت تنجز أشياء في المتجر. ذات ليلة رأى والتر يقف وراء جاني ويمرر الجزء الخلفي من يده ذهابًا وإيابًا عبر جديلتها بخفة ليتمتع بملمسها دون أن تحس جاني. كان جو في الجزء الخلفي من المتجر ولم يره والتر. أحس جو أنه يجب أن يداهمه بسكين اللحم ويقطع يده المتسببة بالمشكلة. في تلك الليلة أمر جاني بربط شعرها عندما تكون في المتجر. هذا كل شيء. فقد كانت هناك في المتجر لكي ينظر إليها هو، وليس أولئك الآخرين. لكنه لم يقل أشياء من هذا القبيل. لم يكن هذا طبعه. خذ مسألة البغل الأصفر، على سبيل المثال.

ذات ظهيرة متأخرة أتى مات من الغرب وهو يحمل رسنًا في يده. «كنت

أبحث عن بغلي. ألم يره أحد؟» سأل.

«لقد رأيته هذا الصباح خلف مبنى المدرسة»، قال لوم. «حوالي الساعة العاشرة أو قربها. لابد أنه أمضى الليلة بطولها في الخارج لكي يصل إلى هذا المكان البعيد في الصباح الباكر».

«فعلًا»، أجاب مات. «لقد رأيته بالأمس لكنني لم أستطع الإمساك به. يجب أن أجده اليوم لأنني سأحرث في الغد. لقد وعدت بأن أحرث بستان تومبسون».

«أتظن أنك ستستطيع إنجاز العمل بهذا البغل؟» سأل ليغ.

«هذا البغل قوي جدًا. لكنه شرير ولا يحب أن يتحكم به أحد».

«هذا صحيح. لقد أخبروني أنه أحضرك إلى هذه المدينة. لقد قالوا إنك كنت تنوي الذهاب إلى ميكانوبي، في فلوريدا ولكن البغل كان يملك حدسًا أفضل وأحضرك إلى هنا».

«هذه كـ كـ كـ كذبة! لقد قررت المجيء إلى هذه البلدة عندما تركت غرب فلوريدا».

«أتريد أن تخبرني أنك قدت هذا البغل طوال هذا الطريق من غرب فلوريدا وحتى هذا المكان؟»

«بالطبع فعل يا ليغ. لكنه لم يقصد ذلك. فقد كان مرتاحًا هناك، لكن البغل لم يكن كذلك. لذا ذات صباح امتطى البغل وكان يتجول به دون هدى. كان البغل أذكى منه. فالناس هناك لا يتناولون خبز البسكويت سوى مرة واحدة في الأسبوع».

كان هناك القليل من الجدية خلف إغاظة مات تلك، لذا عندما غضب

ومضى لم يمانع أحد. كان معروفًا عنه أنه يشتري شرائح صغيرة من اللحم. ويحمل إلى المنزل حصص صغيرة من الطعام ويحمل القليل من الدقيق في قبضته. لم يكن يهتم طالما أن الأمر لا يكلفه الكثير.

عقب نصف ساعة من ذهابه سمعوا البغل عند حافة الغابة. كان سيمر قرب المتجر خلال وقت قريب.

«دعونا نقبض على بغل مات لأجله ونحصل على بعض المرح».

«أنت تعلم يا لوم أن هذا العجل لن يرضى أن نمسك به. دعنا نشاهدك تفعلها».

عندما مر البغل أمام المتجر، خرج لوم لكي يتصدى له. هز البغل رأسه، أرجع أذنيه للوراء وهرع ليهاجمه. كان على لوم أن يركض لأجل سلامته. خمسة أو ستة رجال آخرون تركوا الشرفة وحاصروا الوحش العنيد، يدغدغون جانبيه ويجعلونه يظهر غضبه أكثر. ولقد كان لديه روح أكثر من الجسد، وسرعان ما بدأ يلهث ويحس بالثقل بسبب غزل جسده المسن بهذه السرعة. الجميع كانوا يلهون بالهجوم على البغل. إلا جاني.

أشاحت بوجهها بعيدًا عن المشهد وبدأت تغمغم لنفسها. «لابد أن يخجلوا من أنفسهم! وهم يغيظون هذا البهيم المسكين بتلك الطريقة! لقد ظل يشتغل طوال حياته؛ وتمت الإساءة إليه بما فيه الكفاية، والآن يوشكون على تعذيبه حتى الموت. يا ليت بيدي شيء لأفعله تجاههم جميعًا».

غادرت جاني الشرفة ووجدت شيئًا لتشغل نفسها به في الجزء الخلفي من المتجر لذا لم تسمع جودي عندما توقف عن الضحك. لم تعرف لو أنه سمعها، لكنها سمعته ينادي، «هذا يكفي بحق الرب يا لوم! لقد فعلتم ما يكفي. أوقفوا حماقتكم ولتذهب لإبلاغ مات أنني أريد التحدث معه في

الحال».

عادت جاني إلى الشرفة وجلست. لم تقل أي شيء وفعل جودي المثل. ولكن بعد فترة نظر إلى قدميه وقال، «أعتقد أنه من الأفضل أن تمضي وتحضري لي الجرموق الأسود القديم يا جاني. هذا الحذاء يؤلم قدمي كثيرًا. رغم أنه ليس ضيقًا لكنه يؤلمني بشدة».

نهضت دون كلمة وانطلقت تبحث عن الجراميق. حرب دفاعية صغيرة لأجل أشياء عاجزة كانت تندلع داخلها. يجب أن ينتبه الناس للأشياء العاجزة. أرادت أن تحارب لأجلها. «لكنني أكره الخلاف والارتباك، لذلك من الأفضل ألا أتحدث. فذلك يجعل تقبلها أصعب بكثير». لم تستعجل في العودة. جالت في الأنحاء لوقت طويل بما فيه الكفاية لكي تستعيد سكينتها. عندما عادت كان جو يتحدث مع مات.

«خمسة عشر دولارًا؟ يا إلهي، لابد أنك مجنون بشكل كامل! خمسة دولارات».

«دعنا نجد تسوية يا أخي العمدة. لنجعلها عشرة دولارات».

«خمسة دولارات». لف جو سيغاره في فمه وأدار حدقتيه.

«لو كان لهذا البغل قيمة عندك يا حضرة العمدة فقيمته عندي أكبر. خاصة عندما أجد عملًا في الغد».

«خمسة دولارات».

«حسنًا يا أخي العمدة. لو أردت أن تسرق رجلًا فقيرًا مثلي بهذا الشكل من كل شيء يملكه، فسأخذ الخمسة دولارات. لقد ظل هذا البغل برفقتي لثلاثة وعشرين عامًا. هذا مؤلم جدًا».

بدل العمدة ستاركس حذائه بتروٍ قبل أن يأخذ محفظته لدفع المال. وبحلول ذلك الوقت كان مات يفرك ويتلوى مثل دجاجة على قرميد ساخن. ولكن ما أن أغلق يده على المال، علت الابتسامة وجهه.

«إنها صفقة خاسرة يا ستاركس! هذا البغل عرضة للموت قبل نهاية هذا الأسبوع. لن تستفيد منه في شيء».

«أنا لم أشتره لأجل العمل. لقد اشتريت هذا السافل لأدعه يرتاح. لأنك لم تمتلك النباهة الكافية لفعلها».

صمتٌ يملؤه بالاحترام ملأ المكان. نظر سام لجو وقال، «هذه فكرة جديدة أيها العمدة. لم أفكر فيها حتى. إنه لشيء نبيل ما قمت به». اتفق الجميع على ذلك.

ظلت جاني واقفة بثبات بينها يدلي الجميع بآرائهم. عندما انتهى الأمر بأكمله وقفت أمام جو وقالت، «كان هذا شيء عظيمًا ما فعلتَه يا جودي. لم يكن الجميع ليفكروا في الأمر بهذا الشكل. تحرير ذلك البغل يجعل منك رجلًا عظيمًا. بشكل ما كجورج واشنطن ولنكولن. لقد كان إبراهام لنكولن يحكم الولايات المتحدة كلها لذا فقد حرر العبيد. وأنت حكمت مدينة وحررت البغل. يجب أن تمتلك القوة لتحرر الأشياء وهذا يجعلك مثل الملك أو شيء مشابه».

قال هيمبو، «زوجتك متحدثة لبقة يا ستاركس. لم نكن نعرف ذلك. لقد وضعت الكلمات المناسبة لأفكارنا تمامًا».

عض جو بصارمة على سيغاره وابتسم، لكنه لم يقل أي كلمة. ظلت المدينة تتحدث عن هذا الأمر لمدة ثلاثة أيام، وقالوا إن هذا ما قد كانوا ليفعلوه لو أنهم أغنياء مثل جو ستاركس. على أية حال بغل حر في البلدة كان شيئًا

جديدًا يتحدثون حوله. كدس ستاركس العلف تحت شجرة كبيرة بالقرب من الشرفة وكان البغل عادة يجول حول المتجر مثل غيره من المواطنين. وأصبح لدى الجميع تقريبًا عادة جلب حفنة من العلف لرميها في الكومة. حتى أنه ازداد وزنًا وشعر الجميع بالفخر لهذا السبب. انتشرت الأكاذيب الجديدة حول أفعال البغل الحر. كيف أنه دفع باب مطبخ ليندسي ونام ليلته هناك وقاتل حتى أعدوا له القهوة على الفطور؛ كيف أنه حشر رأسه في نافذة بيرسون بينما كانت العائلة على المائدة والسيدة بيرسون ظنت بالخطأ أنه القس بيرسون ومدت له طبقًا؛ كما أنه طرد السيدة تالي من لعبة الكروكيت لامتلاكها مثل هذه الهيئة القبيحة؛ وركض وحاصر بيكي أندرسون وهي في طريقها إلى ميتلاند لكي يبقي رأسه بعيدًا عن الشمس تحت مظلتها؛ وقيل إنه سأم من الاستماع إلى صلاة ريدموند الطويلة، فذهب إلى داخل الكنيسة المعمدانية وفض الاجتماع. فعل كل شيء ولكنه لم يقم بزيارة مات بونر.

ولكنه توفي بعد مدة. وجده لوم تحت الشجرة الكبيرة وأطرافه الأربعة معلقة في الهواء. لم يكن ذلك طبيعيًا، ولم يبدو صحيحًا، ولكن سام قال إن الأمر سيكون غير طبيعي أكثر بالنسبة له لو أنه ألقي على جنبه ومات مثل أي حيوان آخر. فقد نظر إلى الموت القادم وتمسك بموقفه وحارب ذلك مثل أي إنسان طبيعي. وخاض معه حربًا حتى النفس الأخير. وبطبيعة الحال لم يكن لديه الوقت لتعديل نفسه. فكان على الموت أن يأخذه بالحالة التي وجده بها.

عندما انتشرت الأخبار حول موته، بدا الأمر مثل نهاية الحرب أو شيء من هذا القبيل. الجميع توقفوا في طريقهم إلى العمل للتحدث عن الأمر. ولكن في النهاية لم يكن هناك شيء للقيام به سوى جره مثل أي بهيم نافق آخر. جروه إلى حافة الغابة والتي كانت بعيدة بما يكفي لتلبية الشروط الصحية في المدينة. وبقية الأمر كان بيد الصقور. الجميع كانوا ذاهبين لحضور الجنازة.

جعلت الأنباء العمدة ستاركس يستيقظ باكرًا. كان زوج خيوله الرمادية تحت الشجرة والرجال يتلاعبون بالمعدات عندما وصلت جاني إلى المتجر مع وجبة إفطار جو.

«أغلق هذا المتجر جيدًا قبل أن تغادر يا لوم، أتسمعني؟» كان يأكل بسرعة ويتحدث بينما كانت عيناه موجهتين نحو ما يحدث في الخارج.

«لمَ تأمره بأن يغلق المكان يا جودي؟» سألت جاني بدهشة.

«لأنه لن يكون هناك أحد هنا لمراقبة المتجر. لأنني سأذهب لترأس الجنازة بنفسي».

«ليس هناك شيء لأفعله اليوم يا جودي، لمَ لا آتي معك لحضور الجنازة؟»

عجز جو عن الإجابة لدقيقة. «لمَ يا جاني! لم تريدين الذهاب؟ لمشاهدة الجميع يدفعون ويجرون ذلك البغل بعيدًا؟ لمَ، لم؟!»

«سوف تكون هناك معي، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح سأكون هناك. بصفتي رجل، حتى لو أنني العمدة فأنا ما زلت رجلًا. لكن زوجة العمدة هي شيء مختلف. على كل حال سيحتاجونني لأقول بضع كلمات خلال الجنازة، هذا ظرف استثنائي. لكنني لن أدعك تتعرضين لكل هذه الفوضى. واستغرب أنك سألتِ بالأساس».

في المستنقع قدموا المراسم الكبيرة للبغل. استهزئوا من كل شيء بشري في الموت. بدأ ستاركس بإلقاء مديح كبير حول المواطن الراحل، مواطننا الأكثر تميزًا والحزن الذي تركه خلفه، أحب الناس الخطاب. وقد كان خطابه هذا أكثر صلابة من الذي ألقاه عند بناء المدرسة. استعمل البطن المنتفخة للبغل كمنصة وحياهم. عندما تنحى، رفعوا سام فتحدث عن البغل كمعلمٍ أولًا.

ثم ثبت قبعته مثل جون بيرسون وقلد كرازته[1]. تحدث عن مباهج جنة البغال التي انتقل إليها الأخ العزيز من وادي الحزن هذا؛ والملائكة البغال يحلقون حوله؛ وأميال الذرة الخضراء والماء البارد، ومراعي النخالة النقية مع نهر من العسل الأسود الذي يمر خلالها؛ والأعظم من كل هذا، أنه ليس هناك مات بونر بمحرائه وأرسنته ليأتي ويقاطعه. هناك، سيكون للملائكة البغال أناس ليمتطونهم، ومن مكانه بجانب العرش المتألق، سينظر الأخ الراحل العزيز إلى الجحيم ويرى الشيطان يجعل مات بونر يحرث طوال اليوم في شمس الجحيم الساخنة ويضع الجلود الخام على ظهره.

عندما انتهى الأمر ضحكت الأخوات بشدة وسخرن وتعالت صرخاتهن وكان لابد أن يصحبهن معشر الرجال. استمتع الجميع لأقصى حد ممكن ثم أخيرًا تُرك البغل للصقور نافدة الصبر. كانت الصقور تحلق بقوة فوق رؤوس المشيعين، وبعض الأشجار القريبة صارت مأهولة بالفعل بأشكال تتجهز للانقضاض.

حالما أصبح حشد المشيعين بعيدًا عن الأنظار التفوا حول الجيفة في دائرة. الأقرب للجيفة اقتربوا أكثر والأبعد كانوا يقتربون أيضًا. انقضوا عليها وكانوا يقفزون بأجنحة منتشرة. اقتربوا، اقتربوا حتى أصبح الأكثر جوعًا بينهم أو الأكثر جرأة جاثمين على الجيفة. أرادوا أن يبدأوا، لكن القائد لم يكن هناك، لذلك أرسل رسول إلى القائد في الشجرة حيث كان يجلس.

كان على القطيع انتظار الزعيم ذو الرأس الأبيض، ولكن ذلك كان صعبًا. فقد تدافعوا ونقروا رؤوس بعضهم البعض بتهيج جائع. بعضهم مشى ذهابًا وإيابًا من رأس الجيفة وحتى ذيلها، ومن ذيلها إلى رأسها. جلس القائد بلا حراك في شجرة صنوبر تبعد نحو ميلين. كان قد اشتم الأمر بسرعة

1- وعظ بالتَّعاليم المسيحية والتبشير بها.

كما فعل البقية، ولكن اللباقة كانت تتطلب أن يجلس وكأنه يغفل الأمر حتى يتم إخطاره. ثم عليه أن يقلع في رحلة مليلة ويحلق وينخفض، يحلق ويخفض حتى يرقص الآخرين فرحًا وجوعًا بوصوله.

بعد الانتهاء من كل ذلك حط أخيرًا على الأرض ومشى في جميع أنحاء الجيفة لمعرفة ما إذا كانت ميتة حقًا. أنعم النظر في الأنف والفم. درسها جيدًا من أقصاها إلى أقصاها وقفز عليها وانحنى، ورقص الآخرون استجابةً. عندما انتهى هذا، توازن وسأل:

«ما الذي قتله؟»

ردت الجوقة، «الدهون العارية».

«ما الذي قتله؟»

«الدهون العارية».

«من الذي سيعقد جنازته؟»

«نحن!!!!»

«حسنًا، هذا جيد». وعندها اقتلع العينين بطريقة احتفالية وبدأت المأدبة. كان البغل الأصفر قد ترك المدينة بأكملها ما عدا أحاديث الشرفة، والأطفال الذين يزورون عظامه بين الحين والآخر في رحلة روحانية.

عاد جو إلى المتجر مليئًا بالمتعة وروح دعابة جيدة لكنه لم يكن يريد لجاني أن تلحظ ذلك لأنها كانت متجهمة واستاء لذلك. من وجهة نظره، لم يكن لديها حق في أن تستاء. إنها لا تقدر جهوده حتى رغم أن لديها أسباب كثيرة لتقديرها. ها هوا ذا يجلب لها الفخر بكل الأشكال؛ حتى أنه بنى كرسيًا عاليًا لتجلس عليه وتطل على العالم، وها هي هنا عابسة بلا سبب! ليس الأمر أنه

يريد أي امرأة أخرى، ولكن الكثير من النساء سيكن سعيدات بأن يأخذن مكانها. عليه أن يلطمها في فكها!

لكنه لم يحس برغبة في التشاجر اليوم.

«لقد ضحكت كثيرًا على الناس في تلك الغابة اليوم يا جاني. لم يكن بوسعك سوى الضحك على كمية نباتات الكبر التي قطعوها. أتمنى أن يجد الناس هنا أعمالًا أكثر للقيام بها عوضًا عن قضاء أوقاتهم في فعل الحماقات».

«لا يستطيع الجميع أن يكونوا مثلك يا جودي. البعض يفضلون الضحك والمرح».

«من الذي لا يحب أن يضحك ويمرح؟»

«أنت تبدو وكأنك لا تحب ذلك على كل حال».

«يا إلهي، أنا لا أفعل ذلك! لكن هناك وقت مناسب لكل شيء. ومن المريع أن ترى أناسًا كل همهم هو أن يملؤوا بطونهم ويجدوا مكانًا للاستلقاء فيه والنوم. الأمر يجعلني حزينًا أحيانًا وغاضبًا أيضًا. في بعض الأحيان يقولون أشياء تضحكني حتى الموت، ولكنني لا أضحك كي لا أشجعهم».

أخذت جاني الطريق الأقصر لتجنب المشاكل. لم تغير رأيها ولكنها اتفقت مع فمها. قلبها قال، «حتى ولو، ليس عليك أن تغضب حيال الأمر». ولكن أحيانًا يجبر سام واتسون وليبغ موس ستاركس على الضحك من خلال جدالاتهما اللانهائية. لم تكن تنتهي أبدًا لأنه لم تكن هناك نهاية ليصلوا إليها. كانت منافسة في المبالغة والاستمرار دون سبب.

لابد أن يكون سام جالسًا على الشرفة عندما يأتي ليبغ. إذا لم يكن هناك أحد، فلن يحدث أي شيء. ولكن إذا اجتمعت المدينة هناك خلال ليلة السبت مثلًا، كان ليبغ ليأتي وهو يتصنع الحيرة ويقول إنه لم يتمكن حتى من

تضيع الوقت خلال اليوم، كونه مشغولًا بالتفكير للغاية. ثم عندما يُسئل ما الأمر لكي يجعلوه يبدأ، كان يقول، «هذه المسألة تدفعني للجنون. وبما أن سام يعرف الكثير عن كل الأمور، أريد بعض المعلومات عن الموضوع».

ثم حينها يتحدثُ والتر تومبسون ويفصل المسألة. «نعم سام دومًا يملك معلومات كثيرة حتى أنه لا يعرف فيما يستخدمها. بإمكانه أن يخبرك بكل ما تود معرفته».

يبدأ سام بعرض مفصل حول تجنب الصراع. ويتوجه الجميع على الشرفة نحوه.

«كيف حدث أنك تريد نصيحتي؟ أنت تدعي دومًا أن الرب لاقاك عند الزاوية وشاطرك بما يدور في داخله. ليس هناك فائدة من أن تسألني أي شيء. أنا من يجب أن يستفهم حول الأشياء منك».

«ما الذي ستفعله يا سام، فأنا لن أحل هذا النقاش بنفسي؟ أنا أسألك».

«تسألني ماذا؟ لم تخبرني بالموضوع بعد».

«أنا لم أكن أنوي سؤالك! أريدك أن تبقى جاهلاً طوال الوقت. لو كنت ذكيًا جدًا كما تدّعي فستعرف ما أود أن أسألك عنه قبل أن أسألك حتى».

«أنت خائف من إخباري بالأمر، لأنك تعرف أنني سأمزق الأمر كله قطعًا. يجب أن تمتلك موضوعًا لتتحدث عنها وإلا فيتوجب عليك ألا تتحدث. لو لم يكن للرجل حدود، فلن يكون لديه مكان يتوقف فيه».

بحلول ذلك الوقت، صارا مركز العالم. «حسنًا. بما أنك بينت أنك لست ذكيًا بما فيه الكفاية لتعرف ما أتحدث عنه، فسأخبرك. ما الذي يحمي الإنسان من الاحتراق في موقد متقد، الحذر أم الطبيعة؟»

«يا إلهي! ظننت أنك تملك سؤالًا صعبًا. والتر يمكنه إخبارك بذلك».

«لو أن هذه المحادثة عميقة جدًا بالنسبة لك، فلمَ لا تخبرني أو تصمت؟ ليس بإمكان والتر أن يخبرني أي شيء بهذا الصدد. أنا رجل متعلم، وأبقي ذهني متقدًا ومعلوماتي حاضرة، حتى لو اضطررت أن أسهر طوال الليل لأدرسها، والتر لن يساعدني كثيرًا. أحتاج رجلًا مثلك».

«ومن ثم مجددًا، سأقوم بإخبارك بالأمر. سوف أبدأ هذه المناقشة من كعب البعوضة وصولًا للقمل. إنها الطبيعة هي ما يبقي الإنسان بعيدًا عن الموقد المتقد».

«كنت أعرف أنك ستختار هذا المسار للنقاش! ولكنني سأغلبك في هذا. ليس للأمر علاقة بالطبيعة قط إنه الحذر».

«ليس هناك شيء من هذا القبيل! الطبيعة تخبرك ألا تقترب من موقد متقد، ولذلك السبب لا تفعلها».

«اسمع يا سام، لو كان للأمر علاقة بالطبيعة فلن يكون على أحد مراقبة الأطفال الصغار وإبعادهم عن المواقد المشتعلة، أليس كذلك؟ لأنهم، بطبيعتهم، لن يلمسوها. لكنهم سوف يفعلون. لذا فهو الحذر».

«لا إنها الطبيعة، لأن الطبيعة تخلق الحذر. إنها أقوى شيء خلقه الرب. فقد خلق الطبيعة والطبيعة أنتجت كل شيء آخر».

«لا الطبيعة لم تقم بذلك. هناك أشياء لم تخلق بعد حتى».

«اذكر لي أحد الأمور التي تقول إن الطبيعة لم تخلقها».

«إنها لم تعلمك أن تمتطي بقرة وتتمسك بقرونها».

«نعم، ولكن هذه ليست حجّتك».

«بلى، إنها حجّتي».

«لا إنها ليست حجّتك».

«إذن ما هي حجتي؟»

«ليس لديك واحدة حتى الآن».

«بلى لديه حجّة»، تدخل والتر. «الموقد المتقد هو حجّته».

«إنه يعرف الكثير لكنه لم يثبت ذلك بعد».

«سام لقد قلت إن الحذر وليست الطبيعة هي ما يبقي الناس بعيدين عن الموقد المتقد».

«كيف يمكن للطفل أن يتكون قبل أبيه؟ الطبيعة هي بداية كل شيء. منذ أن كانت النفس نفسًا، الطبيعة هي ما يبقي الناس بعيدًا عن المواقد المتقدة. وهذا الحذر الذي تتكلم عنه هو شيء تافه. إنه شيء مستحدث ولا شيء ينتمي إليه. لديه عينان تنتميان لشيء آخر؛ وأجنحة تنتمي لشيء آخر- كل شيء! حتى همهمته هي صوت شيء آخر».

«يا رجل، ما الذي تتحدث عنه؟ الحذر هو أعظم شيء في العالم. لولا الحذر...»

«أخبرني بشيء فعله الحذر! انظر ماذا فعلت الطبيعة. الطبيعة هي ما جعلت الدجاجة السوداء تبيض بيضة بيضاء. الآن أخبرني، كيف صار لدى الرجل شعر حول فمه؟ الطبيعة!»

«هذا ليس...»، كانت الشرفة كلها تغلي الآن. ترك ستاركس المتجر لحزقيا بوتس، فتى التوصيل، وأتى ليجلس على مقعده العالي.

«انظر إلى ذاك الوحش [1] الهائل النذل في محطة التعبئة. وحش قذر عملاق. يأكل كل الناس الذين خارج المنزل ثم يأكل المنزل».

«ليس هنالك سافل كهذا في أي مكان يستطيع أن يأكل منزلًا! هذه كذبة. لقد كنت هناك بالأمس ولم أرَ شيئًا. أين هو؟»

«أنا أيضًا لم أره لكنني أعتقد أنه في مكان ما في الباحة الخلفية. ولكنهم يضعون صورته هناك في الواجهة. لقد كانوا يعلقونها عندما مررت من هناك بالأمس».

«حسنًا، لو كان يأكل المنازل لمَ لا يأكل محطة التعبئة؟»

«ذلك لأنهم يربطونه. لديهم صورة عملاقة تبين كمية غالونات غاز شركة نفط سنكلير التي شربها في مرة واحدة وكيف أنه يبلغ من العمر مليون عامًا».

«ليس هناك شيء يبلغ مليون عام!»

«الصورة معلقة هناك وبإمكان أي كان رؤيتها. ليس بإمكانهم اختلاق صورة لو لم يروا هذا الشيء بأعينهم، أليس كذلك؟»

«كيف لهم أن يعرفوا أنه يبلغ من العمر مليون عام؟ لم يكن أحد قد ولد حتى».

«بحسب الدوائر التي على ذيله اعتقد. أولئك البيض لديهم طرق لمعرفة كل ما يودون معرفته يا رجل».

«حسنًا، وأين كان طوال هذه المدة؟»

---

1- يشير المتحدث إلى صورة لديناصور هائل على لوحة الإعلانات في شركة نفط سنكلير. كان الديناصور شعار سنكلير وعرض بشكل بارز في محطات التعبئة الخاصة بهم. والأرجح هو أن الرجال لم يكونوا يعرفون أن ذلك هو الديناصور.

«لقد أمسكوا به هناك في مصر. يبدو أنه كان يتجول هناك ويأكل أضرحة الفراعنة. لديهم صورة له وهو يقوم بذلك. الطبيعة والملح هما ما يصنعان رجلًا قويًا مثل جون الفاتح[1]. فقد كان رجلاً بداخله ملح. وكان يستطيع تنكيه أي شيء».

«نعم لكنه كان رجلًا أكثر من كل الرجال. ليس هناك ما يشبهه. فهو لم يحرث البطاطا، ولم يجرف التبن: لم يتم ضربه، ولم يهرب بعيدًا».

«لكن يمكن لأي شخص آخر أن يصير مثله لو حاول بشكل كافٍ. أنا نفسي، بداخلي ملح. لو أنني كنت أحب لحم الرجال لأكلت واحدًا منهم كل يوم، بعضهم قذر جدًا لذا لن آكلهم».

«يا إلهي، كم أحب أن نتحدث عن جون الفاتح دون أن نخبر الأكاذيب حوله».

ها قد أتت بوتسي، وتيدي وبيغ وومن عبر الشارع وكأنهن يُعلنَ أنهن جميلات من خلال الطريقة التي يمشين بها. كن يملكن ذلك الطعم الجديد حولهن مثل وريقات الخردل الخضراء في فصل الربيع، والشباب على الشرفة كانوا يخبرونهن بذلك، ويشترين لهن الهدايا الصغيرة.

«ها قد أتى طلبي»، أعلن شارلي جونز وقفز خارج الشرفة لمقابلتهن. ولكن كان لديه منافسون كُثر. جميعهم قدموا عرض تدافع وتصادم لإظهار الشهامة. كلهم ترجوا الشابات ليشتروا لهن كل ما يردنه. «أرجوكن دعوهم يشترون لكنّ ما تردنه». توسل جو لكي يبيع كل الحلوى التي في المتجر ويطلب المزيد. وكذلك كل الفستق والمياه الغازية – كل شيء!

---

1- جون الفاتح في الإنجليزية John the Coquer هو أمير أفريقي تم بيعه في أمريكا ولكنه وبذكائه العظيم هرب من أسياده.

«يا فتاة، أنا مجنون بحبك»، استمر شارلي لكي يمتع الجماهير. «سوف أفعل أي شيء لأجلك إلا أن أعمل لأجلك أو أن أعطيك مالي».

ضحكت الفتيات والبقية كلهم. إنهم يعرفون أنه ليس توددًا. إنها مسرحية تودد، والجميع في المسرحية. وقد كانت الفتيات الثلاث يحتللن وسط المسرح حتى أتت ديزي بلانت سائرة في الشارع تحت ضوء القمر.

كانت ديزي تمشي على إيقاع طبل. يمكنك سماعه من خلال النظر إلى طريقة مشيتها. كانت سوداء وكانت تعرف أن الملابس البيضاء تبدو جيدة عليها، لذا فهي ترتديها عندما تتأنق. كانت تمتلك تلك العيون السوداء الكبيرة اللامعة التي تشع مثل المال الجديد وكانت تعرف لمَ أعطى الرب النساء الرموش. شعرها لا يمكن أن نسميه مسترسلًا. كان شعرًا زنجيًا، ولكن به القليل من النكهة البيضاء. مثل قطعة دهن من لحم الخنزير. إنها ليست لحم خنزير على الإطلاق، لكنها كانت موجودة قرب لحم الخنزير واكتسبت النكهة. كان ينتشر سميكًا ثقيلًا على كتفيها وبدا مناسبًا جدًا تحت القبعة البيضاء الكبيرة.

«يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي»، انطلق شارلي جونز نفسه نحو ديزي. «لابد أن هناك عطلة في السماء لذا ترك القديس بطرس ملائكته تخرج بهذا الشكل. لديك ثلاثة رجال يوشكون على إفناء أرواحهم لأجلك. وها هو ذا رجل أحمق آخر مستعد للانضمام إليهم».

كل الرجال العزاب الآخرين التفوا حول ديزي. كانت تتبختر وتحمر خجلًا في نفس الوقت. «لو أنك تعرف أي شخص سيموت بسببي، فإنك بالتأكيد تعرف أكثر مني»، قالت ديزي. «أتمنى لو أعرف من هو».

«تعلمين يا ديزي أن جيم ودايف ولوم يوشكون على قتل بعضهم

بسببك. لا تقفي هناك وتخبرينا أن هذا ليس صحيحًا».

«لابد أنهم كتومون جدًا لو أن الأمر هكذا. لم يخبروني أي شيء قط».

«أنت تتسرعين يا حلوة. ها هما جيم ودايف على الشرفة، ولوم داخل المتجر».

ضحكة كبيرة على خيبة ديزي. كان على الأولاد أن يمثلوا تنافسهم أيضًا. لكن هذه المرة، عرف الجميع أن هناك حقيقة في ذلك. ولكن كالعادة استمتع كل من بالشرفة بالمسرحية وساعدوا كلما كانت هناك حاجة لذلك.

قال دافيد: «جيم لا يحب ديزي. لا يحبها كما أفعل».

هدر جيم بسخط: «من الذي لا يحب ديزي؟ أعرف أنك لا تتحدث عني».

دايف: «حسنًا، دعنا نثبت هذا الأمر في الحال. سوف نثبت في الحال من يحب هذه الفتاة أكثر. كم من الوقت بإمكانك أن تسجن لأجل ديزي؟»

جيم: «عشرون عامًا!»

دايف: «أترين؟ أخبرتك أن هذا الزنجي لا يحبك. أنا سوف أتوسل القاضي ليعدمني، ولن أقبل بأي شيء أقل من حياتي».

كان هناك ضحكة كبيرة انطلقت من الشرفة. ومن ثم طالب جيم باختبار.

«دايف، كم بإمكانك أن تقدم لديزي إذا صارت حمقاء بما فيه الكفاية لتتزوج منك؟»

«ستتحدث أنا وديزي عن ذلك، ولكن لو كان عليك أن تعرف فسوف أشتري لديزي قطارًا وأهبه لها».

«هاه! أهذا كل شيء؟ سوف أشتري لها باخرة وأستأجر بعض الرجال ليقودوها لأجلها».

«ديزي، لا تدعي جيم يخدعك بالكلام. لن يقوم بأي شيء لأجلك. باخرة صغيرة هاه! ديزي، سوف أخذك عبر المحيط الأطلنطي في أي وقت تريدينه». انطلقت ضحكة كبيرة صمت بعدها الجميع ليسمعوا.

«ديزي»، بدأ جيم، «أنت تعرفين قلبي وكل نطاقات عقلي. وتعرفين أنني لو كنت أحلق بطائرة فوق السحاب ونظرت ورأيتك تمشين، وعرفت أنك يجب أن تمشي عشرة أميال لتصلي إلى المنزل فسوف أعيد تلك الطائرة أدراجها فقط لأتمشى معك حتى المنزل».

كانت هناك إحدى تلك الضحكات الصاخبة وكان جاني تضحك بقوة. ثم أفسد جودي الأمر عليها.

جاءت السيدة بوغل خلال الشارع نحو الشرفة. السيدة بوغل حملت لقب جدة لعدة مرات، ولكنها كانت تملك غيمة من الدلال حولها، تغطي خديها الغائرين. بإمكانك رؤية مروحة مرفرفة قبالة وجهها وماغنوليا مزهرة وبحيرات هادئة تحت ضوء القمر عندما تسير. لم يكن هناك سبب واضح لذلك، كان الأمر كذلك فقط. زوجها الأول كان جوقيًا لكنه «درس ليصبح محلفًا» للفوز بها. وفي النهاية صار واعظًا لكي يبقيها إلى جانبه حتى وفاته. كان زوجها الثاني يعمل في بستان فوهينس للبرتقال، ولكنه حاول أن يعظ عندما رأى عينيها. ولم يتقدم أبعد من أن يكون زعيم فئة، ولكن هذا كان شيئًا ليقدمه لها. شيء يثبت حبه واعتزازه. كانت رياحًا من المحيط. كانت تحرك الرجال، ولكن الدفة تقرر الميناء. لذا فقد شنت الليلة هجومها وظل الرجال يراقبونها حتى توارت خلف الباب.

«يا إلهي جاني»، قال ستاركس بنفاذ صبر، «لم لا تذهبين لتري ما تريده السيدة بوغل؟ ما الذي تنتظرينه؟»

أرادت جاني أن تسمع باقي المسرحية وكيف ستنتهي، لكنها نهضت متجهمة ودخلت للمتجر. وكان عدم الرضا مكتوبًا على جميع أنحاء وجهها. رآها جو وزاد غضبه هو أيضًا.

اقترض جيم واتسون عشرة سنتات، وسرعان ما تضرع لديزي بصوت عالٍ لتشتري هدية صغيرة على حسابه. وأخيرًا وافقت على أخذ قدم خنزير مخلل على حسابه. كانت جاني تحضر طلبية كبيرة عندما جاء، لذلك فقد ساعدهما لوم. وذهب إلى حيث وضع البرميل ولكنه عاد دون قدم خنزير.

«لقد اختفت أقدام الخنزير كلها يا سيدة ستاركس!» نادى لوم.

«لا لم ينتهوا يا لوم. لقد أحضرت برميلًا مليئًا بها من جاكسونفيل. أتت الطلبية في الأمس». أتى جو ليساعد لوم في البحث عنها ولكنه لم يجد البرميل الجديد أيضًا، لذلك فقد ذهب ليبحث في اللوح المعلق على مكتبه عن جدول الطلبيات.

«أين آخر فاتورة استخرجتها يا جاني؟»

«إنها هناك على اللوح أليس كذلك؟»

«لا إنها ليست هنا. لو أنك صرفت عقلك عما يحدث في الشارع وركزتِ انتباهك على عملك لربما تمكنت من إنجاز شيء بشكل صحيح في بعض الأحيان».

«ابحث جيدًا يا جودي. هذه الفاتورة لم تختفِ في أي مكان. لو أنها ليست معلقة على اللوح فلابد أنها على مكتبك. سوف تتمكن من إيجادها لو بحثت قليلًا».

«بوجودك هنا سأضطر دومًا إلى البحث. لقد أخبرتك عدة مرات أن تعلقي الأوراق اللعينة على اللوح! كل ما عليك فعله هو الاستماع لما أقوله. كيف لا تفعلينها كما أطلب منك؟»

«بالتأكيد تحب أن تأمرني بفعل الأشياء، لكنك لا تستمع أبدًا إلى رأيي!»

«ذلك لأنك تحتاجين لأن تؤمري»، قال مجادلًا. «سوف يكون الأمر سيئًا لو لم أفعل. على شخص ما أن يفكر لأجل النساء والأطفال والدجاج والأبقار. يا إلهي، فهم لا يفكرون بمفردهم بالتأكيد».

«أنا أعرف بعض الأشياء، ومنها أن معشر النساء يفكرن بأنفسهن أحيانًا!»

«أنهن لا يفعلن. إنهن يعتقدن أنهن يفكرن. عندما أرى شيئًا واحدًا أستوعب عشرًا. وأنت ترين عشرة أشياء ولا تستوعبين شيئًا واحدًا».

مثل هذه الأوقات والمواقف تجعل جاني تفكر في حال زواجها. كانت هناك أوقات ترد بقوة من خلال لسانها، ولكن ذلك لم يفدها كثيرًا. لأن هذا يجعل جو يتمادى أكثر. إنها يريد إخضاعها ويستمر في الشجار حتى يحصل عليه.

لذلك تدريجيًا كانت تضغط أسنانها معًا، وتعلمت الصمت. روح الزواج غادرت غرفة النوم وخرجت لتعيش في الصالون. كانت هناك للمصافحة كلما جاء ضيوف للزيارة، ولكنها لم تعد إلى داخل غرفة النوم مرة أخرى. لذا فقد وضعت شيئًا هناك لتمثيل الروح مثل صورة السيدة مريم العذراء في الكنيسة. لم يعد السرير حقل الأقحوان الذي تلعب فيه هي وجو. كان المكان الذي تذهب إليه لتستلقي عندما تكون ناعسة وتعبة. لم تكن تتفتح كبتلة معه بعد الآن. كانت قد بلغت الأربعة وعشرين عامًا ومتزوجة منذ سبع

سنوات عندما أدركت الأمر. عرفت ذلك في يوم من الأيام عندما صفعها في المطبخ. حدث ذلك خلال أحد تلك الأعشية التي تهفو النسوة ولا يعددنها بشكل جيد. فهن يخططن ويصلحن الأخطاء، وبعد ذلك تأتي الشرور التي تعيش في المطبخ لتضع المذاقات السيئة في القدور والمقالي. كانت جاني طباخة جيدة، وكان جو يتطلع إلى عشاءه كملاذ آمن من الأمور الأخرى. لذا عندما لم ينتفخ الخبز، ولم تنضج الأسماك تمامًا، واحترق الأرز، صفع جاني حتى أحست بطنين في أذنيها وأخبرها أن تستخدم عقلها قبل أن يعود غاضبًا إلى المتجر.

وقفت جاني حيث تركها لفترة طويلة تفكر. وقفت هناك حتى سقط شيء من على الرف داخلها. ذهبت إلى الداخل لمعرفة ما كان ذلك. كانت الصورة التي كوّنتها عن جودي قد هوت هناك وتحطمت. ولكن بالنظر إليها رأت أنها لم تكن الشكل الحي في أحلامها. مجرد شيء كانت قد أمسكته لتعلق أحلامها فوقه. بطريقة ما أدارت ظهرها للصورة وبدأت تنظر بعيدًا عنها. لم تعد نثارات من غبار الطلع تتناثر على رجلها، ولا أي فاكهة نضرة لامعة اعتادت عليها. لقد وجدت أن لديها مجموعة من الأفكار التي لم تعرب عنها أمامه قط، والعديد من العواطف التي لم تدع جودي يعرف بشأنها. أشياء معبأة وموضوعة بعيدًا في أجزاء من قلبها حيث لن يمكنه أبدًا العثور عليها. كانت تحتفظ بمشاعرها لرجل لم تره من قبل. كان لديها داخل وخارج الآن، وفجأة عرفت كيف لا تمزجها.

استحمت وارتدت ثوبًا جديدًا وغطت رأسها وذهبت إلى المتجر قبل أن يرسل جودي في طلبها. كانت هذه طريقتها لإبعاد تفكيرها عن كل الأشياء.

كان جودي على الشرفة وكانت الشرفة مليئة بسكان إيتونفيل كما هو معتاد في مثل هذا الوقت من اليوم. كان يغوي السيدة توني روبنز كما كان

يفعل دائمًا عندما تأتي إلى المتجر. كان باستطاعة جاني أن ترى جودي يراقبها من زاوية عينه بينما يمازح السيدة روبنز. أراد أن يكون وديًا معها مرة أخرى. فضحكته الكبيرة، الكبيرة جدًا كانت لأجلها ولأجل الإغواء على حد سواء. كان يتشوق للصلح ولكن بشروطه.

«يا إلهي يا سيدة روبنز ما الذي جعلك تأتين إلى هنا لتقلقينني بينما أقرأ صحيفتي؟» أنزل العمدة ستاركس الصحيفة بضجة متعمدة.

عدلت السيدة روبنز وقفتها المثيرة للشفقة وتحدثت بطريقة متصنعة. «لأنني جائعة يا سيد ستاركس. أنا وأطفالي جوعى. توني لا يطعمني!»

هذا ما كان ينتظره جميع من بالشرفة. وانفجروا بعدها بالضحك.

«سيدة روبنز كيف يمكنك أن تأتي لتعلني أنك جائعة بينما يأتي توني إلى هنا كل يوم سبت ويشتري البضائع مثل أي رجل؟ عار عليكِ».

«لو كان يشتري كل ما تتحدث عنه يا سيد ستاركس، فالرب وحده يعلم ما الذي يفعله به. فهو بالتأكيد لا يحضره إلى المنزل، وأنا وأطفالي المساكين جوعى! سيد ستاركس، أرجوك أعطني قطعة صغيرة من اللحم لي ولأطفالي».

«أنا أعرف أنك لا تحتاجينها، ولكن تعالي إلى الداخل. فلن تدعينني أكمل قراءة الصحيفة حتى أعطيها لك».

كانت نشوة السيدة روبنز سماوية. «شكرًا لك سيد ستاركس. أنت نبيل! أنت أكثر رجل لبق رأته عيني. أنت ملك!»

كان صندوق لحم الخنزير المملح في الجزء الخلفي من المتجر، وأثناء سيرها كانت السيدة توني متحمسة لدرجة أنها كانت تدوس كعب حذاء جو في بعض الأحيان، وأحيانًا كانت تمشي أمامه بلهفة. تمامًا مثل القط الجائع

عندما يقترب منه شخص ليقدم له اللحم. يجري قليلًا، يلاطف قليلًا وفي معظم الوقت يطلق صرخات إلحاح صغيرة.

«نعم بالتأكيد سيد ستاركس، أنت نبيل. فأنت تتعاطف معي ومع أطفالي. توني لا يعطينا شيئًا لنأكله ونحن جوعى. توني لا يطعمني!»

وعندما وصلوا إلى قسم اللحوم. أخذ جو سكينًا كبيرة واختار قطعة من اللحم ليقطعها. وكانت السيدة توني ترقص بفرح حوله.

«هذا صحيح يا سيد ستاركس! أعطني قطعة بهذا الحجم». ومدت يدها ومعصمها لأقصى حد ممكن. «أنا وأطفالي جوعى جدًا».

لم يلقِ ستاركس نظرة إلى قياساتها، فقد رآها مرات عدة. علّم قطعة أصغر وغرز فيها النصل. سقطت السيدة توني على الأرض بألم. «رحمتك يا القدير! أنت لن تعطني هذا القطعة الصغيرة جدًا لي ولأولادي، أليس كذلك؟ يا رب، نحن جوعى جدًا».

قطع ستاركس اللحم وبحث عن ورق للتغليف. قفزت سيدة توني من طاولة قسم اللحوم وكأنها أفعى.

«أه أنا لن ألمسها! قطعة اللحم الصغيرة تلك لي ولأطفالي جميعًا! يا أيها القدير، بعض الأشخاص يملكون كل شيء ولكنهم بخلاء ولئيمون!»

تصنع ستاركس أنه سيعيد قطعة اللحم مكانها مرة أخرى فهرعت السيدة توني كالبرق وخطفتها، وتوجهت نحو الباب.

«بعض الرجال لا يملكون قلوبًا داخلهم. بإمكانهم أن يروا امرأة فقيرة وأولادها يتضورون جوعًا حتى الموت. الرب سوف يقبض عليهم في أحد الأيام، بسبب بخلهم».

خطت خارج شرفة المتجر وسارت بعيدًا بغضب! ضحك البعض وشعر البعض بالغضب.

«لو كانت تلك زوجتي»، قال والتر توماس، «كنت سأقتلها».

«خاصة بعد أن اشتريت لها كل شيء يمكن أن يوفره راتبي، كما يفعل توني»، قال كوكر. «في البدء لن أنفق على امرأة ما ينفقه توني عليها».

عاد ستاركس وجلس في كرسيه. كان عليه أن يتوقف ويضع اللحم في حساب توني.

«حسنًا، لقد طلب مني توني مجاراتها. لقد نقلها من الولاية أملًا في أن تتغير، ولكن ذلك لم يحدث. لقد قال إنه لا يحتمل تركها ويكره أن يقتلها، لذا ليس هناك شيء ليفعله سوى مجاراتها».

«ذلك لأن توني يحبها جدًا»، قال كوكر. «بإمكاني تكسير عظمها لو كانت زوجتي. سوف أكسر عظمها أو أقتلها. أن تجعلني أضحوكة أمام الناس بهذا الشكل!».

«توني لن يضربها أبدًا. فهو يقول إن ضرب المرأة يشبه دهس كتكوت صغير. ويقول إن ليس هناك مكان في جسد المرأة يجب أن يضرب»، قال جو ليندسي بعدم اتفاق مزدرٍ، «بوسعي أن أقتل طفلًا ولد هذا الصباح بسبب موقف كهذا. ليس هناك شيء يجعلها تفعل مثل هذه الأشياء سوى حقدها على زوجها».

«هذه حقيقة إلهية»، وافق جيم ستون. «هذا هو السبب تحديدًا».

فعلت جاني ما لم تفعله من قبل، وهو أن تتدخل في المحادثة.

«أحيانًا يقترب منا الرب نحن معشر النساء أيضًا ويخبرنا عما يختلج

داخله. لقد أخبرني عن مدى دهشته من تذاكيكم حول خلقه لكم بطريقة مختلفة؛ وكم ستتفاجئون جميعكم لو أدركتم أنكم لا تعرفون عن النساء نصف ما تدعون معرفته. إنه لمن الطبيعي أن تقارن نفسك بعظمة الرب عندما لا يكون لديك شيء لتظهر قوتك أمامه سوى النساء والدجاج».

«أنت تكثرين من الكلام يا جاني»، قال لها ستاركس. «اذهبي واجلبي لي لوح لعبة الداما. تعال يا سام واتسون لتلاعبني».

# 7

سحبت السنوات الروح القتالية عن وجه جاني. ولفترة ظنت أنها خرجت من روحها أيضًا. أي كان ما يفعله جودي فهي لا تقول شيئًا. تعلمت كيف تقول أشياء وتسكت عن قول أشياء أخرى. كانت أخدودًا. كانت حياة كبيرة تحت السطح لكنها أبقيت مدفونة بسبب العجلات. في بعض الأحيان تلقي نظرة على المستقبل، متخيلة حياتها مختلفة عما هي عليه. ولكن غالبًا ما تعيش بين قبعتها وحذائها ذي الكعب العالي، مع اضطراباتها العاطفية كأنماط الظل في الغابة- تأتي وتذهب مع الشمس. لم تحصل على شيء من جودي سوى ما يمكن أن يشتريه المال، وكانت تتخلى عما لم تعطه قيمة.

مجددًا، فكرت في طريق ريفي عند شروق والشمس وفكرت في رحلة. إلى أين؟ نحو ماذا؟ ومجددًا، اعتبرت سن الخامسة والثلاثون هي السبعة عشر مضروبة في اثنين، ولم يعد أي شيء كما كان مرة أخرى.

«ربما ليس شيئًا يذكر»، حذرت نفسها، «ولكن لذلك مذاق في فمي. يجب أن يكون كذلك وإلا لن يكون هناك شيء لأعيش لأجله. سوف أكذب وأقول إنه كذلك. لأنني لو لم أفعل، فالحياة لن تكون سوى متجر ومنزل».

لم تكن تقرأ الكتب لذلك لم تكن تعرف أنها العالم، وأن السماوات تغلي للهطول. وأن رجلًا يحاول الصعود إلى ارتفاعات غير مؤلمة من تلة الروث خاصته.

ثم في أحد الأيام جلست وشاهدت ظل نفسها يسير نحو المتجر ويسقط

 

قبالة جودي، بينما كانت جالسة طوال الوقت تحت شجرة ظليلة والرياح تهب خلال شعرها وملابسها، كشخص يوشك على خلق الصيف من الوحدة.

كانت هذه المرة الأولى التي يحدث فيها الأمر، ولكن بعد وهلة أصبح معتادًا حتى أنها توقفت عن الاندهاش. كان مثل المخدر. بشكل ما كان جيدًا لأنه يجعلها تتوافق مع الأشياء. وكلما فعلت ذلك أصبحت تتلقى كل الأشياء ببلاهة من الأرض التي تسرب البول والعطور بنفس اللامبالاة. ذات يوم لاحظت أن جو لا يجلس. بل يقف فقط أمام كرسي ويسقط عليه. جعلها ذلك تنظر إليه بكليته. لم يعد جو شابًا كما اعتاد أن يكون. كان هناك بالفعل شيء ميتٌ حياله. لم يعد ينزل على ركبتيه لفترة طويلة. وصار يربض على كاحليه عندما يمشي. ذلك الجمود على الجزء الخلفي من رقبته. وبطنه المزدهرة التي اعتادت أن ترهب الناس أصبحت متدلية مثل حمل معلق من حقويه. ولم تعد تبدو كجزءٍ منه بعد الآن. وعيناه كانتا غائبتين قليلًا.

لابد أن جودي لاحظ الأمر كذلك. ربما لاحظه قبل جاني بوقت طويل، وكان خائفًا من أن تلحظه. لأنه أصبح يتحدث عن عمرها طوال الوقت، كما لو أنه لم يردها أن تظل صغيرة بينما يتقدم هو بالعمر. كان الأمر دائمًا على شاكلة، «من الأفضل أن تضعي شيئًا على كتفيك قبل أن تخرجي. فأنت لست فتاة صغيرة بعد الآن».

«أنت دجاجة كبيرة الآن». نادها في أحد الأيام خارج ملعب الكركيت. «هذه لعبة للشباب يا جاني، أنت تتقافزين هنا وهناك وغدًا لن تستطيعي النهوض من الفراش». لو ظن أنه يخدعها، فهو مخطئ. لأول مرة كان باستطاعتها رؤية رأس رجل عارٍ من جمجمته. لقد شاهدت الأفكار الماكرة تتسابق خلال كهوف ونتوءات عقله قبل وقت طويل من اندفاعها خارج

نفق فمه. رأت أنه كان يتألم من الداخل لذا فقد مررت كل تلك الأشياء بصمت. لقد قدرت له وقتًا بسيطًا ووضعته جانبًا في الانتظار.

أصبحت الأمور عصيبية جدًا في المتجر. فكلما صار ظهره يستحكه أكثر وكلما تحولت عضلاته إلى شحوم وذابت الشحوم من عظامه، أصبح نكدًا أكثر تجاه جاني. خاصة في المتجر. وكلما كان الناس هناك أكثر سخر من جسدها أكثر ليصرف الانتباه عن جسده. لذا في أحد الأيام أراد ستيف ميكسون بعض تبغ المضغ، وقطعته جاني بشكل خاطئ. كانت تكره سكين التبغ تلك على كل حال. فهي عنيدة جدًا. لم تستطع التحكم بالسكين وقطعت بعيدًا عن العلامة التي يفترض أن تقطع عندها. لم يهتم ميكسون. ولكنه حمل التبغ عاليًا ليغيظ جاني قليلًا.

«انظر يا أخي العمدة ما فعلته زوجتك». كان التبغ مقطوعًا بطريقة هزلية، لذا فقد ضحك الجميع حول الأمر. «النساء والسكاكين – ليس هناك نوع من السكاكين يناسب النساء». واستمر الضحك حول طرق النساء.

لم يضحك جودي. بل هرع من جانب مكتب البريد وأخذ قطعة التبغ من ميكسون وقطعها مجددًا. قطعها عن العلامة المحددة تمامًا وحملق نحو جاني غاضبًا.

«تظل المرأة تعمل في المتجر حتى تصل إلى عمر متوشالخ[1] ولا تزال غير قادرة على قطع شيء صغير كالتبغ! لا تقفي هناك وتحملقي فيّ بمؤخرتك المتدلدلة حتى ركبتيك!»

---

1- متوشالخ (بالعبرية: מְתוּשֶׁלַח / מְתוּשָׁלַח) ابن إدريس ووالد لامك وجدّ نوح، توفي عن عمر يناهز ال ٩٦٩، قبل سبعة أيام من بداية الطوفان العظيم. ووفقًا للراشي على سفر التكوين ٧:٤، تأخر الفيضان لسبعة أيام على وجه التحديد للحداد على شرف متوشالخ الصالح.

ضحكة كبيرة انفجرت في المتجر إلا أن الناس بدأوا في التفكير في الأمر وتوقفوا عن الضحك. كان الأمر مضحكًا لو نظرت إليه بعجالة، ولكنه مؤلم لو فكرت فيه لبعض الوقت. الأمر يشبه شد أحدهم لملابس امرأة بينما لم تكن منتبهة أثناء اكتظاظ الشارع بالناس. حينها، وقفت جاني في منتصف المتجر لتتحدث مع جودي وجهًا لوجه، وكان هذا شيئًا لم يحدث مسبقًا.

«توقف عن خلط أفعالي بشكلي يا جودي. عندما تخبرني بوضوح عن كيفية تقطيع التبغ، عندها يمكنك أن تخبرني ما إذا كانت مؤخرتي معتدلة أم لا».

«ما الذي تقولينه يا جاني؟ لابد أنك جننت».

«لا لم أجن».

«لابد أنك كذلك، وأنت تتحدثين بهذه اللهجة».

«أنت من بدأت بالتحدث عما تحت ملابس الناس وليس أنا».

«ما هي مشكلتك؟ أنت لست فتاة صغيرة لتنزعجي لما يقال عن مظهرك. أنت لست فتاة ريفية صغيرة. أنت امرأة كبيرة، اقتربتِ من الأربعين».

«نعم لقد اقتربت من الأربعين وأنت تعديت الخمسين. لم لا تتحدث عن هذا عوضًا عن أن توجه هذا الحديث دومًا لي؟»

«ليس هناك فائدة من الغضب لأنني ذكرت أنك لست فتاة صغيرة بعد الآن يا جاني. لا أحد هنا يبحث عن زوجة. بالأخص كبيرة مثلك».

«نعم أنا لست فتاة صغيرة بعد الآن ، لست امرأة مسنة كذلك. وأعتقد أنني أبدو بسني الحقيقي فعلًا. لكنني امرأة في كل جزء مني، وأعرف ذلك. وهذا أكثر بكثير مما بوسعك قوله. تتفاخر بمعدتك الكبيرة هنا، ولكن لا

شيء فيها سوى صوت. هاه! وتتحدث عن كوني مسنة! عندما تنزع بنطالك تبدو الحياة نفسها منزوعة هناك».

«يا إله صهيون!» قال سام واتسون لاهثًا. «إنكما تتبادلان الإهانات بقوة اليوم».

«ما – ماذا قلتِ؟» تحداها جو، متمنيًا أن تكون أذناه قد خدعتاه.

«لقد سمعتها، أنت لست أعمى»، قال والتر مستهزأً. «أفضل أن يطلق عليّ الرصاص عن أن أسمع هذا عن نفسي»، قال ليغ موس برثاء.

عندها أدرك جو ستاركس كل معاني كلامها نزف غروره مثل الفيضان. لقد سرقت منه جاني وهم الذكورة التي لا تقاوم والتي يعتز به جميع الرجال، وقد كان ذلك فظيعًا. الشيء ذاته الذي فعلته ابنة شاول لداود. ولكن جاني فعلت ما هو أسوأ، لقد ألقت سلاحه الفارغ أمام الرجال وضحكوا، وسوف يستمرون في الضحك. وعندما سيجلب ممتلكاته إلى الآخرة، لن يكونا هما الاثنان معًا. سوف ينظر الناس بعين الحسد إلى تلك الأشياء ويشفقون على الرجل الذي يملكها. وعندما يجلس للحساب سيكون الأمر مشابهًا. حتى أن الحمقى غير المفيدين مثل ديف ولوم وجيم لن يستبدلوا مكانهم معه. لأنه ليس هناك ما يمكن أن يبرر الرجل في عيون الرجال الآخرين عندما يفقد قوته؟ سوف يمنحه المراهقون الذين في السادسة عشرة والسابعة عشرة نظرات شفقة لا ترحم من عيونهم بينما تقول أفواههم شيئًا متواضعًا. لم يعد هناك شيء للقيام به في الحياة بعد الآن. كان الطموح بلا جدوى. كذلك خداع جاني القاسي! وهي تقدم عرض التواضع ذلك بينما في داخلها تحتقره طوال الوقت! وتضحك في وجهه، والآن المدينة كلها تفعل الشيء نفسه. لم يجد جو ستاركس كلمات لكل هذا، ولكنه كان يعرف هذا الشعور. لذا فقد ضرب جاني بكل قوته ودفعها خارج المتجر.

# 8

بعد تلك الليلة نقل جودي أغراضه ونام في غرفة في الأسفل. لم يكن يكره جاني حقًا، لكنه أرادها أن تعتقد ذلك. لقد زحف ليلعق جراحه. لم يكونا يتكلمان كثيرًا في المتجر أيضًا. أي شخص لم يكن يعرف كان ليظن أن الأمور قد هدأت، بدت الأجواء هادئة وسلمية. ولكن السكون كان نوم السيوف. بينما كانت الأفكار الجديدة تتشكل والكلمات الجديدة تنطق. لم تكن جاني تريد أن تعيش بهذا الشكل. لماذا يجب أن يغضب جو لأنها أحرجته بينما يفعل هو ذلك بها طوال الوقت؟ يفعله منذ سنوات. حسنًا، لو كان عليها أن تتعايش مع هذا الوضع الجديد فليكن. قد يتخلى جودي عن غضبه ويبدأ بالتعامل معها بشكل مختلف.

حينها أيضًا لاحظت كم صار جو بدينًا. كان يبدو مثل أكياس تتدلى من طاولة الكي. كيس صغير يتدلى من زوايا عينيه ويرتاح على خديه؛ حقيبتان مليئتان بالريش معلقتان من أذنيه وترتاحان على عنقه تحت ذقنه. كيس من شيء مترهل معلق من حقويه ويستريح على فخذيه عندما يجلس. ولكن حتى هذه الأشياء كانت تتراخى مثل شحوم الشمع مع مرور الوقت.

أنشأ جو تحالفات جديدة أيضًا. الناس الذين لم يهتم بهم مطلقًا بدأ الآن يرخي أذنه لهم. كان دائمًا يستكبر من أطباء الأعشاب بكل أنواعهم، ولكنها أصبحت ترى الآن إلى نصابًا من ينابيع التامونتي، يتسكع في المكان بشكل شبه يومي. يتحدث دائمًا بصوت منخفض عندما تقترب، أو يصمت تمامًا. لم تكن تعرف أنه كان مدفوعًا بأمل يائس لإظهار جسده القديم أمامها مجددًا.

كانت متضايقة بسبب طبيب الأعشاب لأنها كانت تخشى أن يعتمد جو على وغد لجعله يصبح بصحة أفضل بينما ما كان يحتاجه هو طبيب، طبيب جيد. كانت قلقة بشأنه لأنه لا يأكل وجباته، حتى اكتشفت أنه كان يجعل السيدة ديفيس تطهو الطعام له. كانت تعرف أنها طاهية أفضل بكثير من تلك المرأة العجوز، وأنظف منها في المطبخ. لذا فقد اشترت لحم البقر وحضرت له بعض الحساء.

«لا، شكرًا لكِ»، قال لها باختصار. «فأنا أمر بوقت عصيب لكي أتحسن من الأساس».

اندهشت في البدء وأحست بالألم بعدها. لذا مضت مباشرة إلى صديقتها الحميمة فيبي واتسون، وأخبرتها عن الأمر.

«أفضل أن أموت عوضًا عن أن يفكر جو في أنني سأؤذيه»، قالت لفيبي. «لم يكن الأمر ممتعًا دائمًا لأنك تعرفين كم يقدس جو ما يفعله بيديه، ولكن الرب في سماواته يعرف أنني لن أفعل أي شيء لأؤذي أي أحد. إنه أمر خبيث ولئيم».

«أعتقد أن الأشياء يمكن أن تموت يا جاني دون أن تعرفي شيئًا عنها، ظل أمركما يتناقل منذ تلك المشاجرة في المتجر».

«لقد ظننت لوقت طويل أن بعض الأمور تظل على حالها، لكن هذا - أه يا فيبي! ماذا يمكنني أن أفعل؟»

«ليس بيدك شيء سوى أن تدعي أنك لا تعرفين ما يحدث. لقد تأخر الوقت بالنسبة لكما لطلب الطلاق. فقط عودي إلى منزلك وأجلسي على مؤخرتك الملوكية ولا تقولي أي شيء. لن يصدق أحد الأمر على أي حال».

«عشتُ مع جودي عشرين عامًا ويظن الآن أنني أريد تسميمه! هذا

يقتلني يا فيبي. الحزن يلاحق بالحزن في قلبي».

«ذلك الزنجي القذر الذي يدعو نفسه طبيبًا أدخل الأمر كله في رأسه ليتقرب منه. لقد رأى أنه مريض - الجميع كان يعرف ذلك منذ وقت طويل، ولابد أنه سمع الجميع يتكلمون عن الأمر، وانتهز فرصته. في الصيف الماضي كان هذا الصرصور هنا يحاول أن يبيع السلاحف».

«أنا لا أستطيع أن أستوعب يا فيبي أن جودي يصدق هذه الكذبة حتى. إنه لا يصدقه بالفعل. إنه فقط يفعل ذلك ليؤلمني. وأنا أوشك على الموت بسبب الوقوف صامتة ومحاولة الابتسام».

كانت تبكي كثيرًا في الأسابيع اللاحقة. صار جو مريضًا جدًا والتزم فراشه. ولكنه لم يسمح لها بالدخول إلى غرفته. كان الناس يدخلون ويخرجون من منزله. كان هذا وذاك يأتون إلى منزلها مع أطباق مغطاة دون وضع أدنى اعتبار بأنها زوجة جو. الناس الذين لم يكونوا يحلمون بعبور فناء العمدة ما لم يكن هناك عمل وضيع ليقوموا به صاروا الآن يدخلون ويخرجون كأصدقائه المقربين. كانوا يأتون إلى المتجر ويراقبون كل ما تفعله لكي يعودوا له بالتقرير في المنزل. يقولون أشياء من قبيل. «السيد ستاركس يحتاج لمن يرعاه حتى يقف على قدميه مرة أخرى».

لكن جودي لم يكن لينهض على قدميه مرة أخرى. كانت جاني تجند سام واتسون ليجلب لها الأخبار من غرفة مرضه، وعندما أطلعها على سير الأمور، أمرته بإحضار طبيب من أورلاندو دون أن تعطي فرصة لجو للاعتراض، ودون أن تخبره أنها أرسلت في طلبه.

«إنها فقط مسألة وقت»، قال الطبيب. «عندما تتوقف كبد رجل عن العمل بشكل نهائي، ليس هناك طريقة ليعيش بها. كان يحتاج إلى رعاية طبية

منذ عامين. فات الأوان الآن».

هكذا بدأت جاني بالتفكير في الموت. الموت، ذلك الكائن الغريب ذو الأصابع المربعة الضخمة الذي يعيش حاليًا في الغرب. العظيم الذي يعيش في منزل يبدو كمنصة دون جانبين، دون سقف. ما يحتاجه الموت هو غطاء، وما تجلبه الرياح ضده؟ كان يقف في منزله العالي ويطل على العالم. يقف بلا حراك طوال اليوم مع سيفه مسلولًا إلى الوراء، في انتظار الرسول ليأمره بالقدوم. كانت تظن أنها ستعثر على ريشة من جناحيه في فناء منزلها في أي يوم الآن. كانت حزينة وخائفة جدًا. جودي المسكين! لا ينبغي أن يصارع هناك بنفسه. أرسلت سام إليه لاقتراح زيارة، لكنه رفض. كان يعتقد أن أولئك الأطباء كانوا على حق بخصوص المرضى الآخرين، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن حالة مماثلة لحالته. فهو سيكون بخير حالما يجد طبيب الأعشاب ما تم دفنه لأذيته. لن يموت على الإطلاق. كان هذا هو ما يعتقده. ولكن سام أخبرها بأمر مختلف، لذلك عرفت. ثم لو أنه لم يخبرها حتى، فقد كانت ستعرف في صباح اليوم التالي، عندما بدأ الناس يتجمعون في الساحة الكبيرة تحت ظل النخيل وأشجار التوت. الناس الذين لم تلمس أقدامهم المكان من قبل، قرفصوا تحت الشجرة وانتظروا. الشائعات كانت تقول إن الطيور المجنحة ظهرت في البلدة.

لقد استيقظت في ذلك الصباح بعزيمة راسخة للذهاب إلى هناك وإجراء محادثة مع جودي. لكنها جلست لوقت طويل بينما تزحف الجدران نحوها. أربعة جدران تخنقها. فكرة أن يفارق الحياة بينما تجلس مضطربة في الأعلى وترتها لذا فقد كانت داخل غرفته قبل أن تلتقط أنفاسها حتى. أحست بشيء كقدم الثور في لسانها، وعندها أيضًا رمقها جودي، لا جو، بنظرة غاضبة. نظرة مملوءة بكل برودة العالم الخارجي. كان عليها أن تتحدث إلى ذلك الرجل

الذي كان بعيدًا عنها جدًا. كان راقدًا على جنبه متوجهًا نحو الباب كأنه كان ينتظر شخصًا أو شيئًا ما. كانت هناك نظرة مختلفة في عينيه. نظرة متعبة ولكنها ثاقبة في الوقت ذاته. خلال اللحاف كان بإمكانها رؤية ما تبقى من معدته ملقاة أمامه على السرير مثل شيء بائس يبحث عن ملجأ.

ثياب المرض الرثة آلمتها على حال جودي. فقد كان دومًا نظيفًا جدًا.

«ما الذي تفعلينه هنا يا جاني؟»

«لقد أتيت لأطمئن عليك».

أطلق صوتًا هادرًا مثل خنزير يغرق في مستنقع ويحاول الابتعاد باضطراب. «لقد أتيتُ إلى هنا لأبتعد عنك ولكن يبدو أن هذا لا يفيد. أخرجي يا جاني. أحتاج لأن أرتاح».

«لا يا جودي، لقد أتيت إلى هنا لأتحدث معك وسوف أفعل. أنا أتحدث لأجل مصلحتنا نحن الاثنين».

أطلق صوتًا هادرًا مرة أخرى وارتاح على ظهره.

«ربما لم أكن زوجة جيدة بما فيه الكفاية لأجلك يا جودي، لكن يا جودي-».

«ذلك لأنك لا تحسين بأي شيء تجاه أي أحد. يجب أن تملكي بعض الرأفة داخلك. أنت لست خنزيرًا».

«لكن يا جودي، لقد قصدت أن أكون لطيفة».

«برغم كل ما فعلته لأجلك. تسخرين مني بشكل علني. دون أي تعاطف!»

«لا يا جودي لم يكن ذلك لأنني لا أملك رأفة. لدي وفرة من الرأفة.

لكنني لم أحظ بفرصة أبدًا لاستخدامها. لم تكن تسمح لي».

«هذا صحيح، ألقي اللوم عليّ بسبب كل شيء. لم أدعك تظهرين أي مشاعر! متى يا جاني؟ كان هذا كل ما أردته دومًا وحلمت به. والآن تأتين لتلومينني!»

«الأمر ليس بهذا الشكل يا جودي. أنا لم أتِ إلى هنا لألوم أي شخص. أنا أحاول فقط أن أجعلك تعرف من أنا قبل أن يفوت الأوان».

«يفوت الأوان؟» همس والتوت عيناه في رعب شديد، ورأت الدهشة الفظيعة في وجهه وأجابت.

«نعم يا جودي، لا تهتم بما يخبرك به ذلك الصرصور المتلاعب لكي يحصل على مالك، فأنت سوف تموت ولا شيء بإمكاننا فعله حيال هذا».

تنهيدة عميقة خرجت من جسد جودي الضعيف. كانت مثل ضرب طبل في بيت دجاج. ثم تصاعدت عالية مثل ترومبون.

«جاني! جاني! لا تخبريني أنني سأموت، أنا لم أعتد على التفكير في هذا الأمر».

«لم تكن ستموت يا جودي لو أنك وافقت على إحضار الطبيب من قبل – لكن لا فائدة من التحدث عن هذا الآن. هذا فقط ما أردت قوله لكنك لم تستمع إليّ يا جودي. لقد عشت معي عشرين عامًا ولم تعرفني على الإطلاق. لقد كان بإمكانك أن تفعل، ولكنك انشغلت بتقديس عملك الخاص، وربطت الناس بأغلال حول عقولهم حتى لم يعد بإمكانك رؤية أشياء كثيرة».

«أخرجي يا جاني. لا تأتِ إلى هنا»

«كنت أعرف أنك لن تستمع إليّ. أنت تستطيع تغيير كل شيء ولكن لا شيء بإمكانه تغييرك- ولا حتى الموت. ولكنني لن أخرج ولن أصمت. والآن سوف تستمع إلى ما أقوله لمرة قبل أن تموت. لقد اتبعت أساليبك الخاصة طوال حياتك، تعثرت وسقطت ومن ثم سمحت لنفسك بأن تموت لأنك رفضت الذهاب لطبيب حقيقي عوضًا عن أن تحيا. اسمع يا جودي، أنت لم تعد ذلك الجودي الذي هربت معه. لقد صرت ما تبقى منه بعد أن مات. لقد هربت معك لننشئ منزلًا رائعًا. لكنك لم تكن راضيًا عني بالطريقة التي كنت أتصرف بها. لا! كان على عقلي أن ينضغط وينسحق ليترك مساحة لعقلك داخلي».

«اصمتي! أتمنى أن تقتلك الأعاصير والبروق!»

«لقد كنت أعرف. والآن ستموت لكي تكتشف أنك يجب أن تشبع رغبة شخص سواك لو أردت أن تحصل على التعاطف والحب في هذا العالم. أنت لا تحاول إرضاء أي أحد سوى نفسك. ومشغول جدًا بسماع صوتك الخاص».

«كل هذا الحديث الهادم!» همس جودي والعرق يتصبب على وجهه وذراعيه. «اخرجي من هنا!»

«كل ذلك الخنوع والرضوخ الذي أحسست به بسببك- هذا ليس ما هربت لأجله في السابق».

كان هناك صوت صراع في حلق جودي، لكن عينيه كانتا تحدقان رغمًا عنهما في زاوية الغرفة، لذا فقد عرفت جاني أن تلك الحرب غير المجدية لم تكن معها. كان السيف الجليدي لذي الأصابع المربعة قد قطع أنفاسه وترك يديه في وقفة احتجاجية مؤلمة. فوضعتهما جاني بسلام على صدره، ثم تأملت

وجهه الميت لوقت طويل.

«الجلوس على ذلك الكرسي المُلتف كان صعبًا على جودي بالتأكيد»، همهمت بصوتٍ عالٍ. كانت مليئة بالشفقة للمرة الأولى منذ سنوات. لقد كان جودي قاسيًا تجاهها وتجاه غيرها، ولكن الحياة أساءت إليه أيضًا. جو المسكين! ربما لو كانت تعرف وسيلة أخرى للمحاولة، ربما كان وجهه ليبدو مختلفًا الآن. ولكن ما هي هذه الطريقة الأخرى، لم يكن لديها فكرة. فكرت مرارًا وتكرارًا حول ما يحدث لصنع صوت الرجل. ثم فكرت في نفسها. قبل سنوات، أخبرت روحها الفتية بأن تنتظرها في المرآة. وقد مر وقت طويل منذها. ربما من الأفضل أن تلقي نظرة. لذا فقد مشت نحو المرآة ونظرت إلى بشرتها وملامحها. ذهبت الفتاة، ولكن امرأة جميلة أخذت مكانها. مزقت المنديل من رأسها وأسدلت شعرها الوفير. الوزن، الطول، والمجد كل تلك الأشياء لا زالت هناك. ألقت نظرة دقيقة على نفسها، ثم مشطت شعرها وربطته مرة أخرى. ثم سوت وجهها، وشكلته بالطريقة التي سيود الناس رؤيته بها بالضبط، وفتحت النافذة وصرخت، «تعالوا يا ناس! جودي مات. زوجي فارقني».

## 9

كانت جنازة جو أفضل شيء رأته مقاطعة أورانج على الإطلاق بعيون السود. عربة الموتى، وعربات الكاديلاك والبويك؛ الدكتور هندرسون هناك في عربته اللينكولن؛ الضيوف أتوا من كل حدب وصوب. ثم مرة أخرى الذهبي والأحمر والأرجواني، شماتة وبريق الأوامر السرية، وكلٌ بتلميحات القوة والمجد خاصته التي لم يحلم بها المبتدئون. الناس على خيول وبغال زراعية؛ أطفال يركبون ظهور الإخوة والأخوات. فرقة الظباء تقف على باب الكنيسة وتعزف «آمنًا بين ذراعي يسوع» مع إيقاع الطبل. الإمبراطور الصغير لمفترق الطرق كان يغادر مقاطعة أورانج كما جاءها، بيد ممدودة للسلطة.

عدلت جاني وجهها وجاءت لتجلس في الجنازة وراء حجابها. كان الحجاب مثل جدار من الحجر والصلب. الجنازة كانت تسير في الخارج. كل الأشياء المتعلقة بالموت والدفن تم التحدث حولها. النهاية. الخلاص. اللاشيء بعد الآن. الظلام. الحفرة العميقة. الانحلال. الخلود. البكاء والنحيب. داخل الطيات السوداء الغالية كانت القيامة والحياة. لم تلمس جاني ما كان يحدث في الخارج، ولم تصل الأشياء المتعلقة بالموت داخلها لتزعزع هدوءها. لقد أرسلت وجهها إلى جنازة جو، وروحها ذهبت لتمرح مع الربيع في جميع أنحاء العالم. بعد حين انتهى الناس من احتفالهم وذهبت جاني إلى المنزل.

قبل أن تنام تلك الليلة أحرقت كل خِرق الرأس وتنقلت في البيت

صباح اليوم التالي وشعرها مربوط في ضفيرة واحدة سميكة ويتأرجح تحت خصرها. كان ذلك التغيير الوحيد الذي رآه الناس فيها. أما المتجر فقد أبقته على حاله، ولم يتغير شيء سوى أنها في المساء كانت تجلس على الشرفة وتجعل حزقيا ينتظر الزبائن الذين يأتون متأخرين. لم ترَ أي سبب للتسرع في تغيير الأمور. فلديها بقية حياتها لتفعل ما يحلو لها.

كانت تقضي معظم اليوم في المتجر، ولكن في الليل كانت تذهب إلى المنزل الكبير، تبكي وتنتحب أحيانًا تحت وطأة الوحدة. ثم ترقد في السرير وتسأل الوحدة بعض الأسئلة. سألتها إذا كان بإمكانها المغادرة والعودة من حيث أتت لتحاول العثور على والدتها. وربما تزور قبر جدتها. لكي ترى الأرض القديمة عمومًا. لكن وبالتنقيب في ذاتها بهذا الشكل وجدت أنها ليست في حاجة لإيجاد أمها على الإطلاق. ولقد كرهت جدتها وأخفت الأمر عن نفسها كل هذه السنوات تحت عباءة الشفقة. كانت تستعد لرحلتها العظيمة نحو الآفاق بحثًا عن الناس؛ كان من المهم للعالم بأكمله أن تجده وأن يجدها. لكنها كانت تُجلد مثل كلب لئيم، وتهرب على الطريق الخلفي للأشياء. كل شيء يحدث وفقًا للطريقة التي ترى بها الأشياء. بعض الناس يمكن أن ينظروا إلى بركة طين فيروا المحيط والسفن. لكن ناني كانت تنتمي إلى ذلك النوع الآخر الذي أحب التعامل مع الخردة. لقد أخذت ناني أهم شيء خلقه الرب، الأفق ـــ لأنه بغض النظر عن المسافة التي يمكن أن يسيرها الشخص فإن الأفق لا يزال فوقه ـــ وحولته إلى شيء صغير يمكنها أن تربطه حول عنق حفيدتها بقوة تكفي لخنقها. لقد كرهت المرأة المسنة التي خدعتها باسم الحب. معظم البشر لا يحبون بعضهم بعضًا البتة، وهذا الكره قوي بحيث أن صلة الدم ذاتها لم تتمكن من التغلب عليه أبدًا. لقد وجدت جوهرة داخل نفسها وقد أرادت أن تسير حيث يمكن للناس رؤيتها. ولكنها وُضِعت في

المتجر للبيع. عندما خلق الرب الإنسان، خلقه من الأشياء التي تُغنى في كل وقت وتلمع في كل مكان. ثم بعد ذلك أحس بعض الملائكة بالغيرة وقطعوه إلى ملايين القطع، ولكنه ظل يتألق ويدندن. لذلك قاموا بضربه إلى نثارات صغيرة ولكن كل نثارة صغيرة تألقت وغنت. لذا فقد غطوا كل واحد منها بالطين. لكن وحدة النثارات جعلتها تبحث عن بعضها البعض، ولكن الطين كان أصمًا غبيًا. ومثل سائر كرات الطين، حاولت جاني أن تظهر تألقها.

اكتشفت جاني أن ترملها وممتلكاتها هي أمور جيدة في جنوب فلوريدا. قبل أن يمر شهر على وفاة جودي، لاحظت أن الرجال الذين لم يكن لهم علاقة حميمة مع جودي كانوا يأتون من أماكن بعيدة لمساعدتها وعرض خدماتهم عليها.

«آه أن تظل امرأة وحيدة لهو أمر مؤلم»، قيل لها مرارًا وتكرارًا. «النساء يحتجن عونًا ومساعدة. فالرب لم يخلقهن أبدًا ليكن وحدهن. لم تعتادي على أن تتعبي وتنجزي الأشياء بنفسك يا سيدة ستاركس. لقد تم الاعتناء بك، والآن تحتاجين إلى رجل».

كانت جاني تضحك على هذه العروض لأنها كانت على علم أنهم يعرفون كثيرًا من النسوة الوحيدات؛ لكن معظمهن كن فقيرات. لقد أحبت أن تظل وحيدة على سبيل التغيير. كان إحساس الحرية هذا حلوًا. هؤلاء الرجال لم يمثلوا شيئًا أرادت معرفته. لقد اختبرتهم مسبقًا من خلال لوغان وجو. لقد أحست أنها تريد أن تصفع بعضهم بسبب تحديقهم فيها مثل قطط غبية، تحاول ادعاء محبتها.

جلس معها آيك غرين بجدية ذات مساءٍ في شرفة المتجر عندما وجد فرصة لذلك.

«لابد أن تكوني حريصة حيال من ستتزوجين يا سيدة ستاركس. هؤلاء الرجال الغرباء الذين يتجولون هنا يحاولون الاستفادة من وضعك».

«أتزوج!» صرخت جاني. «جسد جو لم يبرد بعد. أنا لا أفكر في الزواج حتى».

«لكنك ستفعلين. أنت امرأة فتية أصغر من أن تظلي عزباء، وأجمل جدًا بالنسبة للرجال من أن يدعوكِ وشأنك. يجب عليك أن تتزوجي».

«أتمنى ألا يكون ذلك صحيحًا. أعني أنني في الوقت الحالي لن أفكر في الأمر. فجو توفي منذ شهرين فقط. ولم يسترح في قبره بعد».

«هذا ما سوف تقولينه الآن، ولكن بعد شهرين سوف تغنين نغمة أخرى. وحينها عليك أن تكوني حذرة. من السهل خداع معشر النساء. يجب ألا تدعي أي واحد من أولئك الزنوج القذرين الذين يتجولون هنا أن يمارس ألعابه عليك. لأنهم لا يريدون سوى مالكِ، ما تحتاجينه هو رجل تعرفين كل شيء عنه لكي تدعيه يتولى أمورك وينجز أعمالك».

وقفت جاني على قدميها. «يا إلهي يا آيك غرين! هذا الموضوع الذي تتحدث عنه ليس مناسبًا أبدًا. دعني أدخل لأساعد حزقيا على وزن برميل السكر الذي تم إحضاره الآن». ركضت إلى داخل المتجر وهمست لحزقيا، «أنا ذاهبة إلى المنزل. أخبرني متى ذهب هذا المحتال العجوز وسأعود في الحال».

ستة شهور من ارتداء اللون الأسود دون أن تسمح لأي خاطب بأن يطرق باب منزلها حتى. كانت جاني تتكلم وتضحك في المتجر أحيانًا، ولكن لم يبد أنها كانت تريد للأمر أن يكون أكثر من ذلك. كانت سعيدة بخصوص كل شيء ما عدا المتجر. كانت تعلم يقينًا أنها المالكة الآن، ولكن بدا لها دائمًا أنها

ما زالت تعمل لدى جودي وأنه عما قريب سيأتي ويجد شيء منجزًا بطريقة خاطئة. حتى أنها أحست بالخجل في أول مرة ذهبت فيها لأخذ الإيجار من المستأجرين. أحست وكأنها مغتصبة. ولكنها تخلصت من هذا الشعور بإرسال حزقيا الذي كان أفضل محاكاة لجودي تم صنعها. حتى أنه بدأ في تدخين السيغار، وكان يحاول وضع السيغار على جانب فمه كما كان جودي يفعل. وفي كل فرصة تتاح له كان يحاول أن يجلس على كرسي جودي. كانت تضحك على جلسته الغريبة وتدّعي أنها لم ترَ شيئًا. ذات مرة بينما هي آتية عبر الباب الخلفي سمعته يصيح في تريب كروفورد، «لا بالطبع، ليس بإمكاننا أن نفعل شيئًا كهذا! أنت لم تدفع الأموال التي عليك من الشهر الماضي! لن نعطيك أي شيء من هذا المتجر ما لم تدفع ما عليك. يا يسوع المسيح! هذه ليست فلوريدا إنها إيتونفيل». وذات مرة سمعته يستخدم تعبيرًا يخص جودي لكي يفرق بينه وبين الذين يعيشون حياتهم بعدم اكتراث. «أنا رجل متعلم، أبقي ترتيباتي في يدي». ضحكت بشدة على ذلك. لكن تصرفاته لم تكن تؤذي أحدًا ولم يكن بإمكانها إنجاز الأشياء دونه. وقد أحس بذلك وبدأ يعاملها مثل أخته الصغيرة، كما لو أنه يحاول أن يقول، «أوه أيتها الفتاة الصغيرة المسكينة، دعي الأمور لأخيك الكبير وسوف يصلحها لأجلك». إحساسه بامتلاك المكان جعله أمينًا أيضًا، فعدا عن زجاجة كوكاكولا أو علبة من اللبان لإخفاء رائحة الكحول لم يكن يأخذ شيئًا من المتجر. مسألة إدارة المتجر تلك كانت أمرًا مرهقًا لأعصاب الرجل. لذلك فقد كان يحتاج إلى قليل من الشراب بين الحين والآخر ليحافظ على سلامة عقله.

عندما ظهرت جاني بملابس الحداد البيضاء، جذبت المعجبين من داخل المدينة وخارجها. كان كل شيء مفتوحًا وصريحًا. الرجال ذوي الأملاك أيضًا انضموا إلى الحشد، ولكن لم يبدُ أن أحدًا استطاع أن يقترب أكثر من

المتجر. كانت مشغولة دائمًا عن أخذهم إلى المنزل للترفيه. جميعهم كانوا محترمين جدًا وجديين معها، كما لو أنها كانت إمبراطورة اليابان. رأوا أنه لم يكن من المناسب ذكر الرغبة لأرملة جوزيف ستاركس. لقد تحدثوا عن الشرف والاحترام. وكل ما قالوه أو فعلوه كان ينكسر بغفلتها ويرمى نحو اللاشيء. كانت وفيبي واتسون تتزاوران، وأحيانًا تجلسان قرب البحيرة وتصطادان. كانت فرحة بالحرية من دون الحاجة إلى التفكير. حاول حانوتي من سانفورد إقناعها بالزواج من خلال فيبي، وجاني كان تستمع بسرور دون قول شيء. ربما يكون الزواج منه شيئًا جيدًا، كانت توقف الأمر عند هذا الحد. لا داعي للتعجل. مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا للتفكير فيها، أو بالأحرى فقد تظاهرت لفيبي أن هذا هو ما كانت ستفعله.

«ليس الأمر أنني لست حزينة على موت جو يا فيبي. لكنني أحب هذه الحرية الجديدة».

«هش-ش-ش! لا تدعي أحدًا يسمعك وأنت تقولين ذلك يا جاني، سوف يظن الناس أنك لست آسفة على موته».

«دعيهم يقولون ما يودون قوله يا فيبي. بحسب اعتقادي فالحداد لا يبقى للأبد».

# 10

في أحد الأيام طلب حزقيا إجازة ليغادر مع فريق الكرة. أخبرته جاني ألا يسرع في الرجوع. يمكنها أن تغلق المتجر بنفسها هذه المرة. أطلعها على كيفية إغلاق مقابض النوافذ والأبواب وغادر إلى وينتر بارك.

لم يكن هناك عمل طوال اليوم، لأن عددًا كبيرًا من الناس غادروا لمشاهدة المباراة. قررت أن تغلق مبكرًا، لأن الأمر لا يستحق عناء فتح المتجر طوال تلك الظهيرة الحارة. ووضعت الساعة السادسة كوقت للإغلاق.

في الخامسة والنصف أتى رجل طويلٌ إلى المكان. كانت جاني متكئة على منضدة المتجر تشخبط بالقلم على قطعة ورق. كانت تعرف أنها لا تستحضر اسمه، لكنه بدا مألوفًا.

«مساء الخير سيدة ستاركس»، قالها بابتسامة ماكرة وكأنهما تقاسما نكتة جيدة معًا. كانت متشوقة لسماع الحكاية التي جعلته يضحك حتى قبل أن يحكيها لها.

«مساء الخير»، قالت بلطف. «لديك الأفضلية لأنني لا أعرف اسمك».

«الناس لا يعرفونني كما يعرفونك».

«أعتقد أن الوقوف في متجر يجعل الشخص يصبح معروفًا لدى الناس. لكن يبدو أنني رأيتك في مكان ما».

«أنا لا أعيش بعيدًا عن أورلاندوا. ومن المتوقع أنكِ ترينني في شارع الكنيسة في أي وقت سواء صباحًا أو مساءً. ألديك سجائر؟»

فتحت صندوق العرض. «أي نوع؟»

«كاميل». قدمت له السجائر وأخذت المال. فتح العلبة وأخرج سيجارة ووضعها بين شفتيه الورديتين.

«ألديك شعلة نار هنا أيضًا يا سيدة؟» ضحكا سويًا وأخرجت له عودي ثقاب من صندوق موضوع لهذا الغرض. كان الوقت قد حان لكي يذهب لكنه لم يفعل. اتكأ على النضد بمرفق واحد ونظر نحوها.

«لم لستِ في المباراة أيضًا؟ الجميع هناك».

«ومع هذا فأنا أرى أن هناك شخصًا آخر غيري لم يذهب. وقد بعت له السجائر منذ قليل». ضحكا سويًا.

«هذا لأنني غبي وأخلط الأمور كلها سوية. لقد ظننت أن المباراة ستكون في هونغرفورد. لذا فقد أخذت مركبة واتجهت إلى هنا من طريق ديكسي واكتشفت بعدها أن المباراة في وينتر بارك».

كانا هذا مضحكًا لكليهما أيضًا. «إذن ماذا ستفعل الآن؟ كل السيارات في إيتونفيل غادرت».

«ما رأيك بأن ألاعبك في لعبة الداما؟ تبدين صعبة المراس فيها».

«آه، أنا لا أعرف كيف ألعبها».

«إذن فأنت لا تقدرين اللعبة أليس كذلك؟»

«لا أنا أقدرها، لكن لم يعلمني أحد كيف ألعبها».

«هذا آخر يوم ستستخدمين فيه هذا العذر. هل لديك لوح داما هنا؟»

«نعم بالتأكيد. الرجال هنا يحبون هذه اللعبة جدًا. لكنني لم أتعلمها من

قبل».

وضع اللعبة وبدأ يعلمها كل الخطوات بينما كانت تتوهج من الداخل. شخص ما أرادها أن تلعب. شخص ما فكر أنه أمر طبيعي أن تلعب. كان هذا لطيفًا. تطلعت إليه وأحست بقليل من الإثارة من خلال النظر إلى محاسنه. تلك العيون الواسعة الكسولة والرموش التي تمتد بعيدًا مثل سيوف. كتفاه الهزيلان وخصره النحيل. كان لطيفًا حتى!

لقد أطاح بملكها! صرخت احتجاجًا على فقدان الملك قبل أن تدرك أنها كانت قد أمسكت بيده لمنعه. ناضل بشجاعة لتحرير نفسه. ولكن ليس بالقوة الكفاية لإيلام أصابع السيدة.

«لدي الحق في أخذه. لقد تركته هناك أمامي».

«نعم، ولكنني كنت أنظر بعيدًا عندما حشرت رجالك بجانب رجالي. هذا ليس عادلًا!»

«لا يجب عليك أن تفقدي انتباهك يا سيدة ستاركس. جزء كبير من اللعبة يتعلق بأن تنتبهي! اتركي يدي».

«ليس هناك شيء من هذا القبيل! ليس ملكي. يمكنك أخذ أي واحد آخر، إلا هذا».

خلطا وقلبا اللوح وضحكا حول الأمر.

«على أي حال حان وقت الكوكاكولا»، قال. «سوف آتي لأعلمك المزيد في وقت آخر».

«حسنًا يمكنك أن تأتي لتعلمني ولكن لا تأتِ لتخدعني».

«ليس بإمكانك أن تغلب امرأة، إنهن لا يتحملن الأمر. لكنني سآتي

لتعليمك مرة أخرى. سوف تصبحين لاعبة جيدة أيضًا، بعد مدة».

«أتعتقد ذلك؟ اعتاد جو على إخباري أنني لن أتعلم أبدًا. كان الأمر ثقيلًا جدًا على ذهني».

«بعض الناس يلعبونها بحدسهم وبعضهم لا يفعل. لكنك تتعلمين بسرعة وعقلك نشط. سوف تتعلمينها. تناولي شرابًا باردًا على حسابي».

«حسنًا شكرًا لك. لدي مختلف أنواع الشراب البارد اليوم. لم يأتِ أحد إلى هنا ليشتري أيًا منها. الجميع ذهبوا إلى المباراة».

«لابد أن تذهبي للمباراة القادمة. ليست هناك فائدة من بقائك هنا بينما الجميع هناك. أنتِ لن تشتري من نفسك أليس كذلك؟»

«أيها المجنون! بالطبع لن أفعل. لكنني قلقة بشأنك».

«لمَ؟ أتظنين أنني لن أدفع ثمن هذا المشروب؟»

«أوه لا! كيف ستعود إلى منزلك؟»

«سأنتظر قدوم عربة. ولو لم يأتِ أحد، فحذائي الجلدي جيد جدًا. فالمسافة لا تتعدى السبعة أميال. يمكنني عبور هذه المسافة بسرعة كبيرة. ذلك سهل».

«لو كنت مكانك كنت سأنتظر القطار، سبعة أميال هي مسافة طويلة لمشيها».

«سوف تكون كذلك بالنسبة لكِ، لأنك غير معتادة على ذلك. لكنني رأيت نساء يمشين مسافات أبعد من تلك. سوف تتمكنين أيضًا لو توجب عليك فعلها».

«ربما، ولكنني سأظل أركب القطار طالما توافرت لي أجرته».

«أنا لا أحتاج إلى أموال كثيرة لركوب القطار مثلكِ. لأنني عندما أعتزم على تنفيذ الأمر أفعله - بمال أو بدونه».

«هاه يا له من شيء رائع! يا سيد - لم تخبرني باسمك قط».

«بالطبع لم أفعل. لأنني لم أظن أن ذلك ضروري. الاسم الذي أعطتني إياه أمي هو فيرغيبل وودز. ولكنهم يدعونني تي كيك».

«تي كيك! هل أنت حلو لهذه الدرجة؟» ضحكت ورمقها بنظرة لفهم ما تعنيه.

«ربما أكون مخطئًا. لكن بإمكانك تجربتي لتعرفي بنفسك». رد فعلها كان بين الضحك والعبوس بينما عدل هو قبعته.

«ربما قلت شيئًا خاطئًا، لذا من الأفضل أن أخرج لتنشق بعض الهواء». مشى نحو الباب بخفة. ثم نظر نحوها بابتسامة لا تقاوم. وانفجرت جاني في الضحك رغمًا عنها. «أيها المجنون!»

عاد وألقى قبعته عند قدميها. «لو لم ترميها عليّ، فسوف أنتهز الفرصة للعودة مجددًا»، قالها وقام بحركة وكأنه يختبئ وراء شيء ما. حملت القبعة وألقتها عليه ضاحكة. «حتى لو وضعت داخلها حجرًا فهي لن تستطيع إيذاءك بها»، قالها ضاحكًا لرفيقه المتخيل. «فالسيدة لا تعرف كيف تقذفها».

أومأ إلى رفيقه، خرج من وراء طاولة المصباح المتخيلة، عدل معطفه وقبعته ومشى إلى حيث كانت جاني كما لو أنه قد أتى إلى المتجر توًا.

«مساء الخير سيدة ستاركس. هل باستطاعتي أن أخذ القليل رطلاً من البودينغ حتى يوم السبت؟ أنا متأكد أنني سأتمكن من أن أدفع لك حينها».

«تحتاج إلى عشرة أرطال يا سيد تي كيك. وسوف أعطيهم لك دون أن

تقلق من أن تدفع لي مرة أخرى».

ظلا يتمازحان حتى بدأ الناس بالتوافد. وجلس تي كيك يتحدث مع الجميع حتى وقت الإغلاق. وعندما ذهب الجميع قال ليها، «أظن أنني تعديت الوقت المفترض للذهاب، لكنني ظننت أنك ربما تحتاجين شخصًا ليساعدك في الإغلاق. بما أنه ليس هناك شخص آخر، فربما أستطيع تأدية هذه الوظيفة».

«شكرًا يا سيد تي كيك. فالأمر مجهد نوعًا ما بالنسبة لي».

«أسمعتِ من قبل عن شخصٍ اسمه تي كيك يلقبونه بالسيد! لو أردتِ التحدث بشكل رسمي فبإمكانك مناداتي بالسيد وودز، ولكن لو أردتِ أن تكوني ودية أكثر فنادني تي كيك، وذلك سيكون لطيفًا بحق». وقد كان يثبت ويغلق النوافذ طوال الوقت الذي تحدث فيه.

«حسنًا إذن، شكرًا لك يا تي كيك. أهذا جيد؟»

«تمامًا كفتاة صغيرة في فستان عيد الفصح، أفضل حتى!» أقفل الباب وهزه ليتأكد من أنه مغلق جيدًا ومن ثم ناولها المفتاح.

«هيا الآن، سأوصلك حتى باب منزلك ومن ثم أتوجه إلى طريق ديكسي».

كانت جاني في منتصف الطريق حين بدأت تفكر في سلامتها.

ربما كان هذا الرجل الغريب يفكر في فعل شيء بها! ولكن لم يكن هنالك مكان لإظهار خوفها بين تلك المسافة المظلمة بين المتجر والمنزل. أمسك تي كيك بيدها. وفي لحظة اختفى ذلك الشعور. تي كيك لم يكن غريبًا. بدا وكأنها تعرفه طوال حياتها. لقد استطاعت أن تتحدث معه منذ أول لحظة رأته فيها! أوصلها إلى المنزل وحياها، ثم غادر متمنيًا لها ليلة سعيدة باختصار.

لذا فقد جلست في الشرفة وشهدت ظهور القمر الذي سرعان ما أشبع سائله الكهرماني الأرض، وروى عطش النهار.

# 11

أرادت جاني أن تسأل حزقيا عن تي كيك، لكنها فكرت أنه ربما يسيء فهمها ويظن أنها مهتمة به. في المقام الأول هو يبدو أصغر منها. لابد أنه كان في الخامسة والعشرين وهي اقتربت من الأربعين. ومن ثم فهو لم يبدُ وكأنه يملك الكثير. وربما كان يتسكع في الأنحاء ليتقرب منها ويستولي على كل ما تملك. وربما لن تقابله مرة أخرى. فقد كان على الأغلب من ذلك النوع من الرجال الذين يعيشون مع مختلف النسوة ولا يتزوجون أبدًا. في الحقيقة، لقد قررت أن تعامله ببرود لو اقترب من هذا المكان مرة أخرى لتتأكد من أنه لن يعود مجددًا.

انتظر أسبوعًا كاملاً قبل أن يعود إلى جاني. كان الوقت مبكرًا وكانت هي وحزقيا بمفردهما. سمعت أحدهم يدندن وكأنه يبحث عن الطبقة المناسبة ونظرت نحو الباب. كان تي كيك واقفًا هناك يحاكي أصوات الغيتار. عبس وكافح مع أوتار آلته المتخيلة بينما يراقبها من زاوية عينه والنكتة السرية تظهر على وجهه. أخيرًا ابتسمت، ووضع غيتاره المتخيل تحت ذراعه ومشى إلى حيث كانت.

«مساء الخير يا جماعة. فكرت أنكم ربما تودون سماع بعض الموسيقى في هذه الأمسية».

«أيها المجنون!» علقت جاني والإشراق يملأ وجهها. قابل الإطراء بابتسامة وجلس على صندوق.

«هل يود أحدكما تناول كوكاكولا معي؟»

«لقد تناولت واحدة للتو»، ماطلت جاني ضميرها.

«سوف تحتاجينها بعد أن نكمل لعبتنا يا سيدة ستاركس».

«كيف هذا؟»

«لأننا لم ننهها المرة السابقة. أحضر لنا زجاجتي كوكاكولا من قعر الصندوق يا حزقيا».

«كيف هو حالك منذ آخر مرة رأيتك فيها يا تي كيك؟»

«بخير حال. عملت لأربعة أيام هذا الأسبوع ومرتبي في جيبي».

«أوه لدينا رجل غني هنا. هل ستشتري قطار ركاب أم بارجة؟»

«أيهما تريدين. الأمر كله يعتمد عليكِ».

«حسنًا لو أردت ذلك، فسأختار قطار الركاب لأنه لو انفجر سأظل على اليابسة».

«اختاري البارجة لو كان ذلك ما تودينه حقًا. أعرف مكان إحداها الآن. لقد رأيت واحدة قرب كي ويست أول أمس».

«كيف ستحصل عليها؟»

«أنا متأكد أن أولئك الأدميرالات رجال مسنون. ولا أحد منهم يستطيع منعي من إحضار تلك البارجة لأجلك لو أن هذا ما تريدينه. سوف أسحب تلك السفينة من تحتهم بخفة حتى يبدأوا المشي في الماء مثل بيتر العجوز قبل أن يدركوا الأمر».

استمرا في اللعب حتى المساء. وكان الجميع متفاجئين من أن جاني تلعب الداما لكنهم أحبوا الأمر. ثلاثة أو أربعة منهم وقفوا وراءها ليوجهوا

خطواتها. وفي الأخير ذهب الجميع إلى منازلهم ما عدا تي كيك.

«يمكنك أن تبدأ بالإغلاق يا حزقيا». قالت جاني. «فأنا ذاهبة إلى المنزل».

صعد تي كيك معها حتى شرفة منزلها. لذا فقد عرضت عليه البقاء وأخذا يتبادلان الحكايات. حوالي الساعة الحادية عشر تذكرت أنها صنعت كعكة في وقت سابق. ذهب تي كيك نحو شجرة الليمون التي في الزاوية وقطع بعض الليمون وأحضره لها. لذا فقد كان لديهما ليموناضة أيضًا. «القمر جميل جدًا»، قال تي كيك وهما يغسلان الأطباق والكؤوس. «هيا بنا لنصطاد بعض السمك».

«نصطاد؟ فهي هذا الوقت المتأخر؟»

«نعم نصطاد. وأعرف المكان المناسب تمامًا الذي ستنغرز فيه سناراتنا. رأيته بينما كنت أمر بجانب البحيرة هذا المساء. أين سناراتك؟ دعينا نذهب لنجلس على البحيرة».

كان تعليق الديدان في السنارات بضوء المصباح أمرًا جنونيًا تمامًا، وبالجلوس على بحيرة سيبيليا في ذلك الوقت المتأخر أحست وكأنها طفلة تخرق القوانين. اصطادا اثنين أو ثلاثة وعادا إلى البيت قبل الصباح. جعلت تي كيك يتسلل من الباب الخلفي، وجعلها ذلك تحس وكأن لديها سرًا عظيمًا تخفيه عن البلدة كلها. «آنسة جاني»، قال حزقيا متجهمًا في اليوم التالي، «يجب ألا تدعي تي كيك ذاك يمشي معك إلى المنزل مجددًا. سوف أرافقك بنفسي لو أنك تخافين».

«وما خطب تي كيك يا حزقيا؟ أهو سارق أم ماذا؟»

«لم أسمع أحدًا يقول إنه سرق شيئًا من قبل».

«هل يحمل مسدسات أو سكاكين ليؤذي الناس بها؟»

«لم أسمع من قبل أنه جرح أو أصاب أحدًا أيضًا».

«حسنًا، أهو متزوج أم ماذا؟ ليس وكأن الأمر يعنيني على كل حال». وانتظرت الإجابة.

«لا، ولن تتزوج أي فتاة تي كيك لكي تجوع حتى الموت إلا لو كانت مثله - غير معتادة على شيء. بالطبع هو دائمًا يرتدي ملابس جيدة. لكن ذلك التي كيك غير مفيد. ليس هنالك داعٍ لأن تدعي شخصًا مثله يقترب منك. لقد فكرت أن أخبرك لكي تأخذي حذرك».

«هذا جيد يا حزقيًا، أشكرك كثيرًا». في الليلة التالية بينما كانت تصعد عتبات شرفتها كان تي كيك جالسًا هناك أمامها، في الظلام. وقد كان يحمل بعض أسماك التروت التي اصطادها حديثًا كهدية لها.

«سوف أغسلهم، وأنت اقليهم ودعينا نأكل»، قالها بثقة من لا يريد أن يُرد. ذهبا إلى المطبخ وجهزا السمك الساخن وكعك الذرة وأكلا. ثم توجه تي كيك نحو البيانو وبدأ بعزف البلوز ويغني، وقد كان يلقي نحوها ابتسامة من فوق كتفيه. الصوت هدهد جاني ونامت واستيقظت بينما كان تي كيك يقوم بتمشيط شعرها. وقد جعلها هذا مرتاحة أكثر ومسترخية.

«تي كيك، من أين أحضرت المشط لتمشطِ شعري به؟»

«لقد أحضرته معي. فلقد أتيت مستعدًا لوضع يدي عليه اليوم».

«لمَ يا تي كيك؟ ما الذي ستستفيده من تمشيط شعري؟ هذا الأمر يريحني أنا وليس أنت».

«الأمر يريحني أنا أيضًا. لم أنم جيدًا منذ أسبوع لأنني كنت أتمنى أن أضع يدي على شعرك. إنه جميل جدًا. أحس وكأن جناح حمامة يرقد إلى جانب وجهي».

«أوه! من السهل إرضاءك جدًا. لقد ظللت أمتلك ذلك الشعر إلى جانب وجهي منذ أن بكيت لأول مرة، ولم يمنحني أبدًا أي متعة».

«سأقول لك ما قلته لي - من الصعب إرضاءكِ جدًا. أن متأكد أن هذه الشفاه لا ترضيك أيضًا».

«هذا صحيح يا تي كيك. إنهما هناك واستعملهما كلما استدعت الحاجة، لكن ليس هناك ما هو مميز بشأنهما».

«أوه! أوه! أوه! أنا متأكد أنك لم تقفي أبدًا أمام المرآة وتمتعي عينيك برؤيتك. تدعين الآخرين يتمتعون ما تملكينه دون أن تأخذي القليل لنفسك».

«لا لم أنظر أبدًا لنفسي بهذه الطريقة في المرآة. لكن لو أحس أي شخص بسعادة من خلال النظر إليّ فهو لم يخبرني بذلك».

«أترين؟ إنك تملكين العالم عند قدميك دون أن تعرفي. لكنني سعيد أن أكون الشخص الذي يخبرك بذلك».

«أظن أنك تخبر العديد من النسوة بذلك».

«أنا القديس بولس الذي أرسل للوثنيين. أنا أخبرهن وأريهن ما يحتجن إلى معرفته».

«لقد عرفت ذلك». تثاءبت وشرعت في النهوض عن الأريكة. «لقد جعلتني ناعسة جدًا بتمشيطك لشعري. لا أكاد أستطيع الوصول إلى سريري». وقفت بسرعة، وربطت شعرها بينما جلس هو هناك صامتًا.

«لا، أنت لست ناعسة يا آنسة جاني. إنك تريدينني أن أغادر. لابد أنك تظنين أنني عابث وصعلوك وأنك انتهيت من تضييع وقتك معي».

«لمَ يا تي كيك! ما الذي جعلك تفكر بهذا الشكل؟»

«الطريقة التي نظرت بها إليّ عندما قلت ما قلته. لقد أخافني وجهك كثيرًا».

«ليس من حقي أن أغضب حيال أي شيء تقوله أو تفعله. لقد فهمت الأمر بشكل خاطئ. لست غاضبة على الإطلاق».

«أعرف، وذلك ما جعلني أحس بالخجل. أنت تقرفين مني. لقد غادر وجهك هذا المكان وذهب إلى مكان آخر. لا، أنت لست غاضبة مني. كنت لأسعد لو أنك كذلك، لأنني حينها قد أفعل شيئًا لإرضائكِ. ولكن ولأن الأمر بهذا الشكل --»

«ما يعجبني وما لا يعجبني يجب ألا يؤثر عليك يا تي كيك. فهذا أمر يخص حبيباتك النساء. أنا صديقة أحيانًا وأنت كذلك».

ذهبت جاني نحو الدرج ببطء، وظل تي كيك جالسًا حيث هو، كما لو أنه تجمد في مقعده، خائفًا من أنه لو فارق مكانه، لن يعود إليه مرة أخرى. ابتلع ريقه بصعوبة ونظر إليها بينما تمشي ببطء.

«لم أكن أريد أن أحدثك عن الأمر، على الأقل ليس بهذه السرعة، ولكنني أفضل أن أضرب بالمسامير عن أن تتعاملي مع كما تتعاملين الآن. أنت تجعلينني أفكر في قضاء ما تبقى من حياتي معكِ». وقفت جاني لتفكر قليلًا. فكرتها الجديدة جعلتها تتحطم. فكرت أنه يقول أي شيء لكسب الوقت، وأنه يعتقد أن بإمكانه حملها على تصديقه. الفكرة التالية ألقتها تحت أطنان من العبث البارد. فكرت أنه يعتمد على كونه أصغر منها ويستعد ليضحك عليها بخدعة قديمة. وفكرت أن بإمكانها أن تقدم عمرها كله لتكون أصغر باثني عشر عامًا لتصدقه.

«أوه يا تي كيك أنك تقول هذا الكلام لأن السمك والذرة كان مذاقهما جيدًا. لكن في الغد ستغير رأيك».

«لا لن أفعل. أنا أعرف».

«على كل حال، ومما سمعته منك عندما كنا في المطبخ، فأنا أكبر منك باثني عشر عامًا».

«لقد فكرت في كل ذلك، وحاولت أن أبعد تفكيري عنكِ، لكنني لم أستطع أن أفعل ذلك. التفكير في صغر سني لا يسعدني كما يفعل حضورك فيّ».

«الأمر يشكل فرقًا بالنسبة للكثير من الرجال يا تي كيك».

«هذه الأمور لها علاقة كبيرة بالملائمة، ولكن لا علاقة لها بالحب».

«حسنًا، سأود أن أعرف ما تفكر فيه عندما يحل صباح الغد، فهذه أفكار ليلية فقط».

«لديك أفكاركِ ولدي أفكاري. أراهنك بدولار أنك مخطئة. ولكنني أظن أنك لا تراهنين بالمال أيضًا».

«لا لم أفعل ذلك من قبل. ولكن كما يقول الكبار دومًا، لقد ولدت ولكنني لم أمت بعدّ. فلا تخبرني بها أنا مدينة بفعله بعد».

نهض فجأة وأخذ قبعته. «ليلة سعيدة آنسة جاني. يبدو أنك انتهيت من تحليل محادثتنا من جذورها وحتى أوراقها. إلى اللقاء». وخرج من الباب مسرعًا. وقفت جاني متكئة على الدرابزين مفكرة لوقت طويل حتى أنها كانت ستنام في مكانها هناك. وقبل أن تخلد إلى النوم ألقت نظرة متفحصة على شفتيها، وعينيها وشعرها.

طوال اليومين والليلتين التاليين كانت تفكر بلا توقف في تي كيك. حتى أنها سخرت منه في عقلها وكانت خجلة قليلًا من الأمر. ولكن المعركة كانت تتجدد كل ساعة أو ساعتين. لم يكن بإمكانها أن تجعله يبدو مثل أي رجل آخر بالنسبة لها. لقد بدأ كالمحب الذي تفكر فيه النساء. يمكنه أن يكون نحلة لزهرتها – إزهار شجرة كمثرى في الربيع. بدا وكأنه يسحق الرائحة عن العالم بكل خطوة من قدميه. يسحق الأعشاب العطرية مع كل خطوة يخطوها. وتعلق به التوابل. كان لمحة من الرب.

لم يأتِ تلك الليلة واستلقت هي في فراشها مدعية أنها تفكر فيه بازدراء. «لابد أنه يتسكع في إحدى الحانات. أنا سعيدة أنني عاملته ببرود. ما الذي سأفعله بزنجي قذر يجوب الشوارع؟ أراهن أنه يعيش مع امرأة ويحاول خداعي. من الجيد أنني انتبهت في الوقت المناسب». حاولت أن تواسي نفسها بهذا الشكل.

في اليوم التالي استيقظت على صوت قرع على بابها ووجدت تي كيك واقفًا هناك.

«مرحبًا آنسة جاني، أتمنى أن أكون قد أيقظتك من النوم».

«بالطبع فعلت يا تي كيك. تعال واجلس لابد أنك متعب. ما الذي تفعله في الخارج في هذا الوقت المبكر؟»

«فكرت أن آتي إلى هنا في وقت مبكر لأخبرك بأفكاري النهارية. أظن أنك يجب أن تعلمي بمشاعري النهارية. بما أنني لا أستطيع أن أقنعك بها في المساء».

«أيها المجنون! أهذا ما أتيت لأجله في هذا الوقت المبكر؟»

«بالتأكيد. يجب أن أخبرك وأن أريك، وهذا ما أفعله الآن. لقد قطفت

لك بعض الفراولة أيضًا، فكرت أنك ربما تحبينها».

«بالتأكيد لا أعرف ما الذي تفكر فيه يا تي كيك. أنت مجنون تمامًا. تعال دعني أجهز لك فطورًا».

«ليس لدي وقت، لدي وظيفة وعمل. يجب أن أعود إلى أورلاندو في الثامنة. أراكِ لاحقًا». نزل عن الشرفة ومضى بعيدًا. ولكن في تلك الليلة عندما تركت المتجر، كان جالسًا على الأرجوحة الشبكية في الشرفة وقبعته فوق وجهه مدعيًا أنه نائم. نادته. وادعى أنه لم يسمعها. نادته بصوت أعلى. مشت نحو الأرجوحة الشبكية لتوقظه فجرها داخل الأرجوحة معه. بعد فترة وجيزة تركته يعدل رقدتها بين ذراعيه وبقيت هناك لفترة.

«لا أعرف إن كنتَ جائعًا يا تي كيك، ولكنني جائعة، تعال لنتناول العشاء».

دخلا وتعالت ضحكاتهما داخل المطبخ ومن ثم في كل أنحاء المنزل.

استيقظت جاني في الصباح التالي وتي كيك يقبل أنفاسها، يحضنها ويلاطفها كما لو كان خائفًا أن تفارق ذراعيه وتطير بعيدًا. بعدها بفترة قام مسرعًا وارتدى ملابسه ليتوجه إلى عمله في الوقت المحدد. ولم يسمح لها بأن تعد له إفطارًا على الإطلاق. أراد لها أن ترتاح. فجعلها راقدة في مكانها وغادر. في قلبها أرادت أن تعد له إفطاره. ولكنها بقيت في الفراش لمدة طويلة بعد أن غادر.

أشياء كثيرة تم التنفيس عنها من خلال التأمل في فكرة أن تي كيك لا يزال هناك. كان بإمكانها أن تراه وتشعر به يتقافز في هواء الغرفة. بعد وقت طويل من السعادة المنفعلة، نهضت وفتحت النافذة وسمحت لتي كيك بالقفز والتحليق في السماء وبين الرياح. وكانت هذه هي بداية الأشياء.

في برودة الظهيرة وصلت شياطين الجحيم التي تُبعث خصيصًا إلى العشاق لأذني جاني. الشكوك. كل المخاوف التي قد توفرها الظروف وأحاسيس القلب، هاجمتها من كل الجهات. كان هذا إحساسًا جديدًا بالنسبة لها ولكنه لم يكن أقل إيلامًا. فقط لو جعلها تي كيك مطمئنة! لم يعد في تلك الليلة ولا في الليلة التي تلتها لذا فقد سقطت في الهاوية ونزلت إلى الظلمة التاسعة التي لم يصلها النور يومًا.

ولكن في اليوم الرابع أتى في الظهيرة يقود سيارة متضررة. ومثل غزال، قفز خارجًا وقدم إيماءة وكأنه سوف يقوم بربطها على شرفة المتجر. جاء مستعدًا بابتسامته! عشقته وكرهته في نفس الوقت. كيف بإمكانه أن يجعلها تعاني ثم يأتي مبتسمًا هكذا بطريقته المحببة تلك؟ قرص ذراعها بينما يمر خلال الباب.

«أحضري لي شيئًا لأخبئك كغنيمة فيه»، قال لها بضحكة مكتومة. «خذي قبعتك لو أردت ارتدائها. يجب أن نذهب لشراء البقالة».

«أنا أبيع بقالة هنا في هذا المتجر، لو لم تكن تعرف». حاولت أن تبدو باردة لكنها كانت تبتسم رغمًا عنها.

«ليست من النوع الذي نحتاجه للمناسبة. أنت تبيعين بقالة للناس العاديين. ونحن سنذهب لشرائها لكِ. نزهة يوم الأحد الكبيرة غدًا – أراهن أنك لم تنسيها – ويجب أن نكون هناك مع سلة منتفخة».

«لا أدري إن كنت أود الذهاب يا تي كيك. لكني دعني أخبرك بما يجب أن تفعله. اذهب إلى منزلي وانتظرني هناك. سوف أكون هناك خلال دقائق».

حالما أحست أن الوضع جيد تسللت من الخلف وانضمت إلى تي كيك. لا داعي لأن تخدع نفسها. ربما يحاول أن يكون لبقًا.

«هل أنت متأكد أنك تريدني أن أذهب إلى هذه النزهة معك يا تي كيك؟»

«لقد ظللت اندفع هنا وهناك لأوفر المال - ظللت أعمل مثل الكلب لأسبوعين متتالين - وتأتي هي لتسألني ما إذا أردتها أن تذهب معي! معرضًا نفسي لمختلف المشاكل لأؤمن هذه السيارة لكي نستطيع الذهاب إلى وينتر سيتي لشراء الأشياء التي ربما تحتاجينها بينما تجلسين هنا لتسأليني إذا كنت أريدك أن تذهبي معي!»

«لا تغضب يا تي كيك، أنا فقط لم أردك أن تفعل أي شيء من باب اللباقة. لو كان هناك أحد آخر تفضل أخذه فأنا لا أمانع».

«لا الأمر ليس كما تصفينه. لو كان كذلك لما قلت ما قلته. امتلكي الشجاعة لقول ما تعنينه حقًا».

«حسنًا، حسنًا، أريد أن أذهب معك بشدة يا تي كيك، لكن، لكن - آه يا تي كيك، أخاف أنك ربما تتظاهر بذلك فقط».

«اتمنى أن يأخذ الرب روحي يا جاني لو كنت أكذب عليكِ. لا أحد في العالم يشابهك في الروعة يا حبيبتي. فلديك مفاتيح المملكة».

# 12

كان ذلك بعد النزهة حين بدأت البلدة تلاحظ الأمر وأحسوا بالغضب. تي كيك والسيدة ستاركس! من بين جميع الرجال الذين كان بإمكانها الحصول عليهم، يخدعها شخص مثل تي كيك! الشيء الآخر، كان أن جو ستاركس لم يمض على وفاته سوى تسعة أشهر وها هي تذهب للتنزه مرتدية الكتان الوردي. ولا تأتي إلى الكنيسة كثيرًا، كما اعتادت أن تفعل. تذهب إلى سانفورد في سيارة مع تي كيك مرتدية الأزرق! إنه عار. ترتدي النعال عالية الكعب وقبعة بعشرة دولارات! وتبدو مثل فتاة صغيرة، ترتدي دائمًا اللون الأزرق لأن تي كيك طلب منها ذلك. جو ستاركس المسكين. نراهن أنه يتقلب في قبره كل يوم. تي كيك وجاني ذهبا للقنص. تي كيك وجاني ذهبا لصيد الأسماك. تي كيك وجاني ذهبا لأورلاندو إلى السينما. تي كيك وجاني ذهبا للرقص. تي كيك يزرع زهورًا في باحة جاني ويشذب الحديقة لأجلها. يقطع تلك الشجرة التي لم تحبها قط القريبة من نافذة غرفة الطعام. جميع مظاهر الاستحواذ. تي كيك يستعير عربة ليعلم جاني القيادة. تي كيك وجاني يلعبان لعبة الداما؛ يلعبان كونكوين؛ يلعبان فلوريدا فليب على الشرفة في الظهيرة كما لو لم يكن هناك أحد آخر. يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع.

«فيبي»، قال سام واتسون ذات ليلة وهو يرقد في فراشه، «أعتقد أن صديقتك تواعد ذلك المتباهي تي كيك. لم أصدق الأمر في البدء».

«أوه إنها لا تقصد شيئًا بهذا الأمر. أظن أنها معجبة بذلك الحانوتي في سانفورد».

«لابد أن هناك أحدًا في حياتها لأنها تبدو جيدة جدًا هذه الأيام. ترتدي

دائمًا فساتين جديدة وتسرح شعرها بطريقة مختلفة يوميًا. لابد أن يكون لديك شيء لتسرح شعرك لأجله. عندما ترى امرأة تبذل مجهودًا كبيرًا في تزيين شعرها فلابد أنها معجبة برجل ما».

«بالطبع بإمكانها أن تفعل ما تريده، لكن تلك فرصة جيدة التي حصلت عليها في سانفورد. زوجة الرجل توفيت ولديه مكان جميل لينقلها إليه - مؤثث جيدًا. أفضل من المنزل الذي تركه جو لها».

«لابد أن تقدمي لها النصح لأن تي كيك لن يفيدها في شيء غير أن ينفق ما لديها من مال. أعتقد أن هذا ما يحاول فعله. أن يدمر ما عمل جو ستاركس بقوة على بنائه».

«هذا ما يبدو عليه الأمر. لكن على كل حال، فهي امرأة ناضجة تستطيع أن تعرف ما يفيدها».

«كان الرجال يتحدثون عن هذا الأمر اليوم في البساتين ولاموها هي وتي كيك. ويقولون إنه ينفق عليها الآن لكي تأتمنه على مالها لاحقًا».

«يا إلهي! يا رحيم!»

«أوه لقد حللوا الأمر كله، ربما ليس الأمر بالسوء الذي يقولونه، لكنه تكلّموا فجعلوه يبدو سيئًا جدًا من ناحيتها».

«هذه غيرة وحقد. فبعض هؤلاء الرجال يريدون فعل ما يقولون إنهم يخافون أن يفعله تي كيك».

«يدعي القس أن تي كيك لا يسمح لها بأن تأتي إلى القداس إلا قليلًا لأنه يريد تلك الفكة ليشتري بها وقودًا. ويبعد المرأة عن الكنيسة. ولكن على كل حال فهي صديقتك المقربة، لذا من الأفضل أن تذهبي لتفهمي منها ما يحدث. قولي لها بعض التلميحات حول أن تي كيك يحاول سلبها مالها لكي

ترى وتعرف. أنا أحب تلك السيدة ومن المؤكد أنني لا أريد أن أراها تصبح مثل السيدة تايلور».

«أوه يا إلهي لا! من الأفضل أن أمر عليها غدًا وأتحدث إليها. إنها فقط لا تفكر فيما تفعله، هذا كل ما في الأمر».

في الصباح التالي توجهت فيبي نحو منزل جاني مثل دجاجة تتوجه إلى حديقة جيرانها. وقفت وتحدثت قليلًا ما كل من لاقته، ومرت على بضع شرفات أيضًا.

بدت جاني سعيدة برؤيتها، وبعد قليل فتحت فيبي الموضوع، «الجميع يتحدثون يا جاني أن تي كيك يسحبك إلى أماكن لم تعتادي الذهاب إليها. مباريات البيسبول والقنص والصيد. إنه لا يعرف أنك أرفع من ذلك. لقد كنت دائمًا تبتعدين عن بقية الناس».

«جودي أبعدني عن الناس. لست أنا من فعل ذلك. ولا يا فيبي، تي كيك لا يسحبني إلى أماكن لا أريد الذهاب إليها. لقد وددت دائمًا أن أتمكن من التجول هنا وهناك، لكن جودي لم يكن يسمح لي. عندما لم أكن في المتجر كان يريد مني أن أجلس مكتوفة اليدين فقط في البيت. ولقد بقيت هناك بين تلك الجدران التي تضيق على روحي وتسحب الحياة مني. النسوة المتعلمات يا فيبي لديهن العديد من الأشياء التي يحتجن إلى الجلوس والتفكير فيها. ولا يخبرهن أحد أن عليهن الجلوس. لم يخبرني أحد بذلك، لذلك فالبقاء ساكنة يقلقني. أريد أن أنتفع من نفسي بالكامل».

«ولكن يا جاني، تي كيك ليس من النوع الذي يهتم بالزواج، ولا يملك أي مال. ألست خائفة من أنه يسعى خلف مالك - بما أنه أصغر منك سنًا؟»

«إنه لم يطلب مني قرشًا بعد. ولو أنه يحب أن يمتلك شيئًا فبذلك هو مثلنا جميعًا. كل أولئك الرجال الذين يجلسون حولي يبحثون عن الشيء ذاته.

هناك ثلاث أرامل غيري في المدينة لمَ لا يلاحقونهن؟ لأنهن لا يملكن شيئًا. ذلك هو السبب».

«يراكِ الناس وأنت ترتدين الملابس الملونة ويظنون أنكِ لا تظهرين الاحترام الكافي لزوجك الراحل».

«أنا لست في حداد. فلمَ يتوجب عليّ أن أتظاهر؟ يحب تي كيك أن أرتدي اللون الأزرق، لذا أرتديه. لم يسبق أن اختار جودي لونًا لي خلال حياته. يختار الناس الأسود والأبيض للحداد، لكن جودي لم يفعل ذلك. لذا فأنا لم أكن أرتديه لأجله بل ارتديته لأجلكم».

«على كل حال انتبهي يا جاني ولا تدعي أحدًا يستغلكِ. أنت تعرفين كيف يتصرف أولئك الصبية مع النساء الأكبر منهم. في معظم الأوقات يسعون إلى ما يريدون نيله، ومن ثم يختفون مثل قطع الديك الرومي في فطيرة الذرة».

«تي كيك لا يتصرف بهذا الشكل. فهو يريد أن يبقى معي دومًا. ولقد قررنا أن نتزوج».

«أنت امرأة ناضجة يا جاني، وأتمنى أن تعرفي ما تقومين به. أتمنى ألا تكوني قد تسرعت – فكلما كبرت قلّت حساسيتك. كنت سأطمئنّ أكثر لو أنكِ تزوجت ذلك الرجل في سانفورد. فلديه أشياء ليضعها بجانب أشيائك لتصبح أضخم. وهو محتمل حتى».

«ورغم ذلك أفضل أن أكون مع تي كيك».

«حسنًا، لو أنك عقدت العزم على ذلك فليس هناك شيء نفعله. ولكنك تتخذين قرارًا خاطئًا».

«ليس أسوأ مما اتخذته في السابق، وليس أسوأ من أي قرار اتخذه أي شخص عندما عزم على الزواج. لأن الزواج يغير الناس دومًا، وفي بعض

الأحيان يظهر صفاتهم السيئة التي لم يكونوا هم ذاتهم يعلمون أنها فيهم. تعرفين ذلك. ربما سيتضح أن تي كيك من هذا النوع، وربما لا. لكن على كل حال فأنا مستعدة لتجربة حظي».

«حسنًا، متى تنوين فعلها؟»

«ذلك ما لا نعرفه. فالمتجر يجب أن يباع وبعدها سنرحل إلى مكان ما لنتزوج».

«لمَ ستبيعين المتجر؟»

«لأن تي كيك ليس جودي، ولو حاول أن يكون مثله سيكون ذلك إخفاقًا كبيرًا. ولكن في اللحظة التي سأتزوجه فيها سيبدأ الناس في إجراء المقارنات. لذا فسننتقل إلى مكان ما وسنبدأ من جديد على طريقة تي كيك. والأمر ليس متعلقًا بالتجارة، وليس محاولة للركض خلف الممتلكات والألقاب. هذه لعبة الحب. لقد اكتفيت من العيش على طريقة جدتي، والآن أنوي العيش بطريقتي».

«ما الذي تعنينه يا جاني؟»

«لقد ولدت جدتي في زمن العبودية حيث لم يكن بوسع السود أن يقرروا متى يجلسون حتى، لذلك بدا لها شيء بسيط مثل الجلوس على الشرفة مثل امرأة بيضاء وكأنه شيء عظيم. وهذا ما أرادته لي ـــ بغض النظر عما يكلف الأمر. اصعدي إلى كرسي عالٍ وأجلسي هناك. لم يكن لديها الوقت لتفكر فيما يحدث بعد أن أجلس هناك. لقد صعدت على الكرسي العالي كما أخبرتني، ولكن يا فيبي لقد أصبت بالوهن حتى الموت في ذلك الكرسي. لقد أحسست أن العالم يتسارع بينما لم أقرأ سوى العناوين الرئيسية له».

«ربما الأمر كذلك يا جاني. أود أن أختبر هذا العالم لمدة عام، فهو يبدو لي

الآن كالجنة من المكان الذي أنا فيه».

«أظن ذلك».

«على كل حال يا جاني خذي حذرك من مسألة البيع هذه والانطلاق بعيدًا مع رجل غريب. انظري ماذا حدث لآني تايلور. فلقد أخذت القليل الذي تملكه وانطلقت إلى تامبا مع ذلك الفتى الذي يدعى هوو فلونغ. إنه أمر يجب أن تفكري فيه».

«بالتأكيد إنه كذلك. لكنني لست السيدة تايلور وتي كيك ليس ذاك المدعو هوو فلونغ، وهو ليس غريبًا بالنسبة لي. فنحن الآن وكأننا متزوجان. لكنني أخبرك أنت فقط بهذا الأمر ولن أعلن ذلك للعامة الآن».

«أنا مثل الدجاجة. الدجاجة تشرب الماء، لكنها لا تتبول».

«نعم أنا أعرف أنك لا تثرثرين. لسنا خجلين أو أي شيء. لكننا لسنا مستعدين للتسبب بهذه الضجة بعد».

«أنت تفعلين الصواب بالتكتم على الأمر، لكنك تقومين بمجازفة كبيرة يا جاني».

«ليست مجازفة كبيرة كما تبدو يا فيبي. نعم أنا أكبر من تي كيك لكنه لا يفكر في أمر الفروقات العمرية. ولو كان جميع الناس يفكرون مثله فبإمكانهم أن ينجحوا الأمر. ولكن في البدء يجب أن تطرح كل الأفكار وتقال كل الكلمات. وبعد ذلك تصبح الأمور على ما يرام. انتظري لترى الفستان الحريري الأزرق الذي اختاره لي تي كيك لأرتديه عندما سنرحل. الحذاء ذو الكعب العالي، القلادة، الحلقان، وكل شيء يود أن يراني أرتديه. في أحد هذه الأيام سوف تستيقظين وتنادينني وسأكون قد رحلت، ولكن يكون ذلك الأمر بعد مدة طويلة».

# 13

جاكسونفيل. لاحقًا قال تي كيك جاكسونفيل. لقد عمل هناك في متاجر السكك الحديدية من قبل ورئيسه السابق وعده بوظيفة حال عودته. لذا فليس هناك داعٍ لتنتظر جاني أكثر. كان عليها أن ترتدي الفستان الأزرق الجديد لأنه سيتزوجها حالما ينزلان عن القطار. كان عليها أن تعجل في المجيء لأنه كان يتحول إلى سكر نقي من كثرة التفكير فيها. «تعالي يا حلوتي، لأن بابا تي كيك لن يكون غاضبًا منك أبدًا».

رحل قطار جاني مبكرًا جدًا فلم تشاهد المدينة كلها الأمر، ولكن القليلين الذين رأوها تذهب نادوا العديد من الشهود. كان عليهم أن يعترفوا أنها بدت جميلة جدًا، لكنها لا تعرف ما تفعله. من الصعب أن تحب امرأة تجعلك تحس دومًا أنك تواق جدًا.

عزف القطار لنفسه وتحرك في القضبان الحديدية اللامعة ميلًا بعد ميل. بين الحين والآخر كان المهندس يطلق صفارته للناس الذين في المدينة التي يمر بها. وظل القطار يمضي نحو جاكسونفيل، ونحو أشياء كثيرة تمنت أن تراها وتعرفها.

هناك في المحطة القديمة كان تي كيك منتظرًا وهو يرتدي بذلة زرقاء جديدة وقبعة؛ أخذها إلى بيت القس قبل كل شيء. ومن ثم مباشرة إلى الغرفة التي كان ينام فيها وحيدًا لأسبوعين في انتظار مجيئها. وبدأ يحتضنها ويقبلها ويحملها بطريقة لم تعهدها من قبل. جعلها الأمر سعيدة للغاية لدرجة أنها خافت من نفسها. مكثا في المنزل ليستريحا في تلك الليلة، ولكن في الليلة

التالية ذهبا إلى عرض وبعدها استقلا عربة ليتفقدا الأمور بنفسيهما. كان تي كيك ينفق ويبذل من جيبه الخاص، لذلك لم تخبره جاني قط عن المائتي دولار التي كانت قد علقتها داخل قميصها. لأن فيبي أصرت على أن تأخذها وتضعها جانبًا لاستخدامها متى احتاجت لها. وكانت تضع عشرة دولارات في جيبها. ليظن تي كيك أن هذا كل ما تملكه. ربما لن تصبح الأشياء مثلما فكرت. في كل دقيقة منذ أن نزلت عن القطار كانت تضحك على مشورة فيبي. كانت تنوي أن تخبر تي كيك عن الأمر ذات مرة عندما تصبح متأكدة أن ذلك لن يجرح مشاعره. بعد أن مر على زواجهما أسبوع، أرسلت بطاقة وصورة لفيبي.

في ذلك الصباح استيقظ تي كيك مبكرًا واستيقظت جاني بعده. أحست بالنعاس وأخبرته أن يذهب لجلب سمك لقليه للفطور. أخبرها أنه سيفعل فتقلبت وعادت لتكمل نومها. استيقظت من النوم وتي كيك لم يكن هناك وكانت الوقت قد تأخر، لذا فقد نهضت وغسلت وجهها ويديها. ربما كان في المطبخ يقلي السمك ليدعها تنام. نزلت جاني إلى الأسفل وجعلتها صاحبة المنزل تتناول القهوة معها لأنها قالت إن زوجها متوفي ومن السيء أن تشرب القهوة بمفردها.

«لقد ذهب زوجك للعمل اليوم يا سيدة وودز أليس كذلك؟ لقد رأيته يخرج مبكرًا. أنا وأنت يمكن أن نشكل رفقة جيدة لبعضنا أليس كذلك؟»

«قطعًا يا سيدة صامويل. فأنت تذكرينني بصديقتي المقربة هناك في إيتونفيل، لأنك لطيفة وودودة مثلها».

تناولت جاني قهوتها وعادت إلى غرفتها دون أن تقول أي كلمة لصاحبة المنزل. لابد أن تي كيك يبحث في المدينة كلها عن ذلك السمك. وضعت هذه الفكرة في ذهنها لكي لا تفكر في الأمر. عندما رأت أن الساعة أصبحت

الثانية عشرة بدأت ترتدي ثيابها. حينها اكتشفت أن المائتي دولار خاصتها قد اختفت. كانت محفظتها فارغة في الكرسي تحت أغراضها ولم يكن المال في أي مكان في الغرفة. عرفت منذ البداية أن المال لم يكن في أي مكان فكرت فيه ولا حتى في الحقيبة الصغيرة المثبتة بسترتها. ولكن عملية البحث في الغرفة أبقتها منشغلة عن التفكير، رغم أنها لم تكن تفعل شيئًا سوى الدوران في مسارات.

لكن، ومهما كان عزمك فلن تستطيع الدوران في حلقات مفرغة كالحصان الذي يتوق إلى قصب السكر. لذا فقد جلست جاني في الغرفة. جلست وانتظرت. بدت الغرفة من الداخل مثل فم تمساح، مفتوحة على اتساعها لابتلاع شيء ما. في الخارج بدا المكان وكأنه يحتاج إلى سياج حوله حتى لا يهرب من حضن الأثير. كانت الغرفة كبيرة جدًا على أن تكون دافئة، دعك من حاجتها إلى شخص مثلها. طوال الليل والنهار كانت تراقب الوقت بريبة.

في الصباح الباكر أتت صورة آني تايلور وهوو فلونغ لتزورها. آني تايلور التي كانت بعمر الثانية والخمسين أصبحت أرملة وترك لها زوجها منزلًا جيدًا وأموال تأمين.

فكرت في السيدة تايلور مع شعرها المصبوغ والمفرود حديثًا، وأسنانها الاصطناعية غير المريحة وبشرتها المدبوغة، والمبقعة بالبودرة وهي مرتدية نظارتها. فكرت في علاقاتها العاطفية، العلاقات التي كانت تعقدها السيدة تايلور مع صبية في أواخر مراهقتهم أو في بداية العشرينيات والذين كانت تنفق عليهم أموالها، تشتري لهم السترات، والأحذية والساعات الجديدة والذين كانوا يتركونها حالما يرضون احتياجاتهم. وبعد أن نفدت كل الأموال السائلة التي تملكها، ظهر هوو فلونغ الذي مارس حيله عليها وأخذ منزلها.

كان هو من أقنعها أن تبيع منزلها وأن تنتقل إلى تامبا برفقته. المدينة كلها رأتها وهي تعرج مغادرة. كان الحذاء ذو الكعب العالي يعاقب قدميها اللتين بدتا متورمتين. كان جسدها مضغوطًا بمشد جعل جزئها العلوي يصل حتى أسفل ذقنها. لكنها غادرت سعيدة وواثقة. واثقة كما كانت جاني. وبعد أسبوعين فحسب، ساعدها الحمال والمحصل في القطار المتجه إلى الشمال على النزول في ميتلاند. كان شعرها بأكمله رماديًا وأسود، ومزرق ومحمر بخطوط مختلفة. كل نبات الكبر الرخيص الذي يستعمل للصبغ كان يظهر في شعرها. تلك النعال كانت مهترئة وبالية تمامًا مثل قدميها المتعبتين. وقد اختفى المشد وظهرت المرأة المكتنزة المهتزة في جميع أنحائها. كل ما تستطيع رؤيته كان معلقًا أمامك. ذقنها كان متدليًا من أذنيها ويتموج أسفل عنقها مثل الستائر. ثدياها المتدليان ومعدتها وأردافها وساقاها كانوا يهتزون فوق كاحليها. كانت تتأوه ولم تضحك قط.

كانت منكسرة وقد اختفى كبرياؤها، لذلك فقد أخبرت كل من سألها عن القصة. كان فلونغ قد أخذها إلى غرفة رديئة في منزل رديء في حي رديء، ووعدها أن يتزوجها في اليوم التالي. بقيا في الغرفة يومين كاملين لتستيقظ في الثالث فتجد فلونغ وأموالها قد اختفيا. لقد بحثت في الأنحاء علها تجده لكنها تعبت من البحث. كل ما وجدته هو أنها كانت عجوزة جدًا. في اليوم التالي أخرجها الجوع لتقف في الشارع. في البداية وقفت وابتسمت وابتسمت، ثم ابتسمت وتسولت، ثم تسولت فقط. بعد مرور أسبوع على ذلك وجدها شاب صغير من البلدة لكنها لم تستطع إخباره عما حدث، كل ما قالته له إنها نزلت من القطار وسرق أحد ما كل أموالها. وبطبيعة الحال فقد أخذها معه لمنزله لترتاح ليوم أو اثنين ثم اشترى لها تذكرة قطار لتعود إلى المنزل.

وضعوها في الفراش وأرسلوا في طلب ابنتها التي كانت متزوجة وتعيش في أوكلاهوما لتأتي لرؤيتها. أتت الابنة بأسرع ما يمكنها وأخذت والدتها بعيدًا لتموت بسلام. لقد انتظرت معظم حياتها لأجل شيء قتلها في النهاية.

أصبحت الأمور تبدو على هيئة صور تسبح داخل جاني طوال الليلة. على كل حال، لم تكن لتعود إلى إيتونفيل لكي يضحك عليها الجميع ويشفقوا عليها. كان لديها عشرة دولارات في يدها، وألف ومائتي دولار في البنك. ولكن تمنت من الرب ألا يكون تي كيك في ورطة وهي لا تعلم ذلك. وتمنت أيضًا ألا يكون قد أحب شخصًا غيرها. «ربما كنت حمقاء كما يقولون يا إلهي، لكن يا رب لقد كنت وحيدة تمامًا، ولقد انتظرت كثيرًا يا يسوع. لقد انتظرت لوقت طويل جدًا».

نامت جاني، ولكنها استيقظت في الوقت المناسب لترى الشمس ترسل جواسيسها لكي تنير الطريق خلال الظلام. ومن ثم ظهرت الشمس من حافة باب العالم ورسمت حماقات صغيرة باللون الأحمر. ولكن بعد فترة تركت الشمس كل هذا واتجهت لتكمل عملها منيرة السماء كلها. ولكن كان العالم كله سيظل مظلمًا بالنسبة لجاني لو لم يعد تي كيك قريبًا. نهضت عن فراشها لكن المقعد لم يكن ليحملها. فجلست على الأرض ووضعت رأسها على الكرسي الهزاز.

بعد فترة كان هناك شخص يعزف غيتارًا أمام بابها. يعزف بطريقة جيدة جدًا. ويبدا الصوت محببًا أيضًا. ولكن كان من المحزن سماعه بسبب ما كانت تحس بها جاني. ومن ثم، أيًا كان ذلك الشخص فقد بدا يغني «اقرع أجراس الرحمة. ونادِ الآثم ليعود للمنزل». واختنق قلبها.

«تي كيك أهذا أنت؟»

«تعرفين جيدًا أنه أنا يا جاني. لمَ لا تفتحين الباب؟»

لكنه لم ينتظر أبدًا. دخل بغيتاره وابتسامته. غيتار معلق من رقبته بحبل أحمر وابتسامة معلقة من أذنيه.

«لا تحتاجين لأن تسأليني أين كنت طوال اليوم، لأن عملي أن أخبرك».

«تي كيك، أنا --»

«يا إلهي يا جاني، لم تجلسين على الأرض هكذا؟»

أخذ رأسها بين ذراعيه وجلس في الكرسي. لكنها لم تقل أي شيء. ظل يداعب شعرها وينظر في وجهها.

«أعرف ما الأمر. أنت تشكين فيّ بخصوص المال. ظننت أنني أخذته وهربت. لا ألومك ولكن الأمر لم يكن كما فكرتِ. لقد أخبرتك قبل ذلك أنك تملكين مفاتيح المملكة. يمكنك الاعتماد على ذلك».

«رغم كل ذلك فلقد ذهبت وتركتني وحيدة طوال اليوم وطوال الليلة».

«لم يكن الأمر أنني أردت أن أبقى خارجًا كل هذه المدة. لو لم تكوني تملكين القوة للتمسك بي، التمسك بي بشكل جيد لما كنت لأدعوك السيدة وودز. لقد عرفت الكثر من النسوة قبلك. أنت المرأة الوحيدة في العالم التي طلبت منها الزواج. وحقيقة أنك أكبر مني في السن لا تشكل فرقًا. لا تفكري في هذا الأمر مجددًا. إذا حاولت أبدًا أن أقترب من امرأة فلن يكون لذلك علاقة بسنها. سيكون الأمر أنها عرفت كيف تتمكن مني كما فعلتِ أنت – وهو أمر لم أستطع مقاومته».

جلس إلى جانبها وبدأ في تقبيلها ومداعبتها حتى ابتسمت.

«اسمعوا يا جماعة»، تحدث لجمهور متخيل، «الأخت وودز على وشك

ترك زوجها!»

ضحكت جاني وسمحت لنفسها بالاتكاء عليه. ومن ثم قالت لنفس الجمهور، «لقد وجدت السيدة وودز ديكًا صغيرًا جديدًا، لكنه ذهب إلى مكان ما ولم يخبرها».

«في البدء دعينا نتناول الطعام سوية يا جاني ومن ثم سأخبرك بكل شيء».

«لن أرسلك لشراء أي سمك». قرصها وتجاهل ما قالته. «لا حاجة ليعمل أي منا هذا الصباح، نادي السيدة صامويل ودعيها تعد ما تريدينه».

«تي كيك، لو لم تسرع بإخباري ما حدث سوف أطرق رأسك حتى يصبح مسطحًا مثل العشرة سنتات».

لم يتحدث تي كيك حتى تناول إفطاره ثم بدأ في رواية القصة.

لقد رأى المال عندما كان يهم بارتداء ربطة عنقه. أخذه ونظر إليه بداعي الفضول ثم وضعه في محفظته كي يعده بينما كان ذاهبًا لشراء السمك. عندما عرف كم كان المبلغ أحس بالإثارة وأراد أن يجعل الجميع يحسون بمقدار أهميته. قبل أن يصل إلى سوق السمك رأى صديقًا كان يعمل معه في مبنى إصلاح القاطرات. كلمة جرّت الأخرى، وفي وقت قليل قرر أن ينفق بعضًا من المال. لم يضع من قبل يديه على مثل هذا المبلغ طوال حياته، لذلك فقد قرر أن يعرف كيف سيكون شعور أن يصبح مليونيرًا. حينها ذهبا إلى كالهان قرب متاجر السكك الحديدية وقرر أن يقدم دجاجًا ومكرونة كعشاء مجاني للجميع.

دفع للنُدل لكي يستأجروا شخصًا يعزف الغيتار، لكي يتمكنوا من الرقص طوال الليلة. وأرسلوا في طلب الناس من جميع الأنحاء. وقد أتى الناس بالفعل. وقد كان هناك طاولة كبيرة مليئة بالدجاج المقلي وخبز

البسكويت والمكرونة المغطاة بالجبن. عندما حمل الأخ الغيتار بدأ الناس يأتون من الشرق والغرب، ومن أستراليا حتى. وقد وقف على الباب ودفع لكل واحدة من النسوة القبيحات دولارين حتى لا تدخل. امرأة ملونة ضخمة كانت قبيحة لدرجة استحقت خمسة دولارات بحالها، لذلك فقد أعطاها لها.

قضوا وقتًا ممتعًا حتى أتى رجل ظنوا أنه سيء. حاول أخذ وسحب كل الدجاج وانتقاء الكبد والحوصلات لتناولها. لم يستطع أحد تهدئته لذا فقد نادوا تي كيك ليرى لو كان بإمكانه إيقافه. مشى تي كيك نحوه وسأله، «إذن، ما الأمر؟»

«لا أريد من أحد أن يقدم لي شيئًا. وتحديدًا أن يحاول إعطائي حصصًا معينة من الطعام. لأنني دائمًا ما أختار المقدار الذي أود تناوله بنفسي». واستمر يلتهم طبق الدجاج. لذا استشاط تي كيك غضبًا.

«لديك جرأة أكبر من قرد نحاسي. أخبرني، في أي مكتب بريد تبولت من قبل؟ لدي فضول لأعرف».

«ما الذي تعنيه بذلك؟» سأل الرجل.

«ما أعنيه أن الأمر يتطلب جرأة لكي تعربد في مكتب بريد في الولايات المتحدة الأمريكية كما هو الأمر عندما تأتي لتأخذ وتلتهم الدجاج الذي اشتريته أنا بمالي. اخرج من هنا. لو لم تكن تريدني أن أوسعك ضربًا اليوم».

خرج الجميع لكي يروا لو كان بإمكان تي كيك أن يوسع ذلك الوحش ضربًا. كسر تي كيك اثنين من أسنانه، وذهب الرجل مهزومًا. ومن ثم حاول رجلان أن يفتعلا مشكلة ما بينهما، لكن تي كيك أخبرهما أنهما يجب أن يقبلا بعضهما ويتصالحا. لم يكونا يريدان فعل ذلك. كان يفضلان أن يذهبا إلى

السجن بدلًا عن ذلك، لكن الجميع أحبوا الفكرة، لذا فقد أجبروهما على فعلها. وبعدها، مسحا كليهما شفتاهما بأيديهما وبصقا وتقيئا. أحدهما خرج وتناول عشبًا كما لو كان كلبًا مريضًا، وقال إن ذلك كي لا يموت جراء الأمر.

وبعدها أخذ الجميع يصرخون بسبب الموسيقى لأن الرجل لم يكن يجيد سوى ثلاث أغانٍ. لذا فقد أخذ تي كيك الغيتار وغنى بنفسه. كان سعيدًا بالفرصة لأنه لم يضع يده على غيتار منذ أن اضطر إلى رهن غيتاره لكي يؤجر السيارة لأجل جاني بعد فترة وجيزة من لقائه بها. كان قد اشتاق إلى موسيقاه. وقد جعله الأمر يرغب في امتلاك واحد في الحال. لذا فقد اشترى منه الغيتار في الحال وأعطاه خمسة عشر دولارًا مقابله. رغم أنه كان ليستحق خمسة وستين في أي يوم آخر.

وقبل طلوع الشمس بقليل كانت الحفلة قد انتهت. لذا فقد هرع تي كيك عائدًا لزوجته الجديدة. كان قد عرف شعور أن تكون شخصًا غنيًا واشترى غيتارًا جيدًا وتبقى اثني عشر دولارًا في محفظته وكل ما كان يحتاجه هو حضن كبير وقبلات من جاني.

«لابد أنك فكرت أن زوجتك قبيحة لدرجة لا توصف. فأولئك النساء اللاتي أعطيتهن دولارين تمكنّ من الوصول حتى الباب. أما أنا فلم تسمح لي حتى بالاقتراب بهذا القدر». قالت عابسة.

«كنت لأهب جاكسونفيل وتامبا لكي أتمكن من العودة إليكِ لتكوني هناك معي. لقد فكرت في أن آتي لآخذك مرتين أو ثلاث».

«حسنًا، لِمَ لم تأتِ لأخذي إذن؟»

«أكنت ستأتين يا جاني؟»

«بالطبع سأفعل. فأنا أحب أن أمرح مثلك تمامًا».

«لقد أردت ذلك يا جاني، أردت ذلك بشدة، لكن الرب يعلم أنني كنت أخاف فقدانك».

«لم؟»

«إنهم لم يكونوا من علية القوم. لقد كانوا عمال السكك الحديدة ونسائهم. أنت لم تعتادي على هذا النوع من الناس، ولقد خفت أن تغضبي وتتركيني لأنني أخذتك بينهم. ولكنني أردت أن تكوني معي كما أردتِ أنتِ. قبل أن نتزوج عاهدت نفسي على ألا أدعك ترين أي رعاعة فيّ. وعندما أبدأ بالتصرف بجنون أفضل أن أكون بعيدًا عن ناظريك. ليست فكرتي أن أجرك لهذا الجنون».

«انظر يا تي كيك، لو حاولت مرة أخرى أن تخرج دوني وتستمع بوقتك كما فعلت هذه المرة وعدت لتخبرني كم كنت مستمتعًا، سوف أقتلك. أتسمعني؟»

«إذن فأنت تنوين مشاركتي في كل شيء؟»

«نعم يا تي كيك، بغض النظر عما ماهيته؟»

«هذا كل ما أود معرفته. من هذه اللحظة أنتِ زوجتي وامرأتي وكل شيء أحتاجه في العالم».

«أتمنى ذلك».

«أوه يا حبيبتي لا تقلقي بشأن المائتي دولارٍ خاصتك لأن يوم المراهنات الكبير سوف يعقد في ساحة السكك الحديدية وأنوي أن أخذ تلك الاثني عشر دولارًا لأكسب مالك وأكثر».

«كيف؟»

«بما أنك لم تضيقي الخناق عليّ ومنحتني الأفضلية لأخبرك عن نفسي، فسوف أخبرك. لقد تزوجت واحدًا من أفضل المقامرين الذين صنعهم الرب. في لعبة الورق أو الزهر. يمكنني أخذ رباط حذاء وأكسب منه ساحة دباغة. أتمنى لو بإمكانك رؤيتي. ولكن هذه المرة لن يكون هناك سوى رجال أقوياء يتحدثون بطريقة رجولية لذا فلن يكون وجودك هناك مناسبًا، لكن لن يمر وقت طويل قبل أن تريني».

طوال الأسبوع كان تي كيك مشغولًا بالتمرن على الزهر. كان يقلبهم على الأرضية، على السجادة وعلى السرير. كان يقرفص ويرميهم، يجلس على كرسي ويرميهم، ويقف ويرميهم. كان الأمر مثيرًا جدًا بالنسبة لجاني التي لم ترَ زهرًا من قبل في حياتها. ومن ثم يأخذ أوراق اللعب ويقلبها ويشكلها، يلفها ويقسمها ويدرس كل مجموعة في يده بعناية، وكذا يستمر في اللعب. بعدها حل يوم السبت. فخرج واشترى سكينتين يغير نصلهما وأوراق اللعب التي عليها نجوم في الخلف ومن ثم غادر.

«سوف يبدأون في الدفع خلال وقت قريب. أريد أن أصل بينما لا يزال هناك أموال كبيرة. فلا حاجة لي للأموال القليلة اليوم. سوف أعود بالمال أو أعود على نقالة». قص تسعة خصلات من شعرها لجلب الحظ وغادر.

انتظرت جاني حتى منتصف الليل دون أن تقلق، ولكن بعد ذلك بدأت تحس بالخوف. لذا فقد نهضت بتوجس وكآبة. كانت تفكر وتخشى جميع أنواع المخاطر. تتساءل في نفسها كما فعلت عدة مرات خلال هذا الأسبوع حيال كونها غير مصدومة من حقيقة أن تي كيك كان مقامرًا. كان ذلك جزءًا منه، لذلك كان الأمر عاديًا. بل على العكس فقد وجدت نفسها غاضبة على الناس المتخيلين الذين قد يحاولون انتقاده. دع المنافقين القدامى يتعلمون أن يهتموا بشؤونهم الخاصة، ويتركوا الآخرين لحالهم. لم يفعل تي كيك شيئًا أكثر

ضررًا بمحاولته كسب المال مما يفعلونه هم دائمًا بألسنتهم الكاذبة. كان لدى تي كيك خصائص جيدة داخل روحه أكثر من تلك التي لدى من يسمون أنفسهم القلوب المسيحية. من الأفضل ألا تسمع أيًا من أولئك المغتابين يتحدث عن زوجها! رحمتك يا يسوع، لا تدع أولئك الزنوج السيئين يؤذون فتاها. وإذا فعلوا ذلك يا سيدي المسيح، فامنحها بندقية جيدة وفرصة لتطلق عليهم النار. كان تي كيك يحمل سكينًا هذا صحيح، ولكن ذلك كان فقط لحماية نفسه. الرب وحده يعلم، أن تي كيك لا يؤذي ذبابة. كان ضوء النهار يزحف حول شقوق العالم عندما سمعت جاني طرقًا ضعيفًا على الباب. أسرعت نحو الباب وفتحته على مصراعيه. كان تي كيك يقف هناك وكأنه كان نائمًا بطريقة غريبة، كان الأمر مخيفًا. امسكت جاني بذراعه لإيقاظه فترنح وسقط في الغرفة.

«تي كيك! يا طفلي! ما الأمر حبيبي؟»

«لقد جرحوني، هذا كل ما في الأمر. لا تبكي. انزعي عني هذه السترة بأسرع ما يمكنك».

أخبرها أنهم جرحوه مرتين فقط لكن كان عليها أن تخلع ملابسه وتتأكد بنفسها وتحاول معالجته على قدر استطاعتها. أخبرها ألا تطلب الطبيب إلا لو ساءت حالته أكثر. فقد كان الأمر على الأغلب أنه فقد القليل من الدماء.

«لقد كسبت المال كما أخبرتك. خلال منتصف الليل كنت قد كسبت المائتي دولار كلها وقررت ألا أكمل اللعب رغم أنه كان هناك المزيد من الأموال. ولكنهم أرادوا فرصة لاسترداد ما خسروه فجلست لألعب أكثر. كنت أعلم أن ذلك الوغد دابيل أغلي كان قد أفلس وكان سيبدأ في التشاجر لهذا السبب، لذا فقد جلست لأعطيه فرصة أخرى لكسب ماله ومن ثم أرسله إلى الجحيم لو حاول أن يستعمل موس الحلاقة التي رأيتها في جيبه.

لم يعد الناس يلهون بالأمواس يا حبيبتي فالرجل الذي يحمل السكين سوف يشرحك بينما لا تزال تلهو بموسك. لكن ذلك الوغد دابيل أغلي كان سريعًا جدًا في التسبب بالضرر، وقد كنت أعرف ذلك.

في حوالي الساعة الرابعة كنت قد سلبتهم كل أموالهم ـــ جميعهم ما عدا رجلين غادرا بينما كانا لا يزالان يملكان أموال البقالة، وآخر كان محظوظًا. لذا فقد نهضت لأودعهم. لم يجب أي منهم الأمر لكنهم كانوا يعرفون أنه كان عادلًا. فلقد أعطيتهم فرصة لاسترداد أموالهم. جميعهم كانوا يفهمون ذلك ما عدا دابيل أغلي. فقد ادعى أنني بدلت الزهر. أدخلت النقود في جيبي وحملت قبعتي ومعطفي في يدي اليسرى ووضعت يدي اليمنى على السكين. لم أكن أهتم بما يقوله طالما أنه لن يقوم بحركة غادرة. بينما كنت أشرع بالتوجه نحو الباب قفز نحوي وجرحني مرتين في ظهري. لكنني أسرعت للانقضاض على ذلك الغادر من عنقه يا حبيبتي، مثل الجائع الذي ينقض على الأرز، بيدي التي كانت تحمل المعطف. أسقط موسه وهو يحاول التخلص مني، ولكنه لم يستطع يا حبيبتي. وبعد أن فرغت منه تركته هناك على الأرض وعدت إليكِ بأسرع ما يمكنني. أعرف أنه لم يجرحني بعمق لأنه كان خائفًا من الاقتراب مني كثيرًا. حاولي تغطية الجرح بضمادة وسأكون بخير بعد يوم أو اثنين».

كانت جاني تبكي. «لست أنت من يتوجب عليها أن تبكي يا جاني. بل امرأة دابيل أغلي هي من يجب أن تفعل ذلك. لقد جلبتِ لي الحظ السعيد. ابحثي في جيب بنطالي وانظري ما الذي أحضره حبيبك لأجلك. عندما أخبرتك أنني سأحضره لك لم أكن أكذب».

عدا المبلغ معًا ـــ كان ثلاثمئة وعشرون دولارًا. بدا الأمر كما لو كان تي كيك هو صراف الرواتب. فقد جعلها تأخذ المائتي دولار وتخبئها في مكانها

السري. ثم أخبرته جاني عن المال الآخر الذي كانت تملكه في البنك.

«ضعي هذه المائتي دولار مع باقي الأموال يا جاني. فأنا لا أحتاج أي مساعدة لإطعام امرأتي. من الآن وصاعدًا سوف تأكلين وتلبسين أي شيء توفره أموالي. عندما لا أحصل على شيء لا تحصلين على شيء أيضًا».

«هذا جيد بالنسبة لي». كان ناعسًا، لكنه قرصها بلطف في ساقها لأنه كانت ممتنًا أنها تفهمت الأمور كما أراد منها أن تفعل. «اسمعي يا ماما، حالما تطيب جروحي سوف نقوم بشيء جنوني معًا».

«ما هو؟»

«سوف نذهب إلى حقول الوحل».

«أين هي حقول الوحل؟»

«هناك في إيفرغليدز بالقرب من كلويستون وبل غليد حيث يزرعون قصب السكر والفاصوليا والطماطم. الناس هناك لا يفعلون أي شيء سوى جني الأموال والمرح. لابد أن نذهب إلى هناك».

نظرت إليه جاني وهو ينجرف في النوم وأحست بحب عميق تجاهه، فزحفت روحها من مخبأها البعيد.

# 14

لعيون جاني الغريبة، كان كل شيء في إيفرغليدز كبيرًا وجديدًا. بحيرة أوكيتشوبي الكبيرة، الفاصوليا الكبيرة، الحشائش الكبيرة، كل الأشياء الكبيرة. الحشائش التي كانت تنمو جيدًا كان طولها يصل أحيانًا إلى ثمانية وغالبًا عشرة أقدام. الأرض كانت غنية جدًا لدرجة أن كل شيء صار جامحًا. قصب السكر يتخذ مكانه. الطرق الترابية كانت غنية وسوداء بحيث أن نصف ميل منها يمكن أن يخصب حقول قمح كانساس بأكملها. قصب السكر الجامح على جانبي الطريق كان يخفي بقية العالم. الناس أيضًا كانوا جامحين.

«الموسم لا يفتتح إلا في آخر شهر سبتمبر، ولكننا جئنا إلى هناك مبكرين لكي نحصل على غرفة». شرح تي كيك، «بعد أسبوعين من الآن سيكون كل الناس هنا ولن تكون هناك غرف تكفي الجميع، وسوف يبحثون عن أي مكان ليناموا فيه. لكن الآن كان لدينا فرصة لإيجاد غرفة في الفندق، حيث هناك حوض استحمام. لا يمكنك العيش في حقول الوحل ما لم تتمكني من الاستحمام كل يوم. لأن كل ذلك الطين سيستحكك كالنمل. وليس هناك سوى مكان واحد هنا به حمامات. ولكن غرفه محدودة».

«ما الذي سنفعله هنا؟»

«طوال النهار سوف أقوم بجمع الفاصوليا. وطوال الليل سأعزف الموسيقى وألعب بالزهر. بين الفاصوليا والزهر لا يمكن أن أخسر أبدًا. سأذهب الآن لأحصل على عمل مع أفضل شخصٍ هنا في الحقول. قبل أن

يأتي الباقون إلى هنا. يمكنك دائمًا الحصول على وظيفة هنا في هذا الموسم، لكن يجب أن تختاري قومًا جيدين».

«متى سيبدأ العمل يا تي كيك؟ فالجميع هنا يبدون وكأنهم ينتظرون ذلك».

«هذا صحيح. لدى الرجال الكبار وقت محدد لافتتاح الموسم مثل أي شيء آخر. رئيسي في العمل لا يحضر بذورًا اصطناعية. فهو يخرج لكي يبحث عن جِوالات بذور إضافية. ومن ثم نقوم بزراعتها».

«جوالات؟»

«نعم جوالات. هذه ليست لعبة بنسات قليلة. فرئيسي لا علاقة له بكل ذلك الاستعراض».

في اليوم التالي دخل إلى الغرفة بفرحة عارمة. «لقد سرح رئيسي رجلًا آخر ويريدني أن أبدأ في العمل قرب البحيرة. ولديه مساكن يوفرها لأول الواصلين إلى هناك. هيا بنا!»

عبرا تسعة أميال في سيارة مستأجرة نحو المساكن التي تحتل مكانًا قريبًا حيث لا يفصلهم سوى سدٍ عن بحيرة أوكيتشوبي العظيمة المترامية الأطراف. كانت جاني تحاول تحويل الكوخ إلى منزل مناسب أثناء خروج تي كيك لزراعة الفاصوليا. بعد ساعات العمل كانا يخرجان للصيد. بين الحين والآخر كانا يمران بجانب مجموعة من الهنود الحمر في مخابئهم الطويلة الضيقة المحفورة على الطرق غيرِ المأهولة بأطراف إيفرغليدز. أخيرًا انتهى موسم الزراعة. لم يكن هناك الكثير لفعله سوى انتظار وقت الحصاد. عزف تي كيك لجاني على الغيتار مرات عديدة، ولكنه كان يمتلك وقت فراغ كبير. ولم تكن المقامرات قد بدأت بعد.

كان الناس الذين يـأتون إلى المكان مفلسين. لم يأتوا ومعهم أموال، بل أتوا الجني بعضها.

«اسمعي يا جاني، دعينا نشتري أدوات قنص ونخرج للصيد في هذه الأنحاء».

«سيكون هذا جيدًا يا تي كيك، لكنك تعرف أنني لا أجيد التصويب. لكنه سيكون أمرًا محببًا أن نذهب سوية».

«أوه يجب أن تتعلمي. ليس هناك حاجة لأن لا تكوني على دراية بكيفية استخدام أدوات الصيد. حتى لو لم تستطيعي إمساك أي فريسة، هناك دائمًا بعض الأوغاد القذرين الذين يحتاجون القتل»، ضحك. «دعينا نذهب إلى بالم بيتش لننفق بعض المال».

كانا يتمرنان يوميًا على المسدس وبنادق الصيد والبنادق الأخرى. حتى أن الآخرين كانوا يقفون في المكان لمشاهدتها. بعض الرجال كانوا يتوسلون ليتمكنوا من إطلاق النار على الهدف بأنفسهم. كان ذلك هو الشيء الأكثر إثارة في حقول الوحل. كان الأمر أفضل من البار وقاعة الرقص، إلا لو كانت هناك فرقة خاصة تعزف. الشيء الذي كان يجذب الجميع هو طريقة جاني في الصيد. فلقد وصلت إلى مرحلة تستطيع فيها أن تطلق النار على الصقر في شجرة الصنوبر دون أن تمزقه، بل تقتلع رأسه فقط. كانت تصوب بشكل أفضل من تي كيك. كانا يخرجان في أي وقت متأخر بعد الظهر ويعودان محملين بالطرائد. ذات ليلة حصلا على قارب وخرجا لصيد التماسيح. كان بإمكانهما بيع الجلود والأسنان في بالم بيتش إلى جانب أنهما كانا يلهوان معًا حتى يبدأ العمل مجددًا.

يومًا بعد يوم الآن، كانت جحافل العمال تتدفق. بعضهم كانوا يعرجون

بأحذيتهم لأن أقدامهم كانت متقرحة من المشي. من الصعب أن تحاول ملاحقة حذائك بدلًا عن أن يلاحقك حذاؤك. جاؤوا في عربات من جورجيا وجاؤوا في شاحنات من الشرق والغرب والشمال والجنوب. جاء العابرون الدائمون الذين ليس لديهم أي ارتباطات، والرجال المتعبون مع أسرهم وكلابهم في عرباتهم المهترئة. كل ليلة، كل يوم، يسرعون لالتقاط الفاصوليا. المقالي، الأسرة، أنابيب الغيار جميعها معلقة ومتدلية من السيارات القديمة في الخارج بينما الإنسانية المفعمة بالأمل تُساق وتجول في الداخل، وتطلق أزيزها في الوحل. كان الناس بشعين بالجهل ومكسورين بالفقر.

كل ليلة الآن كانت البارات تقعقع وتجعجع. كان البيانو يعيش ثلاث حيوات في واحدة. كانت موسيقى البلوز تؤلف وتستخدم على الفور. كان الناس يرقصون، يتقاتلون، يغنون، يبكون، يضحكون، يفوزون ويخسرون في لعبة الحب كل ساعة. يعملون طوال اليوم لأجل المال، ويتقاتلون كل ليلة للحب. الأرض السوداء الغنية كانت تتشبث بالأجساد وتعض جلدها مثل النمل.

وأخيرًا لم تعد هناك المزيد من الأماكن للنوم. فقام الرجال بإشعال نيران كبيرة فكان خمسون أو ستون رجلًا ينامون حول كل موقد. لكنهم كانوا يضطرون إلى دفع المال لأصحاب الأرض التي كانوا ينامون عليها. كان ملاك الأراضي يتعاملون مع النار تمامًا مثلما يتعاملون مع المساكن ــــ كلها مقابل أجر. ولكن لا أحد اهتم بذلك فقد كسب الناس المال بشكل جيد، حتى الأطفال. لذلك فقد أنفقوا المال بشكل جيد. الشهر المقبل والعام المقبل كانت أمورًا بعيدة. ولا حاجة لمزجها مع الحاضر.

كان منزل تي كيك كالمغناطيس، المركز غير الرسمي للـ«عمل». الطريقة التي كان يجلس بها في المدخل ويعزف جعلت الناس يتوقفون للاستماع وربما

لا يذهبون حتى للبار في تلك الليلة. كان يضحك دائمًا وكان مليئًا بالمرح أيضًا. كان يجعل الجميع يضحكون في حقول الفاصوليا.

بقيت جاني في المنزل لتطهو قدرًا كبيرًا من الفاصوليا والأرز. وأحيانًا لتخبز مقالي كبيرة من الفاصوليا البحرية مع الكثير من السكر وكتل من لحم الخنزير المقدد. كان ذلك شيئًا يحبه تي كيك لذلك وبغض النظر ما إذا كانت جاني قد طهت الفاصوليا مرتين أو ثلاث مرات خلال الأسبوع، فإنها قد تخبز الفاصوليا مرة أخرى يوم الأحد. كانت تحضر دائمًا نوعًا من الحلوى أيضًا، كما يقول تي كيك فإنها تعطي الرجل راحة خاصة. في بعض الأحيان كانت ترتب المنزل المكون من غرفتين وتأخذ البندقية لكي تخرج لتصطاد أرنبًا لتناوله على العشاء عندما يصل تي كيك إلى المنزل. لم تكن لتتركه يصاب بالحكاك في ملابس عمله، بل كانت تحضر الماء الساخن قبل عودته ليستحم على الفور.

كان تي كيك يظهر بشكل مفاجئ أمام باب المطبخ في ساعات غريبة. بين الفطور والعشاء أحيانًا. ثم عادة كان يأتي إلى المنزل حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ويمازحها ويصارعها لنصف ساعة ثم يعود إلى العمل. لذا في أحد الأيام سألته عن الأمر.

«تي كيك لم تعود إلى المنزل بينما الجميع ما زالوا يعملون؟»

«آتي لأطمئن عليك. فربما يحاول الوحش أن يخطفك وأنا في الخارج».

«ليس هناك وحش بإمكانه اختطافي. ربما تظن أنني لست وفية كما ينبغي لذلك تعود لمراقبتي».

«لا، لا يا جاني، أنا أعرفك بشكل أفضل. ولكن بما أنك تفكرين بهذه الطريقة، دعيني أخبرك بالحقيقة. أنا أشعر بالوحدة يا جاني عندما أكون

هناك طوال اليوم بدونك. ولذلك ربما من الأفضل أن تخرجي إلى هناك وتحصلي على وظيفة مثل بقية النساء ـــ وحينها لن أضيع الوقت في المجيء والذهاب».

«يا إلهي يا تي كيك، ألا تستطيع قضاء ذلك الوقت البسيط بدوني».

«إنه ليس وقتًا بسيطًا. إنه تقريبًا معظم اليوم». لذلك في اليوم التالي مباشرة استعدت جاني للخروج لالتقاط الفاصوليا مع تي كيك. كان هناك تذمر مكبوت عندما التقطت السلة وذهبت للعمل. فقد كانت بالفعل تعامل على أنها حالة مختلفة في حقول الوحل. كان هناك تصور لدى الجميع أنها ظنت نفسها أفضل بكثير من العمل مثل بقية النساء وأن تي كيك «هو من جعلها تحس بذلك». ولكن المرح واللعب الذي قادته طوال اليوم من وراء الرئيس زاد شعبيتها على الفور. وعندما عادا ساعدها تي كيك في تحضير العشاء.

«أنت لا تظنين أنني أحاول أن أتخلى عن فكرة رعايتك يا جاني، لأنني سألتك أن تأتي إلى العمل معي؟» سألها تي كيك بعد مرور أول أسبوع لها في الحقل.

«أوه لا يا حبيبي، لقد أحببت الأمر. إنه أفضل من الجلوس في المنزل طوال اليوم. البيع في المتجر كان صعبًا، لكن هنا ليس هناك ما نفعله سوى إتمام عملنا والعودة إلى منزلنا وحبنا».

كان المنزل مليئًا بالناس في كل ليلة. كان المكان أمام الباب ممتلئًا تمامًا. بعضهم أتى لمشاهدة تي كيك وهو يعزف على غيتاره؛ وآخرون أتوا للتحدث وقص الحكايات، ولكن أغلبهم أتوا للانخراط في الألعاب التي عقدت أو كان ستعقد عما قريب. في بعض الأحيان كان تي كيك يخسر أموالًا طائلة لأنه هناك الكثير من المقامرين الجيدين في المكان. وفي أحيان أخرى كان يربح

ويجعل جاني فخورة بموهبته. ولكن بعيدًا عن البار فكل شيء آخر كان يدور حول هذين الاثنين.

كانت جاني تفكر أحيانًا في الأيام الخوالي في البيت الأبيض الكبير والمتجر وتضحك على نفسها. ماذا لو رآها سكان إيتونفيل الآن وهي ترتدي الدنيم الأزرق والأحذية الثقيلة؟ لو رأوا حشود الناس حولها، ولعبة الزهر في بيتها! كانت تشتاق لصديقاتها هناك وتحتقر الآخرين. كان الرجال يخوضون جدالات كبيرة كالتي اعتادت عليها في شرفة المتجر. هنا فقط، كان بإمكانها الاستماع والضحك وحتى الحديث بنفسها إذا أرادت. حتى أنها كانت تتمكن من سرد القصص الكبيرة بنفسها من خلال الاستماع إلى البقية. كان الرجال يحبون سماع أنفسهم وهم يتحدثون، ومهما كانت خشونة تلك الأحاديث فالناس نادرًا ما يغضبون، لأن كل شيء كان يقال للمرح فقط. كان الجميع يحبون التفرج على إد دوكري، بوتناي، وسوب دي بوتووم في لعبة الورق. ذات ليلة كان إد دوكري يتطلع في بطاقات لعب سوب دي بوتووم وكان بإمكانه أن يعلم أن سوب ظن أنه سيفوز. فصرخ: «سوف أكسر كرسي البيض». نظر سوب وقال: «اقتلع الوتد». سأل بوتناي، «ما الذي ستفعله؟ لا تفعل!» كان الجميع يترقب سقوط البطاقة التالية. استعد إد للتحويل. «سوف أطلق الجحيم وأحرق المقشة». ورمى دولارًا آخر. «لا تغالي في الأمر يا إد»، تحداه بوتناي. أمسك إد بطرف بطاقته بقوة. ألقى بوتناي دولارًا. «سوف أضرب في النعش، ولا أهتم كم ستكون الجنازة حزينة». قال إد، «أترى كيف يغيظني هذا الرجل؟» حث تي كيك سوب على ألا يراهن. «سوف تعلق في عاصفة من الرصاصات لو لم تأخذ حذرك». قال سوب، «لا يملك ذلك الدب سوى شعره المجعد. أستطيع أن أنظر إلى المياه

الوحلة وأرى أرضًا جافة». رمى إد البطاقة وصرخ، «يا زكريا [1]، فلتنزل من شجرة الجميز تلك. لأنك لا تفعل شيئًا».

لم يسقط أحد بطاقة بعد تلك. الجميع كانوا خائفين من البطاقة التالية. نظر إد ورأى غاب يقف خلف كرسيه ويصرخ، «ابتعد من ورائي يا غاب! أنت أسود جدًا. وتجذب الحرارة! سوب أتريد أن تسحب هذا الرهان قبل أن تضيع فرصتك؟» «لا يا رجل، أتمنى لو أنني أملك مائة قدم لأضعها عليه». «إذن أنت لا تستمع، هاه؟ أيها الزنجي الغبي. سوف أعلمك اللعب. سوف أجتاز المسار الرئيسي وليس المسارات الجانبية». سحب إد البطاقة التالية وخسر سوب. صرخ الجميع وضحكوا. ضحك إد وقال: «قم من الوحل! أنت لا تعرف اللعب. هذا كل شيء! والماء الساخن لن يساعدك». استمر إد في الضحك لأنه كان خائفًا جدًا في البدء. «سوب، بوتناي وكل من تركني أربح ماله: سوف أرسل هذا المال مباشرة لسيرز وريبوك وسأشتري به ملابس جديدة».

1- حسب رواية زكا، في إنجيل لوقا، فإنه عندما علم بمرور يسوع المسيح من مدينة أريحا في طريقه نحو أورشليم، صمم على ملاقاته، لكنه لم يستطع ذلك لسببين الأول لأن المسيح كان محاطًا بجموع غفيرة، والثاني قصر قامة زكا، لذلك قام زكا بتسلق شجرة جميز وأخذ يراقب الموكب؛ عندما أصبح المسيح تحت الشجرة، نادى زكريا معلنًا له أنه سيتناول العشاء في منزله الليلة، ما أثار استغراب وحفيظة مرافقي المسيح، بسبب نظرتهم التقليدية إلى مهنته؛ خلال العشاء أعلن زكريا توبته كما أعلن أنه إذا ما كان قد ظلم أحدًا من الشعب في جبي الضرائب فسوف يرده إليه أربعة أضعاف، فقال له المسيح عندها: «اليوم تمّ الخلاص لهذا البيت».

# 15

عرفت جاني شعور الغيرة. فتاة شابة مكتنزة اعتادت أن تعاكس تي كيك في الحقل وفي المساكن. لو قال أي شيء كانت تقول عكسه ثم تضربه أو تعرقله وتركض لكي يركض خلفها. كانت جاني تعرف ما تخطط له الفتاة فقد كانت تريد إبعاده عن الحشد. استمر الأمر أسبوعين أو ثلاثة ونينكي تمارس ألاعيبها. كانت تضرب تي كيك وما أن يحاول لمسها تقع عليه أو تسقط في الأرض لكي يرفعها. ويتطلب الأمر مجهودًا كبيرًا لإيقافها على قدميها مرة أخرى. وثمة أمر آخر أيضًا، أن تي كيك لم يبدُ وكأنه يبعدها بحزم كما كانت جاني تريد منه أن يفعل. أصبحت جاني نزقة قليلًا. وبذرة شكّها الكبيرة بدأت تصبح شجرة. ربما سيضعف تي كيك تجاهها يومًا. ربما كان قد شجعها على الأمر سرًا وهذه هي طريقة نينكي في التعبير عن ذلك. الآخرون بدأوا يلاحظون أيضًا، وذلك جعل جاني تتعذب أكثر.

ذات يوم كانوا يعملون قرب المكان الذي تنتهي فيه حقول الفاصوليا وتبدأ حقول قصب السكر. كانت جاني قد ابتعدت قليلًا عن تي كيك مع امرأة أخرى ليتحادثا.

وعندما ألقت نظرة وجدت تي كيك قد اختفى. ونينكي أيضًا.

«أين تي كيك؟» سألت سوب دي بوتووم. أشار بيده نحو حقول قصب السكر وذهب مسرعًا. لم تفكر جاني في الأمر قط. بل تصرفت وفق شعورها. جرت نحو المكان ووجدت تي كيك ونينكي يتصارعان. كانت هناك قبل أن يأتي أحد غيرها.

«ما الذي يحدث هنا؟» سألت جاني بغضب مكبوت. فتفرقا.

«لا شيء» قال تي كيك وهو يقف بخجل.

«حسنًا، ما الذي تفعلانه هنا؟ لمَ لستما مع بقيتنا هناك؟»

«لقد جذبتْ بطاقة عملي من جيبي وركضتُ خلفها لأخذها منها»، شرح تي كيك وهو يريها البطاقة التي تمزقت قليلًا خلال التصارع.

كانت جاني تهم بالإمساك بنينكي ولكنها هربت. لذلك فقد ركضت خلفها في حقول قصب السكر. لكن نينكي لم تكن تود أن يتم إمساكها. لذلك فقد عادت جاني إلى المنزل. منظر الحقول والناس الآخرين السعداء كان أمرًا صعبًا عليها اليوم. فمشت ببطء نحو المساكن. لم يمر وقت طويل قبل أن يلحق بها تي كيك هناك ويحاول محادثتها. أسكتته بضربة وأخذا يتشاجران من غرفة لأخرى، حاولت جاني ضربه، وأمسك تي كيك بمعصميها لكيلا تتمادى.

«اعتقد أنك كنت تعبث معها!» لهثت غاضبة.

«لا شيء من هذا القبيل!» رد تي كيك بحسم.

«أعتقد أنك كنت تفعل».

«من الذي أخبرك بهذه الكذبة؟»

استمرا في التشاجر. «لقد جرحت قلبي، والآن أتيت بأكاذيبك لكي تسبب لي رضوضًا في أذني! دع يدي!» اهتاجت جاني. لكن تي كيك لم يتركها أبدًا. تصارعا حتى تخدرا بغضبهما وفيضهما؛ حتى تمزقت ملابسهما؛ حتى ثبتها على الأرض وذوّب مقاومتها بحرارة جسده، كانا يقومان بأشياء بجسديهما للتعبير عن ذلك المتعذر تفسيره؛ وأخذ يقبلها حتى مدت جسدها

ليلاقي جسده وبعدها ناما بإنهاك حلو.

في اليوم التالي سألته جاني كأي امرأة، «ألا زلت تحب نينكي؟»

«لا، ولم أفعل قط، أنت تعرفين ذلك أيضًا. أنا لم أردها حتى».

«لا لقد أردتها». لم تقل ذلك لأنها صدقته. كانت تريد أن تسمع نفيه. كانت تريد أن تصيح في تلك الساقطة نينكي.

«ما الذي يتوجب عليّ فعله وتلك الفتاة المكتنزة حولك دائمًا؟ إنها ليست جيدة لأي شيء سوى الجلوس في ركن المطبخ وتكسير الحطب على رأسها».

# 16

انتهى الموسم وعاد الناس من حيث أتوا – أفواجًا. قرر تي كيك وجاني البقاء بما أنهما أرادا أن يقضيا موسمًا آخر في حقول الوحل. لم يكن هناك الكثير ليفعلانه بعد أن جمعا جوالات الفاصوليا ووضعوها ليبيعوها في الخريف. لذا فقد بدأت جاني بالنظر حولها ورأت أناسًا وأشياء لم تلحظها خلال الموسم.

على سبيل المثال، خلال فصل الصيف عندما سمعت إيقاعات خفية ومقنعة لقارعي الطبول البهامية، سارت لتشاهد الرقصات. لم تضحك باحتقار كما كان الناس يفعلون خلال الموسم، بل أعجبها ذلك كثيرًا، وكانت هي وتي كيك يذهبان إلى هناك كل ليلة يدًا بيد، حتى أن الآخرين كانوا يغيظونهم بسبب ذلك.

أتت جاني الآن للتعرف على السيدة تيرنر. لقد رأتها عدة مرات خلال موسم الحصاد، ولكنهما لم تتحدثا إلى بعضهما قط.

كانت السيدة تيرنر بشكل ما امرأة حليبية بطنها بارزة. كتفاها مستديران قليلًا، ولابد أنها كانت واعية باتساع حوضها لأنها حافظت عليه أمام عينيها حتى تتمكن من أن تراه دائمًا. كان تي كيك يسخر كثيرًا من شكل السيدة تيرنر من وراء ظهرها. وادّعى أنها تشكلت بواسطة بقرة ركلتها من مؤخرتها. كانت مثل لوح الكي الذي ألقيت فيه مختلف الأشياء. ثم ادعى أن تلك البقرة نفسها داست على فمها عندما كانت طفلة لتتركه واسعًا ومسطحًا، بينما ذقنها وأنفها ملتصقان تقريبًا.

ولكن شكل السيدة تيرنر وسماتها مقبولة قبولاً تامًا لدى السيدة تيرنر شخصيًا. كان أنفها حادًا قليلًا، وكانت فخورة بذلك. شفتاها الرقيقتان كانتا متعة خالصة لعينيها. حتى ردفيها الغائرين بديا أنهما مصدر فخر واعتزاز. وبنظرها فإن كل هذه الأمور تميّزها عن الزنوج. وهذا هو السبب في أنها سعت لمصادقة جاني. فبشرة جاني الكريمية وشعرها المسترسل جعلا السيدة تيرنر تغفر لها ارتدائها ثياب العمل مثل غيرها من النساء اللاتي يعملن في الحقول. ولكنها لم تغفر لها الزواج برجل داكن البشرة مثل تي كيك، إلا أنها شعرت أن بإمكانها أن تتدارك الأمر. فذلك ما ولد شقيقها لأجله. كانت نادرًا ما تبقى لوقت طويل عندما يكون تي كيك في المنزل، ولكن عندما تذهب إلى هناك وتجد جاني وحدها، فإنها تقضي ساعات في الدردشة. وقد كان أكثر موضوع لا تحبذه هو الزنوج.

«لقد قلت لزوجي كثيرًا يا سيدة وودز إنني لا أفهم كيف لسيدة مثل السيدة وودز أن تحتمل كل أولئك الزنوج القذرين في منزلها طوال الوقت».

«إنهم لا يزعجونني أبدًا يا سيدة تيرنر. الحقيقة أنهم يبهجونني بأحاديثهم الغنية».

«تملكين شجاعة أكبر مني. عندما فاتح أحدهم زوجي في أمر أن يأتي ويفتح مطعمًا هنا لم أكن أحلم أنني سوف أجد كل هذه الأنواع المختلفة من السود في مكان واحد. لو كنت أعرف لما أتيت قط. فأنا لم أعتد على مخالطة السود على الإطلاق. يقول ابني إنهم يجذبون البرق». ضحكا قليلًا، وبعد أحاديث كثيرة من هذا النوع قالت السيدة تيرنر، «لابد أن زوجك كان يملك الكثير من المال عندما تزوجتها».

«ما الذي جعلك تظنين ذلك يا سيدة تيرنر؟»

«لكي يحصل على امرأة مثلك. تملكين شجاعة أكثر مني. فأنا لا أستطيع تخيل نفسي متزوجة من شخصٍ داكن البشرة. هناك بالفعل ما يكفي من داكني البشرة. يجب علينا أن نعمل على تفتيح لون العرق».

«لا. زوجي لم يكن يملك شيئًا. ولكن من السهل أن تحبيه لو عرفتيه جيدًا. أنا أحبه». مكتبة

«لمَ يا سيدة وودز! لا أصدق ذلك. أظن أنك منومة مغناطيسيًا وهذا كل ما في الأمر».

«لا. أنا أقول الحقيقة. فأنا لن أستطيع العيش لو تركني. لا أعرف ما سأفعله. يمكنه أن يأخذ أصغر شيء ويحوله إلى أوقات مبهجة عندما تكون الحياة قاسية. ومن ثم نعيش على تلك الفرحة التي يخلقها حتى تأتي فرحة أكبر».

«أنت مختلفة عني. فأنا لا أستطيع احتمال الزنوج السود. لا ألوم البيض على كرههم لأنني أيضًا لا أستطيع احتمالهم. وكذلك فأنا أكره أن أجد أناسًا مثلي ومثلك يختلطون معهم. فذلك يجعلنا رعاعًا مثلهم».

«ليس بإمكاننا أن نفعل ذلك. يجب أن نخلط الناس ونحصل على دماء سوداء ودماء صفراء. لمَ أنت ضد السود بهذا الشكل؟»

«إنهم يرهقونني. فهم يضحكون دائمًا! يضحكون كثيرًا ويضحكون بصوتٍ عالٍ. ودائمًا يغنون أغاني الزنوج القديمة! ويتصرفون بحماقة تجاه البيض. لو لم يكن هناك داكنو بشرة كثر لما كانت هناك مشاكل عرقية. ولكان البيض سيأخذوننا معهم. داكنو البشرة يعطلوننا».

«أتعتقدين ذلك؟ لأنني لم أفكر في الموضوع قط. ولكنني لا أظن أنهم سيودون أن يضموننا إليهم. فنحن فقراء جدًا».

«الأمر لا علاقة له بالفقر، إنه اللون والسمات. فمن يريد طفلًا أسود صغير يشبه الذبابة في مخيض اللبن؟ من الذي سيود أن يختلط بأسود قذر، وبأولئك النساء اللاتي يتجولن بملابسهن الصارخة الألوان، ويصحن ويضحكن ويصرخن دون سبب؟ لا أعرف. لا تحضري لي طبيبًا زنجيًا ليفحصني في فراش مرضي. لقد أنجبت ستة أطفال ـــ ولم أكن محظوظة لأربي سوى واحد منهم ـــ ولم أسمح لطبيب زنجي من قبل حتى بأن يلمس نبضي. الأطباء البيض يحصلون دومًا على مالي. لا أذهب إلى متاجر الزنوج لأشتري أشياء حتى. الملونون لا يعرفون أي شيء عن التجارة. أتفهمينني!»

كانت السيدة تيرنر تصرخ تقريبًا بجدية متعصبة حتى هذا الحد. كانت جاني بكماء وحائرة وأومأت بتعاطف وتمنت لو كانت تعرف ماذا يجب أن تقول. كان من الواضح جدًا أن السيدة تيرنر تنظر إلى وجود السود كإهانة شخصية لنفسها.

«انظري إليّ! أنفي ليس مفلطحًا وشفتاي لا تشبهان قطعة الكبد. أنا امرأة تملك سمات. لدي سمات البيض في وجهي. ومع ذلك فأنا أُحشر مع الباقيين. هذا ليس عدلًا. حتى لو لم يضعونا مع البيض. فيجب أن يصنعوا طبقة لنا وحدنا».

«هذا الأمر لا يزعجني البتة، ولكن ربما لا أملك الذهنية المناسبة للتفكير في الأمر».

«يجب أن تقابلي أخي. إنه ذكي جدًا. ويملك شعرًا ناعمًا. لقد جعلوه مندوبًا لمؤتمر مدرسة الأحد ولقد قرأ ورقة مزّق فيها بوكر تي. واشنطن [1]».

1- كان معلمًا أمريكيًا، ومؤلفًا، وخطيبًا، ومستشار رئيس الولايات المتحدة - بوكر تاليافيرو واشنطن. بين ١٨٩٠م و١٩١٥م، كان واشنطن زعيمًا مهيمنًا في المجتمع الأفرو-أميركي.

«بوكر تي؟ لقد كان رجلًا عظيمًا أليس كذلك؟»

«من المفترض أنه كذلك. لكن كل ما فعله هو التصرف بحماقة مع البيض. لذلك فقد حطموه. لكنك تعرفين ما يقولوه الناس: كلما تسلق القرد الشجرة أصبحت مؤخرته ظاهرة أكثر، وهذا بالضبط ما حدث مع بوكر تي. لقد كان أخي يمزقه كلما أعطوه فرصة للكلام».

«لقد نشأت في مجتمع كان يعتبره رجلًا عظيمًا»، كان هذا كل ما استطاعت جاني قوله.

«كل ما فعله هو أنه عطلنا ــ كان دائمًا يتحدث عن العمل بينما لم يقم عرقنا بفعل أي شيء. لقد كان عدوًا لنا. كان زنجي البيض».

وفقًا لكل ما تعلمته جاني فقد كان ذلك تدنيس مقدسات، لذا فقد جلست صامتة دون أن تنطق كلمة. ولكن السيدة تيرنر استمرت. «لقد بعثت لأخي ليأتي ويقضي وقتًا معنا. إنه يقوم بأعمال حاليًا. أودك أن تقابليه بشكل خاص. أنت وهو كنتما لتشكلان ثنائيًا رائعًا لو لم تكوني متزوجة. إنه نجار جيد».

«نعم، ربما ولكنني متزوجة الآن، لذا ليس هناك فائدة من ذكر الأمر».

وقفت السيدة تيرنر أخيرًا للذهاب بعد أن عرضت عدة وجهات نظر حازمة أخرى حول نفسها، وابنها وأخيها. توسلت جاني لتزورها في أي وقت، ولكنها لم تذكر تي كيك أبدًا. وأخيرًا ذهبت وأسرعت جاني إلى مطبخها لتعد العشاء ووجدت تي كيك يجلس هناك ورأسه بين يديه.

«تي كيك! لم أكن أعرف أنك في المنزل».

«أعلم أنك لم تكوني تعرفين. لقد كنت هنا منذ مدة طويلة أستمع إلى تلك البقرة الصغيرة وهي تهينني وتحاول أن تجعلك تتركيني».

«إذن هذا ما كانت تخطط له؟ لم أكن أعرف».

«بالطبع هذا ما خططت له. لديها شقيق تريدك أن ترتبطي به ليعتني بكِ».

«هاه! لو كان ذلك مقصدها فهي تضيّع وقتها. أنا مكتفية بك».

«شكرًا لكِ سيدتي. أنا أكره هذه المرأة كما السم. ابقيها بعيدة عن هذا المنزل أرجوك. تقول إنها تبدو مثل النسوة البيض! ببشرتها تلك وشعرها الذي يبعد عن رأسها بقدر بعد التسعة والتسعين عن المائة! وبما أنها تكره السود بهذا القدر، فلا حاجة لها بمالنا الذي ندفعه في مطعمهم. سوف أخبر الجميع بالأمر. يمكننا أن نذهب لمطعم الرجل الأبيض ونحصل على معاملة جيدة. هي وزوجها الأحمق ذاك! وذلك الابن! إنه خدعة قذرة صنعها رحمها. سوف أخبر زوجها ليبقيها في المنزل. فأنا لا أريدها أن تأتي إلى منزلي».

ذات يوم قابل السيد تيرنر وابنه في الشارع. كان رجلاً ذا مظهر متلاشي كما لو كان هناك أجزاء منه اعتادت أن تتعلق بصورة فردية ولكن الآن كل شيء فيه أصبح منكمشًا ومبهمًا. كما لو أنه كان شيئًا رمليًا تحول إلى كتلة بيضاوية طويلة. شعر تي كيك بالأسف حياله دون أن يعرف السبب. لذلك فلم يوجه إليه الإهانات التي كان ينوي توجيهها. ولكنه لم يستطع الإمساك عن قول كل شيء أيضًا. تحدثا عن الشكل المتوقع للموسم القادم لدقيقة، ومن ثم قال تي كيك: «يبدو أن زوجتك لا تملك الكثير لفعله خلال اليوم، لذا فهي تزورنا كثيرًا. لكن زوجتي لديها الكثير لتقوم به ولا وقت لديها لتزور أحدًا ولا ليزورها أحد».

«زوجتي تجد وقتًا لكل ما تريد فعله. إنها صعبة المراس من تلك الناحية». ضحك ضحكة كبيرة. «الأطفال لا يبقونها مشغولة كما في السابق، لذلك فهي تقوم بالزيارات متى طاب لها الأمر».

«الأطفال؟» سأله تي كيك باندهاش. «ألديك أطفال أصغر منه؟» أشار للفتى الذي بدا في العشرين من عمره. «لم أرى أطفالك الآخرين».

«أعتقد أنك لم تفعل لأنهم توفوا قبل أن يولد هذا الأخير. لم يكن لدينا حظ مع الأطفال مطلقًا. ولكننا محظوظون بتنشئته. فهو الخبطة الأخيرة في طبيعة منهكة».

أطلق ضحكته الكبيرة تلك مرة أخرى، وانضم إليه تي كيك وابنه. ثم بعدها مضى تي كيك لكي يعود إلى المنزل.

«زوجها لا يستطيع أن يقوم بشيء مع تلك المرأة الغبية. كل ما عليك فعله هو أن تعامليها ببرود عندما تأتي إلى هنا».

حاولت جاني ذلك، ولكن عدا عن إخبار السيدة تيرنر بالأمر بصراحة، لم يكن هناك شيء يمكنها القيام به لإيقافها تمامًا. شعرت السيدة تيرنر بالفخر بصداقتها مع جاني وسرعان ما غفرت ونسيت لها أخطائها من أجل الحفاظ على تلك الصداقة. أي شخص يبدو أبيضًا أكثر منها هو أفضل منها بمعاييرها، وبالتالي فإنه كان من حق جاني أن تكون قاسية معها في بعض الأحيان، تمامًا كما كانت هي قاسية مع أولئك الأكثر زنوجة منها في إشارة مباشرة إلى زنوجتهم. تمامًا مثل التسلسل الاجتماعي في ساحة الدجاج. فأنت تقدم القسوة الجنونية لأولئك الذين يمكنك جلدهم، والطاعة المتذللة لأولئك الذين لا تستطيع. ما أن نصبت السيدة تيرنر أصنامها وبنت مذابحًا لهم كان لابد لها من أن تتعبد هناك. كان لابد لها أن تتقبل أي تناقض وقسوة من ربتها كما يفعل جميع المصلين لآلهتهم. كل الآلهة الذين يتلقون الإجلال قساة. كل الآلهة يوزعون المعاناة دون أسباب... وإلا فلن يعبدوا. من خلال المعاناة العشوائية يعرف الرجال الخوف، والخوف هو العاطفة الأكثر إلهية. القسوة هي الحجارة للمذابح وبداية الحكمة. أنصاف الآلهة يُعبدون بالنبيذ

والزهور. لكن الآلهة الحقيقية تشترط الدم. السيدة تيرنر، مثل كل المؤمنين الآخرين قد بنت مذبحًا للخصائص القوقازية المتعذرة على الجميع. ربما سوف يعذبها، سوف يقذفها من الذرى ويفقدها في الصحاري، لكنها لن تتخلى عن مذبحه. وراء الكلمات الغليظة كان تعتقد بطريقة ما أنها وغيرها عن طريق التعبد يمكنهم تحقيق جنتهم - جنة من الشعر الناعم المستقيم، والشفاه الرقيقة، والأنوف المرتفعة والساروفيم الأبيض المجوف. المستحيلات المادية بأي حال من الأحوال تجرح الإيمان. كان هذا هو السر، والأسرار هي أعمال إلهية. وراء إيمانها كان هناك تعصب للدفاع عن مذبح الرب. وقد كان من المؤسف بالنسبة لها أن تخرج من معبدها الداخلي لتجد أولئك الزنوج القذرين يضحكون أمام الباب.

لم تكن متعلقة بجاني وودز المرأة فقط. بل كانت تقدم ولائها لخصائصها القوقازية كذلك. عندما كانت مع جاني كان يتملكها شعور بالكمال، كما لو أنها هي نفسها تصبح أكثر بياضًا ويصبح شعرها أكثر استقامة وقد كرهت تي كيك أولًا لأنه ينتهك هذه الألوهية، وثانيًا لأنه يسخر منها. لو أنها تعلم ما عليها فعله حيال الأمر! لكنها لا تعرف. عندما حاولت ذات مرة أن تشتكي من التجهيزات في البار قاطعها تي كيك، «لا تدعي الرب يبدو أحمقًا بمحاولتك إيجاد عيوب في كل شيء خلقه».

كانت السيدة تيرنر عابسة معظم الوقت. فقد كان هناك الكثير من الأشياء التي لم توافق عليها. لكن ذلك لم يؤثر على تي كيك وجاني أكثر من اللازم. فقد منحهما هذا شيئًا للتحدث عنه في فصل الصيف عندما كان كل شيء مملًا في حقول الوحل. عدا عن ذلك فكانا يقومان برحلات قصيرة إلى بالم بيتش، وفورت مايرز وفورت لودرديل للحصول على بعض المتعة. وقبل أن يدركوا حتى، عادت الشمس لتصبح أكثر برودة وجاءت الحشود تتدفق على حقول الوحل مرة أخرى.

# 17

كان هناك كثير من الحشود القديمة مرة أخرى. ولكن هناك الكثير من الحشود الجديدة أيضًا. بعض هؤلاء الرجال أعجبوا بجاني، والنساء أعجبن بتي كيك. لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن توضع الأمور في نصابها. ولكن رغم كل شيء، كانت الغيرة تنشأ بين الحين والآخر على كلا الجانبين. عندما جاء شقيق السيدة تيرنر وأخذته معها عند جاني للتعارف، غضب تي كيك كثيرًا. وقبل نهاية الأسبوع كان قد ضرب جاني. ليس لأن سلوكها برر غيرته، ولكن لأن الأمر أطلق الخوف المرعب في داخله. أن يكون قادرًا على ضربها طمأنه على استحواذه. لم يكن ضربًا وحشيًا على الإطلاق. فقد صفعها عدة مرات لكي يبين أنه الذي في موقع السلطة. الجميع تحدث عن ذلك في اليوم التالي في الحقول. أثار ذلك نوعًا من الحسد عند الرجال والنساء. الطريقة التي كان يغازلها ويدللها بها بدت وكأن تلك الصفعتين أو الثلاث على وجهها قد كادت تقتلها تقريبًا، مما جعل النساء يرون أنفسهن مكانها؛ والطريقة التي كانت متعلقة به فيها جعلت الرجال يحلمون بها في أحلامهم.

«لابد أنك رجل محظوظ يا تي كيك»، قال سوب دي بوتووم. «بإمكان المرء أن يرى كل مكان صفعتها فيه. ولكني أراهن أنها لم ترفع يدها لتضربك حتى. بعض أولئك النسوة السوداوات القذرات بإمكانهن أن يتشاجرن معك طوال الليل وفي اليوم التالي لن يلاحظ أحد أنك ضربتهن حتى. هذا هو السبب في أنني لم أعد أضرب زوجتي. لأنني لا أستطيع أن أترك علامة عليها أبدًا. يا إلهي! أود أن أضرب امرأة رقيقة مثل جاني! أراهن أنها لم تصرخ حتى. فقد بكت فقط، أليس كذلك يا تي كيك؟»

«هذا صحيح».

«أترى ذلك! زوجتي كانت لتمدد رئتيها فوق مقاطعة بالم بيتش بأكملها، ناهيك عن أنها ستحطم أسناني. أنت لا تعرف تلك المرأة التي أعنيها. لديها تسع وتسعون سنًا وذلك يجعلها غاضبة، يمكنها أن تعبر نهرًا من الصخور المتينة يصل حتى نصفها».

«جاني خاصتي امرأة راقية ومعتادة على الأشياء الفخمة. فأنا لم أجدها بجانب الطريق، بل أخذتها من بيت ضخم وجميل. وحاليًا تملك أموالًا في البنك تمكنها من شراء كل أولئك الزنوج ووهبهم».

«لا أصدق! وهي معنا الآن في حقول الوحل مثل أي شخصٍ آخر!»

«تكون جاني حيث أريدها أن تكون، فهي ذلك النوع من الزوجات ولذلك أحبها. أنا لا أحب أن أمد يدي عليها. ولم أكن أريد أن أضربها أمس ولكن السيدة تيرنر أحضرت شقيقها لكي يأخذ جاني بعيدًا عني. لم أضرب جاني لأنها فعلت شيئًا، لقد ضربتها لتفهم الآنسة تيرنر من هو صاحب الكلمة الأخيرة. لقد جلست ذات يوم في المطبخ وسمعت تلك المرأة تقول لزوجتي إنني أسود جدًا بالنسبة لها، وإنها لا تعرف كيف تحتملني جاني».

«أطلع زوجها على الأمر».

«هاه! أعتقد أنه يخاف منها».

«حطم لها أسنانها».

«سيبدو ذلك وكأنها تملك تأثيرًا بيننا ذلك غير صحيح. لقد جعلتها ترى فقط أنني المتحكم».

«إذن فهي تعيش من أموالنا ولا تحب سود البشرة، هاه؟ حسنًا جميعنا

سنجعلها ترحل من هنا قبل أن ينقضي الأسبوعان. سوف أذهب لإخبار بقية الرجال بالأمر».

«أنا لست غاضبًا منها بسبب ما فعلته، فهي لم تفعل لي شيئًا بعد. أنا غاضب من طريقة تفكيرها. هي وعصابتها يجب أن يرحلوا».

«كلنا معك يا تي كيك. أنت تعرف ذلك بالأساس. تلك المرأة تيرنر ذكية بحق. وفقًا لطريقة تفكيرها فلابد أنها سمعت عن تلك الأموال التي تملكها زوجتك في البنك وقررت أن تسلب هذه الأموال لأجل عائلتها بطريقة أو بأخرى».

«لا أظن أن الأمر يتعلق بالمال يا سوب كما هو بالمظهر الخارجي. إنها ليست من النوع الذي تقابله كل يوم. إنها ليست واقعية وهي لا تشكل قصة جيدة لإخبارها».

«أه نعم، تظن أنها ذكية جدًا لمجيئها هنا. فهي تعتقد أننا مجرد زنوج أغبياء تستطيع التحكم فينا. لكن تلك كذبة. سوف تموت وهي غبية».

خلال ظهيرة الأحد عندما قبض الجميع رواتبهم بدأوا يشترون الويسكي ويثملون. وخلال المغيب كانت بيل غليد مليئة بالرجال الصاخبين المترنحين. والكثير من النسوة تزوجن. رئيس البوليس كان يتجول من حانة لحانة لحفظ النظام، ويقبض على القليل. ليس هناك مساحات كافية لكل أولئك المخمورين. كل ما استطاع فعله هو فض الشجارات وإخراج الرجال البيض من المدينة بحلول الساعة التاسعة مساءً. بدا ديك ستيرت وكودماي أسوأ حالًا، لأنه يبدو أن ثمالتهما أخبرتهما أن يتنقلا من مكان لآخر ليتشاجرا ويتحدثا بصخب، وهذا ما كانا يفعلانه.

بعد فترة وصلا إلى مطعم السيدة تيرنر ووجدا المكان ممتلئًا. تي كيك،

ستو بيف، سوب دي بوتووم، بوتناي، موتور بوت وكل الحشد المألوف كان هناك. توجه كودماي نحوهم بذهول وسأل، «ما الذي تفعلونه جميعكم هنا؟»

«نأكل»، قال له ستو بيف. «لديهم يخنة لحم، لذلك فأنت تعرف أنني سأكون هنا».

«جميعنا نحب أن نأخذ راحة من طبخ نسائنا بين الحين والآخر، لذلك نأكل بعيدًا عن منازلنا اليوم. على كل حال فالسيدة تيرنر تعد أفضل طعام في المدينة».

كانت السيدة تيرنر تتجول في غرفة الطعام وسمعت سوب عندما قال ذلك وأشرقت مبتهجة.

«أظن أنكما أتيتما قبل قليل ولذلك فيجب أن تنتظرا حتى نؤمن لكما مقعدين. المكان ممتلئ حتى آخره الآن».

«لا بأس بذلك»، قال ستيرت. «اقلي لي بعض السمك وسآكله واقفًا مع كوب من القهوة».

«أحضري لي طبقًا من يخنة اللحم تلك مع بعض القهوة أيضًا، من فضلك يا سيدة. فستيرت ثمل مثلي تمامًا؛ ولو كان باستطاعته أن يأكل واقفًا فباستطاعتي فعل نفس الشيء» اتكأ كودماي ثملًا على الحائط وضحك الجميع.

بعد وقت قليل أحضرت الفتاة التي كانت تخدم الطاولات للسيدة تيرنر الطلب، فحمل ستيرت السمك خاصته والقهوة ووقف هناك. ولكن كودماي لم يحمل طلبه من الصينية كما يفترض به.

«أيمكنك أن تمسكيه لأجلي يا حلوتي، لكي آكل»، قال للنادلة. أخذ

الشوكة وبدأ يأكل من الصينية.

«لا أحد يملك وقتًا ليمسك لك صينية أمام وجهك»، قالت لكودماي. «هيا احمله بنفسك».

«أنت محقة»، قال لها كودماي. «أعطني إياه فسوب بإمكانه أن يعطيني مقعده».

«أنت تكذب بالتأكيد»، قال سوب. «أنا لم أنهِ طعامي بعد، ولست جاهزًا لأن أقوم».

حاول كودماي أن يدفع سوب عن مقعده ولكن سوب قاومه. جلب هذا الأمر الكثر من التدافع والصراخ وانسكبت القهوة على سوب. لذا فقد هجم عل كودماي بصحن الفنجان ولكنه ضرب بوتناي. ألقى بوتناي فنجان قهوته على سوب وأخطأ ستو بيف. لذلك فقد تحوّل الأمر إلى شجار كبير. جاءت السيدة تيرنر راكضة من المطبخ. ثم قام تي كيك وأمسك بكودماي من ياقته.

«انظر إليّ، لا تأتِ إلى هنا وتفتعل شجارات في المكان. فالسيدة تيرنر امرأة لطيفة جدًا. في الحقيقة إنها ألطف من الجميع هنا في حقول الوحل». ابتسمت السيدة تيرنر لتي كيك.

«أنا أعرف ذلك. الجميع يعرفون ذلك، ولكنني لا أهتم بمدى لطفها، فكل ما أريده هو مقعد لأجلس عليه وأتناول طعامي. وسوب لن يخدعني أيضًا، دعه يقاتلني كرجل. أبعد يديك عني يا تي كيك».

«لا لن أفعل. وأنت ستخرج من هذا المكان».

«من الذي سيجبرني على الخروج؟»

«أنا من سيجبرك. فأنا الذي أقف أمامك، أليس كذلك؟ لو لم تكن تريد أن تحترم أناسًا لطفاء مثل السيدة تيرنر، فالرب يعلم أنك ستحترمني! تعال إلى هنا يا كودماي».

«اتركه يا تي كيك!» صرخ ستيرت. «إنه صديقي. لقد أتينا إلى هنا سوية ولن يذهب هو إلى أي مكان ما لم أذهب أنا أيضًا».

«إذن فكلاكما ستذهبان!» صرخ تي كيك وثبت كودماي. أمسك دوكري بستيرت وتشاجروا في كافة أنحاء المكان. آخرون انضموا إلى الشجار وتكسرت أطباق وطاولات.

ارتعبت السيدة تيرنر من أن محاولة تي كيك لإخراجهم كانت أسوأ من إبقائهم في المكان. ركضت إلى مكان ما وأحضرت زوجها ليوقف الأمر. جاء زوجها ونظر حوله ثم جلس في مقعد على الزاوية ولم يقل شيئًا على الإطلاق. لذا فقد دخلت السيدة تيرنر في منتصف المشاجرة وسحبت تي كيك من ذراعه.

«لا بأس يا تي كيك، أقدر محاولتك لمساعدتي ولكن دعهما وشأنهما».

«لا يا سيدة تيرنر سوف أعلمهما ألا يهينا الناس اللطفاء وألا يأتيا إلى مكان ليحدثا جلبة بينما أنا موجود. سوف أخرجهما من هنا».

بحلول ذلك الوقت كان كل من في المكان يختار الجانب الذي يريده في المشاجرة. بطريقة ما سقطت السيدة تيرنر ولم يلحظ أحد أنها هناك بسبب كل ذلك الشجار والأطباق المحطمة والطاولة المكسرة وزجاج النوافذ المحطم وكل تلك الأشياء. كان كل جزء في الأرضية به أشياء مكسرة. ولكن تي كيك استمر حتى أخبره كودماي، «أنا مخطئ، أنا مخطئ! جميعكم حاولتم أن تخبروني الصواب ولم أنصت لكم. أنا لست غاضبًا على أي أحد منكم.

ولأريكم أنني لست غاضبًا سوف نشتري أنا وستيرت شرابًا لكل من في المكان. أيها العجوز فيكرز أحضر لنا بعض الويسكي الجيد. تعالوا يا جماعة. دعونا نعقد الصلح». تصالح الجميع ومضى كلٌ إلى منزله.

نهضت السيدة تيرنر من الأرض صارخة لإحضار البوليس. نظرت إلى المكان! وتساءلت لما لم يطلب أحدٌ البوليس؟ ثم لاحظت أن أحد ذراعيها مجروحة وأصابعها يقطر منها الدم بغزارة. بعض الأشخاص الذين لم يكونوا موجودين خلال المشاجرة وقفوا عند الباب ونظروا إلى المكان وأرسلوا للسيدة تيرنر نظرات مشفقة ولكن ذلك جعلها أكثر غضبًا. ومن ثم رأت زوجها يجلس هناك في ركن ويدخن غليونه.

«أي نوع من الرجال أنت يا تيرنر؟ لقد رأيت أولئك الزنوج القذرين يأتون ويحطمون مطعمي! كيف بإمكانك أن تجلس هكذا وزوجتك ملقية على الأرض؟ أنت لست رجلًا على الإطلاق. لقد رأيت ذلك التي كيك يلقيني أرضًا! نعم لقد رأيته! ولم ترفع يدك لتفعل أي شيء حيال الأمر».

أزاح تيرنر غليونه وأجاب: «نعم، ولقد رأيت أنت كيف انتفخت أنا أيضًا، أليس كذلك؟ أخبري تي كيك أن يأخذ حذره لكيلا أنتفخ مرة أخرى». ثم عقد تيرنر قدمه بالناحية الأخرى واستمر في تدخين غليونه.

ضربته السيدة تيرنر بأقصى قوتها بيدها المصابة وتحدثت عما يجول في عقلها لنصف ساعة.

«من الجيد أن أخي لم يكن هنا عندما حدث كل هذا وإلا لكان قتل شخصًا ما. وابني كذلك. فهما يملكان رجولة داخلهما. سوف نعود إلى ميامي حيث الناس هناك متحضرون أكثر».

لم يخبرها أحد أن ابنها وأخوها كانا بالفعل في طريقهما إلى هناك ولكن بعد

أن أخبرهما شخص بالشجار داخل المطعم. لم يكن هناك وقت للحماقة. فقد سارعا نحو بالم بينش. ولقد اكتشفت ذلك في وقت لاحق.

صباح يوم الاثنين جاء كودماي وستيرت لكي يتأسفا لها وأعطياها خمسة دولارات مقابل الأضرار. ثم قال كودماي: «لقد أخبروني أنني كنت ثملًا تمامًا يوم السبت وأنني ارتكبت الحماقات. لا أتذكر شيئًا عن الأمر. ولكن عندما أبدأ في تناول الكحول أفقد صوابي تمامًا».

# 18

بما أنا تي كيك وجاني صادقا العمّال البهاميين في إيفرغليدز، فقد كان أولئك العمال عادة ما يأتون وسط الحشود الأمريكية. لقد توقفوا عن الاختباء لما عرفوا أن أصدقائهم الأمريكيين لا يسخرون من رقصاتهم كما ظنوا. بعض الأمريكيين تعلموا القفز وأحبوه كما يحبه البهاميون. لذا فقد صاروا يعقدون حفلات راقصة يومًا بعد يوم في المساكن، عادة خلف منزل تي كيك. وفي أغلب الأحيان كان تي كيك وجاني يسهران في الحفلات الراقصة حتى أن تي كيك لم يكن يسمح لها بالذهاب معه إلى الحقول في اليوم التالي، لأنه أرادها أن ترتاح.

لذا فقد كانت في البيت بمفردها في أحد الأيام عندما رأت مجموعة من السيمينول[1] يمرون. كان الرجال يمشون في الأمام ثم النسوة المثقلات المتبلدات يتبعونهم مثل الحمير. لقد رأت هنودًا في كثير من الأحيان في إيفرغليدز، ولكن هؤلاء كانوا مجموعة كبيرة. كانوا يتوجهون نحو طريق بالم بيتش ويتقدمون بثبات. بعد حوالي ساعة أتت مجموعة أخرى واتجهت في نفس الاتجاه. ومن ثم مجموعة أخرى قبل مغيب الشمس. هذه المرة سألتهم إلى أين يذهبون وبعد مدة أجابها أحد الرجال.

«سوف نذهب إلى أرض مرتفعة. لقد أزهر السوغرس. الإعصار قادم».

---

1- سيمينول هي قبيلة أمريكية أصلية في ولاية فلوريدا. وهي تضم ثلاث قبائل معترف بها فدراليا ومجموعات مستقلة، ويعيش معظمهم في أوكلاهوما مع أقلية في فلوريدا. نشأت أمة السمينول من قبائل كريك في مناطق شمال موسكوجي. وكلمة سيمينول هو تحريف لكلمة سيمارون Cimarron، وهو مصطلح إسباني يعني «الهارب» أو «البري».

الجميع كانوا يتحدثون عن الأمر في تلك الليلة. لكن لم يكن أحدٌ قلقًا. ونار الرقص ظلت مشتعلة حتى الصباح. في الصباح التالي هنود أكثر توجهوا نحو الشرق، ببطء ولكن بثبات. وكان الطقس لا يزال مشرقًا ومعتدلًا. الفاصوليا كانت تنمو بشكل مناسب، والأسعار كانت جيدة، لذا لابد أن الهنود كانوا مخطئين. لا يمكن أن يكون هناك إعصار بينما تجني ثمانية أو تسعة دولارات في اليوم من جمع الفاصوليا. الهنود أغبياء على كل حال، وقد كانوا دومًا كذلك. ليلة أخرى حلت وستو بيف يصنع تفاصيلًا ديناميكية مع طبله ورقصه. في اليوم التالي، لم يمر هنود من المكان قط. كان الجو حارًا ومالحًا وقد تركت جاني الحقول وعادت إلى المنزل.

أتى الصباح التالي دون حركة. الرياح غادرت الأرض. قبل أن تشرق الشمس حتى، كان اليوم الميت ينتقل من أجمة إلى أجمة ليراقب الرجال.

بعض الأرانب هرعت من الأجمة متجهة شرقًا. بعض حيوانات الأبوسوم انسلت وكان طريقها واضحًا. واحد أو اثنان في كل مرة، ومن ثم عدد أكبر. بمرور الوقت ترك الناس الحقول، الموكب كان ثابتًا. الثعابين، الثعابين بدأت في عبور المساكن. وقتل الرجال بعضها، لكنهم لم يكونوا ليفتقدوا خلال الحشد الزاحف. بقي الناس في الداخل حتى حلول النهار. عدة مرات أثناء الليل سمعت جاني أصوات حيوانات كبيرة مثل الغزلان. ومرة فقط صوت نمر. كلهم يذهبون شرقًا. في تلك الليلة بدأت أشجار النخيل وأشجار الموز حديثها الطويل مع المطر. عدة أشخاص أصابهم الخوف وذهبوا إلى بالم بيتش على أي حال. آلاف الصقور طارت عاليًا ومضت فوق الغيوم وبقيت هناك.

أحد الفتية البهاميين توقف بعربة أمام منزل تي كيك وناداه. خرج تي كيك بابتسامة تعلو وجهه.

«مرحبًا تي كيك».

«مرحبًا لياس. أرى أنك ستغادر».

«نعم يا رجل. أتريد أنت وجاني المجيء معنا؟ لن أعطي أحدًا آخر فرصة الجلوس على هذا المقعد ما لم أتأكد أنكما تريدان الذهاب أم لا».

«شكرًا جزيلًا لك يا لياس، ولكننا قررنا البقاء».

«الغراب نعق يا رجل».

«هذا لا يعني شيئًا يا رجل. هل رأيت المدير يغادر؟ المال الآن جيد في الحقول وغدًا سيكون الوضع أفضل، لو كنت مكانك لما غادرت يا رجل».

«عمي أتى لإخباري. قال إن هناك تحذيرات من الإعصار في بالم بيتش. الأمر ليس سيئًا هناك، ولكن يا رجل حقول الوحل هنا منخفضة جدًا وتلك البحيرة الكبيرة يمكن أن تفيض».

«أعرف يا رجل. بعض الصبية هناك يتحدثون عن الأمر. بعضهم يعيش في إيفرغليدز منذ سنوات. ويقولون إن الأمر لن يكون كبيرًا. سوف يضيع يوم غد بأكمله عندما تحاول العودة إلى هنا».

«الهنود اتجهوا شرقًا. الأمر خطير».

«إنهم ليسوا محقين طوال الوقت. وفي الحقيقة فالهنود لا يعرفون الكثير وإلا لكانوا ملاك هذه البلد حتى الآن. البيض لم يذهبوا إلى أي مكان. كانوا سيعرفون لو كان الأمر خطيرًا. من الأفضل أن تبقى يا رجل. سوف نعقد حفلة راقصة كبيرة هنا الليلة».

تردد لياس وحاول البقاء ولكن عمه لم يكن ليسمح له بذلك. «بحلول هذا الوقت غدًا ستتمنى لو أنك تبعت الغراب»، قال زاعقًا وابتعد بعربته. ولوح له لياس بسرور.

«لو لم أرك مجددًا على الأرض، فسأراك في أفريقيا».

بعض الناس أسرعوا نحو الشرق مثل الهنود والأرانب والثعابين والغزلان. ولكن الأغلبية لم يبارحوا مكانهم في انتظار أن تصبح الشمس ودية معهم مرة أخرى.

بضعة رجال تجمعوا في منزل تي كيك وأخذوا يبثون الشجاعة في آذان بعضهم البعض. طبخت جاني قدرًا كبيرًا من الفاصوليا وشيئًا سمته البسكويت الحلو وتمكنوا جميعهم من أن يصبحوا سعيدين كفاية.

أغلب الحكائين كانوا هناك وبطبيعة الحال فقد تحدثوا عن جون الفاتح وأعماله. وكيف أنه جعل كل شيء على الأرض كبيرًا، وانتقل إلى السماء دون أن يموت. ذهب إلى هناك وحمل غيتاره وبدأ بالعزف بينما الملائكة ترقص حول العرش. ثم، الجميع ما عدا الرب وبيتر الكبير انطلقوا في سباق نحو أريحا والذي فاز فيه جون الفاتح؛ ومن ثم ذهب إلى الجحيم وضرب الشيطان وقدم مياهًا باردة لكل من كانوا هناك. حاول أحدهم أن يقول إنها كانت آلة الهارمونيكا هي ما يعزفها جون الفاتح، ولكن الباقين تجاهلوا الأمر. فلم يكن مهمًا أن يجيد أحدهم عزف الهارمونيكا، لأن الرب كان يفضل الغيتار. وهذا أعادهم إلى تي كيك. كيف لم يبدأ بالعزف لهم حتى الآن؟

عندما بدأ الأمر يصبح جيدًا، استيقظ موك بوي وبدأ يرنم مع الإيقاع وانتبه الجميع إلى الكلمة الأخيرة في الأغنية:

أمك لا ترتدي الملابس الداخلية،

لقد رأيتها عندما خلعتها

لقد نقعتها في الكحول

وباعتها لسانتا كلوز

فأخبرها أن الأمر كان منافيًا للقانون

أن ترتدي تلك الملابس الداخلية الوسخة.

بدأ موك بوي بالرقص بقوة وجعل الجميع يرقصون بطريقة جنونية. وعندما انتهى جلس مجددًا على الأرض ونام. ثم بدأوا جميعًا يلعبون فلوريدا فليب ولعبة الورق. ومن بعدها لعبة الزهر. بلا مقامرة. فقد كانت هذه لعبة مختلفة. كل شخص يسدد ضرباته البارعة. وكالعادة انتهى الأمر بمواجهة بين تي كيك وموتور بوت. تي كيك بابتسامته الخجلة وموتور بوت بوجهه الملائكي الأسود الصغير وهما يقومان بحركات استثنائية بالزهر. نسي الآخرون العمل والطقس وجلسوا لمشاهدتهما. كان ذلك فنًا. لو رميت آلاف الدولارات في ساحة ماديسون لما لقيت هذا الاهتمام.

بعد قليل نظر أحدهم خارجًا وقال: «الطقس لا يتحسن في الخارج. أعتقد أنني سأعود إلى كوخي». كان تي كيك وموتور بوت لا يزالان يلعبان لذا فقد تركهما الجميع ومضوا إلى منازلهم.

في وقت ما من تلك الليلة عادت الرياح. كل شيء في العالم كان يقعقع بحدة بالطريقة التي يطرق بها ستو بيف على طبله بأطراف أصابعه. في الصباح كان جبرائيل يعزف نغمات عميقة بطبله. لذا فعندما نظرت جاني من الباب رأت الغشاوة المنجرفة تتجمع في الغرب ــــ ذلك الحقل من السحاب في السماء ــــ ينضم إلى الرعود ويتوجهون نحو الأرض. بصخب وعلو وانخفاض واتساع انتشر الصوت والحركة، تتصاعد، تغرق، تعتم.

أيقظ الأمر بحيرة أوكيتشوبي العجوز وبدأ الوحش يتقلب في سريره. بدأ يلتف ويشتكي مثل عجوز نكد ومتذمر. سمع الناس في الأحياء والناس في البيوت الكبيرة الأصوات القادمة من البحيرة وبدأوا يتساءلون. شعر الناس

بعدم الارتياح ولكن بالأمان لأن السد سوف يبقي الوحش في سريره. إذا اعتقدت القلاع نفسها آمنة، فالكابينة لا يجب أن تشعر بالقلق. كان القرار قد اتخذ بالفعل كما هو الحال دائمًا. اختفوا داخل شقوقكم، وارجفوا في أسرتكم الرطبة وانتظروا رحمة الرب. فالرئيس ربما يوقف كل هذا قبل حلول الصباح على أي حال. من السهل جدًا أن تكون مليئًا بالأمل في النهار عندما يكون بإمكانك رؤية الأشياء التي ترغب في رؤيتها. ولكن في الليل، تبقى الليلة. الليلة كانت تخطو خطى كبيرة في العدم بينما تحمل العالم بأكمله في يديها.

سلاسل كبيرة من البرق والرعد كان تضرب سطح المنزل. لذا فقد توقف تي كيك وموتور عن اللعب. نظر موتور إلى أعلى بنظرته الملائكية وقال: «الرب الكبير يسحب كرسيه فوق».

«أنا سعيدة أنكم توقفتم عن اللعب، حتى ولو لم تكونوا تلعبون مقابل المال»، قالت جاني. «الرب الكبير يقوم بعمله الآن، يجب أن نبقى هادئين».

اقتربوا أكثر ونظروا خلال الباب. ولكنهم لم يستخدموا أجزاء أكثر في جسدهم، ولم ينظروا إلى أي شيء سوى الباب. كان الوقت قد مر على سؤال البيض عما يجب أن يبحثوا عنه خلال ذلك الباب. ست عيون كانت تسأل الرب.

خلال هزيم الريح سمعوا أشياء تتحطم وأشياء تندفع وتتكسر بسرعة لا تصدق. أرنب صغير تلوى من خلال ثقب في الأرض، وقرفص هناك في الظل قبالة الجدار، يبدو أنه كان يعرف أن لا أحد يريد لحمه في مثل هذا الوقت. البحيرة صارت غاضبة أكثر وأكثر بينما لم يكن يفصل بينها وبينهم سوى السدود.

حين هدأت الريح قليلًا، لمس تي كيك جاني وقال لها، «أعتقد أنك تتمنين

الآن لو أنك بقيت في منزلك الكبير بدلًا عن أن تكوني في مكان مثل هذا أليس كذلك؟»

«لا».

«لا؟»

«لا، بالتأكيد، فالناس لا يموتون إلى أن تحين ساعتهم، بغض النظر عن مكانك. أنا معك في هذه العاصفة وهذا كل ما يهم».

«شكرًا لكِ سيدتي، ولكن لنفترض أنك ستموتين الآن. ألن تغضبي مني لأنني جررتك إلى هنا؟»

«لا. لقد كنا معًا لعامين. لو كان بإمكانك أن ترى الضوء عند الفجر، فلن تقلق لو مت عند المغيب. هناك أناس كثرٌ لم يروا الضوء قط. لقد كنت أتعثر في الخارج وفتح الرب لي الباب».

جثا على الأرض ووضع رأسه في حضنها. «حسنًا إذن، لقد قلت ما لم تقوليه من قبل، لأنني لم أعرف قط أنك راضية لبقائك معي بهذا الشكل. لقد فكرت ــــ»

عادت الريح بغضب مضاعف هذه المرة، وأخمدت الضوء للمرة الأخيرة: جلسوا بصحبة آخرين في أكواخ أخرى، عيونهم موجهة قبالة الجدران الخام وأرواحهم تسأل ما إذا كان ما يقصده الرب هو قياس قوتهم الهزيلة أمامه. بدا أنهم كانوا يحدقون في الظلام، وعيونهم كانت تراقب الرب.

حالما خرج تي كيك وهو يدفع الرياح أمامه، رأى أن الرياح قد وهبت الحياة لكثير من الأشياء التي كانوا يظنون أنها ميتة وقتلت أشياء كثيرة كانت حية من قبل. كان الماء في كل مكان. الأسماك كانت تسبح في الفناء، ولو ارتفع الماء ثلاثة إنشات إضافية فسيدخل إلى المنزل. قرر أن يبحث عن عربة

لتأخذهم إلى إيفرغليدز قبل أن تسوء الأمور أكثر. عاد إلى الداخل ليطلع جاني على الأمر لكي تجهز نفسها.

«اجمعي أوراق التأمين خاصتنا يا جاني. سوف أحمل غيتاري والأشياء الأخرى بنفسي».

«هل أخذت الأموال من الخزانة؟»

«لا لم أخذها، خذيها سريعًا واقطعي جزءًا من مفرش المائدة لتلفيها فيه. فربما سنجد الماء قد وصل إلى أعناقنا. واقطعي جزءًا آخر سريعًا لأوراقنا. يجب أن نذهب، لو لم يصبح الوقت متأخرًا جدًا على ذلك. فالطبق لن يستطيع احتمال ما يحويه لوقت أطول».

حمل المفرش وأخرج سكينه ليمزق جزءًا منه وأمسكته جاني باستقامة بينما يقطعه.

«لكن يا تي كيك الجو سيء جدًا في الخارج. ربما من الأفضل أن نبقى هنا بدلًا عن أن نحاول الخروج ـــ»

أوقف الجدال ببضع كلمات فقط. «جهزي الأشياء»، قالها وخرج. كان قد رأى أكثر مما رأته جاني.

أخذت جاني إبرة كبيرة وأحضرت كيسًا طويلًا بعض الشيء. وجدت بعض الصحف ولفت بها النقود الورقية والأوراق وحشرتها في الكيس ثم خاطت رقبة الكيس بإبرتها. قبل أن تتمكن من تخبأتها جيدًا في جيب مئزرها، عاد تي كيك مرة أخرى.

«ليس هناك سيارات يا جاني».

«لقد ظننت ذلك أيضًا! ما الذي سنفعله الآن؟»

«سوف نسير».

«نخوض كل هذه المياه يا تي كيك؟ لا أظن أنني سأستطيع الخروج من هنا».

«أوه، بل تستطيعين. يمكننا أنا وأنت وموتور أن نشبك أيدينا ونمسك بعضنا البعض. أليس كذلك يا موتور؟»

«إنه نائم على السرير»، قالت جاني. ناداه تي كيك دون أن يتحرك.

«من الأفضل أن تنهض من مكانك يا موتور! لقد فتحت أبواب الجحيم في جورجيا. كيف بإمكانك أن تنام في مثل هكذا وقت؟ الماء ملء الفناء».

خرجوا إلى الفناء وخاضوا في المياه حتى أفخاذهم ولكنهم تمكنوا من التوجه شرقًا. كان على تي كيك أن يرمي غيتاره، ورأت جاني كم آلمه الأمر. تفادوا صواريخ طائرة، ومخاطر عائمة، وتجنبوا الوقوع في الحفر واطمئنوا أن الريح في ظهورهم، حتى وصلوا إلى أرض جافة نسبيًا. كان عليهم أن يقتالوا لكيلا يدفعوا في الطريق الخاطئ وللحفاظ على تماسكهم. رأوا أناسًا أخرين مثلهم يناضلون كما كانوا يفعلون. بيوت هنا وهناك، وماشية مرتعبة. ولكن قبل كل شيء الرياح والمياه.

البحيرة، تحت هديرها المضاعف كان يمكن سماع صوت جبار لصخور وأخشاب مطحونة ومجلجلة. نظروا إلى الوراء. رأوا أناسًا يحاولون الركض في مياه مستعرة ويصرخون عندما وجدوا أنهم لا يستطيعون ذلك. السد الكبير الذي بنيت أمامه المساكن كان يتقدم إلى الأمام. ويرتفع أعلى بعشرة أقدام؛ وبقدر ما أمكنهم أن يروا فالجدران الثرثارة كان تتحطم أمام المياه على نطاق كوني. كان المسخ قد غادر سريره. الرياح التي تبلغ سرعتها مائتي ميل في الساعة كانت قد كسرت قيوده. فغزا السدود وركض إلى الأمام حتى رأى

المساكن؛ فاقتلع عنها العشب وهرع خلف من يفترض أنهم الغزاة، فحطم السدود، حطم المنازل، حطم الناس الذين في المنازل إلى جانب الأخشاب الأخرى. البحر كان يمشي على الأرض بكعبٍ ثقيل.

«البحيرة قادمة!» قال تي كيك لاهثًا.

«البحيرة!» برعب مذهول قال موتور بوت، «البحيرة!»

«إنها قادمة، خلفنا!» ارتجفت جاني.

«نحن لا نستطيع الطيران».

«لكن لا زال بإمكاننا الركض»، صرخ تي كيك، وركضوا جميعًا. المياه المندفعة ركضت بشكل أسرع. الهيئة العظيمة كُبحت، ولكن الأنهار تدفقت بإسهاب خلال تصدعات الجدار وتنامت كضوء النهار. ركض الهاربون الثلاثة خلال خط آخر من الأكواخ المرتفعة قليلًا. وصرخوا بأعلى ما يمكنهم: «البحيرة قادمة!» ففتحت أبواب كثيرة وانضم إليهم أناس كثر في وجهتهم. «البحيرة قادمة!» والماء المتدفق يزعق ويدمدم متقدمًا، «نعم، أنا قادم!»، وهرب أولئك الذين استطاعوا الهروب.

وصلوا إلى منازل طويلة في رابية وقالت جاني: «دعنا نتوقف هنا، لن أستطيع التقدم أكثر. لقد تعبت».

«جميعنا تعبنا»، صحح تي كيك. «سوف نأوي إلى الداخل من هذا الطقس». طرق على الباب بسكينه، بينما يتكؤون على الجدار. طرق مرة أخرى ثم توجه هو وموتور إلى الخلف ودخلا من الباب الخلفي ولم يكن هناك أحد.

«هؤلاء الناس كان لديهم حدس أفضل مني»، قال تي كيك بينما يجلسون على الأرض. «كان علينا أن نذهب مع لياس كما طلب مني».

«لكنك لم تكن تعرف أن هذا سيحدث»، قالت جاني. «وعندما لا تعرف، فمعنى هذا أنك لا تعرف فقط. لم يكن قدوم الإعصار أمرًا مؤكدًا».

ناموا فورًا ولكن جاني كانت أول من استيقظ. سمعت صوت مياه متدفقة فنهضت.

«تي كيك، موتور بوت، البحيرة قادمة!» كانت البحيرة قادمة فعلًا. ببطء وبشكل أوسع، ولكنها قادمة. كانت قد داست على الكثير من الجدران الداعمة وخفضت جبهتها عبر الانتشار. ولكنها أتت مثرثرة ومتذمرة مثل ماموث متعب.

«هذا منزل عالٍ وطويل. ربما لن تصل المياه إلى هنا أبدًا»، واست جاني نفسها. «ولو وصلت فربما لن تصل للجزء العلوي من المنزل».

«إن بحيرة أوكيتشوبي يبلغ اتساعها أربعمئة ميل وطولها ستمئة ميل. هذه كمية كبيرة من الماء. لو أطاحت هذه الرياح بكل تلك المياه في هذا الاتجاه، فهذا المنزل لن يصمد. من الأفضل أن نمضي. موتور بوت!»

«ماذا تريد يا رجل؟»

«البحيرة قادمة!»

«لا ليست قادمة! اسمع! صوتها يأتي من بعيد جدًا. دعها تأتي. سوف أنتظر هنا».

«انهض يا موتور بوت! دعنا نتوجه إلى طريق المؤدي إلى بالم بيتش. المكان آمن جدًا هناك».

«أنا بأمان هنا يا رجل. اذهبا لو أردتما. أنا نعس».

«ما الذي ستفعله لو وصلت البحيرة إلى هنا؟»

«سأصعد للأعلى».

«افترض أنها وصلت للأعلى؟»

«سأسبح يا رجل. هذا كل ما في الأمر».

«حسنًا إذن، وداعًا يا موتور بوت، كل الأشياء سيئة كما تعرف. ربما سنبتعد عن بعضنا لكنك صديق عزيز وسأفتقدك».

«وداعًا يا تي كيك. لكن كان يجب عليكما أن تبقيا لتناما وتأخذا قسطًا من الراحة. فلا فائدة من ذهابكما وتركي هنا بمفردي».

«نحن لا نريد البقاء. تعال معنا. ربما سيكون الظلام قد حل عندما يصل الماء إلى هنا. لذلك لن نبقى. هيا يا رجل».

«يجب أن أحصل على قسط من النوم يا تي كيك».

«حسنًا، وداعًا إذن يا موتور. أتمنى لك الحظ السعيد. سوف نذهب سوية إلى تلك النزهة في ناسو عندما ينتهي كل هذا».

«بالتأكيد يا تي كيك، فمنزل أمي هو منزلك».

مشى تي كيك وجاني مسافة كبيرة قبل أن يبدآ في الخوض في المياه مجددًا. ثم كان عليهما أن يسبحا لمسافة، وجاني لم تكن تستطيع السباحة بسرعة، لذا فقد حملها تي كيك حتى وصل إلى نتوء قاده إلى السد. بدا له أن الرياح تهدأ قليلًا لذا فقد بدأ يبحث عن مكان ليستريحا فيه. رياحه كانت قد مضت. جاني كانت مرهقة وتعرج، ولكن لم يكن عليها أن تسبح كل تلك المسافة وهي تحمل شخصًا على ظهرها، لذا فتي كيك كان بحالة أسوأ بكثير. ولكنهما لم يستطيعا التوقف. كانا يعرفان أن السد يحميهما ولكنه لم يكن ضمانًا. البحيرة كانت قادمة. كان عليهما أن يصلا إلى جسر الستة أميال. فقد كان عاليًا وربما

سيكون آمنًا حتى.

كان الجميع يمشون على السد. يسرعون، يتجرجرون، يسقطون، يبكون، ينادون أسماء بأمل ودون أمل. الرياح والأمطار كانت تضرب المسنين والأطفال. سقط تي كيك مرة أو مرتين من التعب وساعدته جاني على الوقوف. لذا فقد وصلا إلى جسر الستة أميال وفكرا أن يستريحا قليلًا.

لكنه كان مكتظًا. كان الناس البيض قد احتلوا هذه النقطة المرتفعة، ولم تكن هناك مساحة أكبر. كان بإمكانهم أن يصعدوا أحد جوانبه العالية ويهبطوا من الجهة الأخرى، كان ذلك كل شيء. ولأميال أكثر لم يكن هنالك راحة.

مرّا بجانب رجل ميت وهو جالس على أرجوحة، ومحاصر تمامًا بحيوانات برية وأفاعي. الخطر المشترك يصنع أصدقاء مشتركين.

تشبث رجل آخر إلى شجرة سرو على جزيرة صغيرة. سقف من الصفيح معلق من الفروع بأسلاك والرياح تأرجحه ذهابًا وإيابًا مثل الفأس العظيم. لم يتجرأ الرجل على التحرك خطوة إلى اليمين لكيلا يمزقه نصل ذلك السقف. ولم يجرؤ على التحرك خطوة إلى اليسار لأن أفعى كبيرة كانت على تلك الجهة. كان هناك شريط من المياه بين الجزيرة والسد، وقد تشبث الرجل بالشجرة وصرخ طلبًا للمساعدة.

«الأفعى لن تعضك»، صرخ تي كيك. «إنها تخاف من الاقتراب من الأسلاك. تخاف أن تسقط عليه. امشِ من ذلك الجانب واسبح!»

بعد وقت قليل شعر تي كيك أنه لن يستطيع التقدم أكثر. ليس في تلك اللحظة. لذا فقد رقد في جانب الطريق ليرتاح. تمددت جاني بينه وبين الرياح فأغمض عينيه وترك التعب يتسلل خارج جسده. على كلا جانبي السد

كانت هناك مياه كثيرة كالبحيرات ـــ الماء مليء بأشياء حية وميتة. أشياء لا تنتمي إلى الماء. على امتداد البصر. كانت المياه والرياح يلعبان بغضب. أبحرت قطعة كبيرة من ورق القير الذي تغطى به سقوف المنازل خلال الهواء وطارت على طول السد حتى تعلقت على شجرة. رأتها جاني بفرح. كان هذا هو الشيء ذاته الذي يمكن أن تغطي به تي كيك. يمكنها أن تميل قبالتها وتسحبها لأسفل. لم تكن الريح سيئة للغاية كما كان حالها من قبل. تي كيك المسكين!

زحفت على يديها وقدميها نحو تلك القطعة من ورق القير وأمسكت بها من كلا الجانبين. وفي الحال رفعتها الرياح ورأت جاني نفسها تبتعد عن السد نحو الميمنة، وتلقى نحو المياه. صرخت برعب وتركت ورقة القير التي طارت في الهواء بينما سقطت هي في المياه.

«تي كيك!» سمعها ونهض بسرعة. كانت جاني تحاول أن تسبح ولكن محاربة المياه كانت أمرًا صعبًا جدًا. رأى بقرة تسبح ببطء نحو السد في خط مائل. وكلب ضخم يجلس على كتفيها ويرتجف ويهدر. البقرة كانت تقترب من جاني. ولعل بعض ضربات أخرى ستجلبها إلى هناك.

«حاولي الوصول إلى البقرة وأمسكي بذيلها! لا تستخدمي قدميك، يديك فقط تكفي. هذا جيد، اقتربي!»

وصلت جاني إلى ذيل البقرة ورفعت رأسها على ردفها بقدر ما استطاعت فوق الماء. غاصت البقرة قليلًا بسبب الحمل المضاف وعاشت لحظة من الخوف. اعتقدت أن تمساحًا يسحبها إلى الأسفل. ثم واصلت مسيرها. وقف الكلب وهدر مثل أسد، بغضب شديد، وعضلاته متصلبة كاشفًا عن أسنانه. عبر تي كيك الماء مثل ثعلب الماء، وفتح سكينته ثم غاص. رجع الكلب أسفل العظم الخلفي للبقرة لكي يهاجم جاني التي صرخت

وتراجعت للخلف على ذيل البقرة، بعيدًا عن متناول فكي الكلب الغاضب. كان يريد أن يسبح خلفها ولكنه خاف من المياه. ارتفع تي كيك وأمسك الكلب من رقبته. لكنه كان كلبًا قويًا وكان تي كيك تعبًا جدًا. لذلك فهو لم يقتل الكلب بضربة واحدة كما كان ينوي. ولكن الكلب لم يتمكن من تحرير نفسه أيضًا. تقاتلا، وبطريقة ما استطاع الكلب عض تي كيك على خده مرة واحدة. ثم بعدها قتله تي كيك وأرسله إلى عمق الماء ليبقى هناك. ارتاحت البقرة من الحمل الثقيل وهي تهبط على السد مع جاني قبل أن يعود تي كيك زاحفًا بإرهاق إلى السد مرة أخرى.

بدأت جاني تبحث في وجهه عن المكان الذي عضه فيه الكلب ولكنه قال إنها لم تكن عضة كبيرة. «كنت لأرسله إلى الجحيم مباشرة لو أنه عضني في عيني. لأنه ليس بإمكانك شراء عين من المتجر، كما تعلمين». انقلب نحو حافة السد كما لو لم تكن هناك عاصفة أبدًا. «دعيني أرتاح قليلًا ثم بعدها نتجه إلى المدينة بطريقة ما».

في صباح اليوم التالي بعد شروق الشمس وصلا إلى بالم بيتش. بدا الأمر وكأنه سنوات بالنسبة لجسديهما. شتاء تلو الآخر من العمل الشاق والمعاناة. استمرت العجلة تلف وتلف. بأمل، دون أمل ثم اختفت. لكن العاصفة ابتعدت عندما وصلوا إلى المدينة التي لجأ إليها.

كان الخراب هناك بفمه المفتوح على مصراعيه. هناك في إيفرغليدز كانت الرياح قد انتزعت البحيرات والأشجار. وفي المدينة كانت قد اندلعت بين المنازل والرجال. وقف تي كيك وجاني على حافة الأشياء، ونظرا نحو الخراب.

«كيف يمكنني أن أجد طبيبًا لوجهك في كل هذه الفوضى؟» ندبت جاني.

«لا أحتاج إلى طبيب ليدرس حالتي. ما أحتاجه هو مكان لأرتاح فيه».

بجزء كبير من مالها ومدخراتها استطاعا أن يجدا مكانًا يناما فيه. كان الوضع بهذا الشكل. لا مكان يعيشان فيه. فقط مكان ينامان فيه. نظر تي كيك حوله وجلس بتثاقل على حافة السرير.

«حسنًا»، قال بتواضع، «أعتقد أنك لم تتخيلي أنك ستصلين إلى هذه المرحلة عندما ارتبطتِ بي، أليس كذلك؟»

«في يوم من الأيام يا تي كيك لم أكن اعتقد أن لحياتي أي معنى، كنت أقف هناك ميتة وأحاول أن أبتسم. لكنك أتيت وصنعت مني شيئًا مختلفًا. لذلك فأنا شاكرة لكل شيء مررنا به معًا».

«شكرًا سيدتي».

«لقد كنت نبيلًا تمامًا بإنقاذي من ذلك الكلب. لا أعتقد أنك رأيت عينيه مثلما رأيتهما، فهو لم يكن ينوي أن يعضني فقط يا تي كيك، بل كان يريد قتلي. لن أنسى عينيه أبدًا. لم يكن فيهما شيء سوى الكره الصافي. أتساءل من أين أتى؟»

«نعم لقد رأيته. كان مرعبًا. لم أقصد أن أوجه كرهه نحوي أيضًا. كان عليه أن يموت لأعيش. فنصل سكيني قال إنه المقصود».

«صدقني كان ليمزقني نصفين لولاك يا حبيبي».

«ليس عليك أن تقولي ذلك يا حبيبتي، فأنا هنا من أجلك، وأريدك أن تعرفي أن هناك رجلًا إلى جانبك».

## 19

ومن ثم عاد ذو الأصابع المربعة إلى منزله مرة أخرى. وقف مجددًا في منزله العالي الذي ليس له جوانب ولا سقف وسيفه اللامع مسلول من خلفه. حصانه الأبيض الشاحب ركض فوق الماء، وفوق الأعاصير والأرض. وقت الموت كان قد انتهى. وقد حل وقت دفن الموتى.

«جاني، لقد مكثنا في هذا المكان القذر المترهل يومين الآن، وهذا كثير. علينا أن نخرج من هذا المنزل ومن هذه المدينة. لم يعجبني هذا المكان أبدًا».

«إلى أين سنذهب يا تي كيك؟»

«ربما يمكننا أن نعود إلى أقصى الولاية، لو أن هذا ما تريدينه».

«أنا لم أقل ذلك، لكن لو كان ذلك ما تريده ـــ»

«لا، أنا لم أقل شيئًا كهذا. أنا أحاول ألا أبقيك بعيدًا عن سبل راحتك أكثر».

«سأفعل ما تريده».

«أتسمع هذه المرأة؟ أنا أوشك على تمزيق بنطالي لأكون معها وهي هنا ـــ يجب أن تطلق عليها المسامير».

«حسنًا إذن، سمي شيئًا وسوف نفعله. يمكننا أن نبحث عن أي عمل يسد حوجتنا».

«على كل حال لقد انتهيت من الراحة وانتهت حشرات الفراش من مص

دمٍ كثيرٍ هنا. سوف أخرج لأرى ما يمكننا فعله. سوف أحاول إيجاد أي شيء».

«من الأفضل أن تبقى داخل هذا المنزل لترتاح. ليس هناك شيء في الخارج على كل حال».

«لكنني أريد أن ألقي نظرة بنفسي يا جاني. ربما هناك عمل يمكنني أن أساعد فيه».

«ما يقومون به لن يعجبك فعله، إنهم يجمعون كل الرجال الذين يستطيعون جمعهم بالقوة للمساعدة في دفن الموتى. لكنهم لا يوضحون لك ما إذا كان ذلك عمل بأجر أو لا. ابقَ في هذا المنزل. الصليب الأحمر يقومون بكل شيء للمرضى والمنكوبين».

«لدي مال يا جاني، لذا فهم لن يزعجونني. عل كل حال أريد أن أذهب وأرى سير الأمور. أريد أن أعرف لو كانت هناك أخبار عن الصبية في إيفرغليدز. ربما كلهم أتوا بسلام. وربما لا». خرج تي كيك وأخذ يتجول في الأرجاء. ورأى يد الرهبة قد حطت في كل مكان. منازل دون سقوف، وسقوف دون منازل. حديد وصخر كلها محطمة. الحقد عبث مع الرجال.

نظر تي كيك ورأى رجلين قادمين نحوه ببنادق على أكتافهما. رجلان أبيضان، لذا فقد فكر فيما قالته له جاني وتحضر للركض. ولكنه فكر أن هذا لن يفيده.

كانا قد رأياه بالفعل وقد كانا قريبين لدرجة أنهما لن يخطآه لو صوبا نحوه. ربما سيمران إلى جانبه فقط. ربما عندما يريان أنه يحمل مالًا سيعلمان أنه ليس متشردًا.

«مرحبًا يا جيم»، قال الأطول بينهما. «لقد كنا نبحث عنك».

«اسمي ليس جيم»، قال تي كيك بحذر. «ما الذي كنتما تبحثان عني لأجله؟ أنا لم أفعل شيئًا».

«هذا ما كنا نبحث عنك لأجله ـ فأنت لم تفعل شيئًا. هيا بنا لنقوم بدفن الموتى. فهم لا يدفنون بالسرعة الكافية».

تراجع تي كيك بطريقة دفاعية. «وما شأني بذلك؟ أنا رجل عامل وأموالي في جيبي. وقد خرجت من إيفرغليدز بسبب العاصفة».

قام الرجل القصير بحركة سريعة ببندقيته. «تقدم على الطريق يا سيدي! ألن تبحث عن أحد ليدفنك! تقدم أمامي يا سيد!»

وجد تي كيك نفسه جزءًا من جيش صغير ينظف الأماكن العامة ويدفن الموتى. كان يجب أن تفتش الجثث وتحمل إلى أماكن معينة ومن ثم تدفن. لم تكن الجثث موجودة فقط في المنازل المحطمة. كانت تحت المنازل، مشبوكة في الشجيرات، تطفو في المياه، معلقة في الأشجار، ومنجرفة تحت الحطام.

كانت الشاحنات المصطفة للسحب تأتي من إيفرغليدز ومن أماكن نائية أخرى، كل واحدة منها محملة بخمس وعشرين جثة. بعض الجثث كانت بزيها الكامل، وبعضها عارية وبعضها الآخر على كل درجات الفوضى. بعض الجثث بوجوه هادئة وأيدٍ راضية. بعض الجثث بوجوه محاربة ونظرة الذهول تخرج من عيونها المفتوحة على اتساعها. لقد وجدهم الموت وهم محدقون ويحاولون النظر خلف ما هو مرئي.

رجال بائسون كثيبون من البيض والسود كانوا تحت الحراسة كي يبحثوا عن الجثث ويحفروا القبور. حفرة كبيرة كان قد حفرت في مقابر البيض وحفرة كبيرة أخرى في مقابر السود. الكثيرون قرروا إلقاء الجثث سريعًا حال وصولها. فقد بقوا في الخارج لوقت طويل. كان الرجال يقومون بكل

الجهد اللازم لدفنهم بأقصى سرعة ممكنة. ولكن الحراس أوقفوهم. فقد أتتهم أوامر بأن يخرجوهم.

«مرحبًا جميعًا! لا ترموا الأجساد في الحفر بهذا الشكل! ابحثوا في كل جزء منهم واعرفوا لو كانوا بيضًا أو سود».

«سوف نصبح أبطأ في الدفن بهذه الطريقة، ليرحمنا الرب! لمَ علينا أن نفحصهم؟ ما الفرق الذي سيشكله لونهم؟ جميعهم يجب أن يدفنوا بسرعة».

«لقد أتتنا أوامر من القيادة العامة. سوف يصنعون توابيتًا لكل الميتين البيض. لا شيء كثير، فقط بعض الأخشاب الرخيصة، ولكن ذلك أفضل من لا شيء. لذا لا ترموا البيض في الحفر بهذه الطريقة».

«وماذا نفعل بالملونين؟ هل ستحضرون لهم توابيتًا أيضًا؟»

«لا، فليس هناك وفرة من التوابيت. فقط رشوا الكثير من الليمون عليهم وادفنوهم».

«ياالجحيم! بعض هذه الجثث لا يمكن تمييزها أبدًا. لا يمكننا أن نعرف ما إذا كانوا بيضًا أم ملونين».

عقد الحراس اجتماعًا كبيرًا حول هذا الأمر. بعد فترة عادوا وأخبروا الرجال: «انظروا إلى شعرهم عندما لا تجدون فروقًا واضحة. ولا تدعونا نجد أي منكم يدفن شخصًا أبيض دون تابوت، ولا تضيعوا التوابيت على الملونين. فمن الصعب توفيرها في الوقت الحالي».

«إنهم دقيقون جدًا حول الشكل الذي سيذهب به هؤلاء الموتى إلى العقاب»، قال تي كيك للرجل الذي يعمل إلى جانبه. «يظنون أن الرب لا

يعلم شيئًا عن قوانين جيم كرو[1]».

ظل تي كيك يعمل لعدة ساعات حتى راودته فكرة قلق جاني عليه وجعلته بائسًا. لذا عندما تم إحضار شاحنة لتفريغها اندفع وهرب. كان عليه أن يحتمل ألم إطلاق النار عليه لو حدث ذلك، ولكنه استمر في الركض وهرب. وجد جاني حزينة وباكية كما كان يظن. هدأ بعضهما ومن ثم فتح تي كيك موضوعًا آخر.

«جاني يجب أن نغادر هذا المنزل وهذه المدينة على الفور. لا أريد أن أعمل بهذا الشكل بعد الآن».

«لا، لا يا تي كيك. دعنا نبقى هنا حتى ينتهي كل شيء. لو لم يتمكنوا من رؤيتك فهم لن يزعجوك».

«لا، فلنفترض أنهم جاؤوا للبحث؟ دعينا نخرج من هنا الليلة».

«إلى أين سنذهب يا تي كيك؟»

«أقرب مكان هو إيفرغليدز، دعينا نعود إلى هناك. هذه المدينة مليئة بالمشاكل والقهر».

«ولكن يا تي كيك الإعصار كان في إيفرغليدز أيضًا. وسوف يكون هناك موتى لدفنهم هناك أيضًا».

«أعرف يا جاني، ولكن الوضع لن يكون مثلما هو هنا بالطبع. أولاً فقد كانوا يحضرون جثثًا من هناك طوال اليوم ولذلك لن يكون هناك جثث كثيرة

---

1- قوانين جيم كرو (بالإنجليزية: Jim Crow Laws) مصطلح أصبح شائع الاستخدام في الغرب في ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادي، عندما صار الفصل الاجتماعي مشروعًا في كثير من الأجزاء الجنوبية لـالولايات المتحدة. يُشير المصطلح، أصلاً، إلى شخصية سوداء البشرة في أغنية شعبية تم تأليفها عام ١٨٣٠م.

عندما نعود. وثانيًا، لم يكن هناك أناس كثرٌ بالأساس كما هو الحال هنا. ومن ثم أيضًا يا جاني فالبيض يعرفوننا هناك. من السيء أن تكون زنجيًا مجهولًا بين البيض. فالجميع يكونون ضدك».

«هذه حقيقي بالتأكيد. فالملون الذي يعرفونه يظنونه شخصًا لطيفًا، والملون الذي لا يعرفونه يظنونه زنجيًا سيئًا». قالت جاني ذلك وضحكت هي وتي كيك.

«لقد رأيت الأمر عدة مرات يا جاني؛ كل رجل أبيض يظن أنه يعرف كل داكني البشرة الجيدين بالفعل، ولا يحتاج إلى معرفة المزيد. وكل أولئك الذين لا يعرفهم لابد أنهم لصوص قضوا فترة سجنهم في المرحاض الوسخ للولايات المتحدة ولذلك فهم سيئون».

«ما الذي تعنيه بالمرحاض الوسخ للولايات المتحدة يا تي كيك؟»

«حسنًا أنت تعرفين أن العم سام يملك أكبر وأفضل شيء بين كل الأشياء. لذلك فقد فكر الرجل الأبيض أن أي شيء أقل من خزانة المياه المجمعة الخاصة بالعم سام هي أمر سهل. لذلك ما أعنيه هو أنني أريد أن أذهب حيث يعرفني البيض. أحس وكأنني طفل يتيم هنا».

جمعا أشياءهما وخرجا من المنزل مسرعين. في الصباح التالي كانا قد عادا إلى حقول الوحل. عملا كثيرًا لترتيب المنزل مرة أخرى لكي يستطيع تي كيك الخروج والبحث عن شيء ليفعله في الصباح التالي. خرج في الصباح التالي بدافع الفضول أكثر من كونه خارجًا للبحث عن عمل. وبقي في الخارج طوال اليوم. وفي المساء عاد سعيدًا ومشرقًا.

«لن تصدقي من الذين رأيتهم اليوم؟ أراهن أنك لن تعرفي».

«أراهن أنك رأيت سوب دي بوتووم».

«نعم رأيته هو وستو بيف ودوكري ولياس وكودماي وبوتناي. احزري من غيرهم!»

«الرب وحده يعلم. أهو ستيرت؟»

«لا ستيرت لم ينجُ. وقد دفنه لياس في بالم بيتش. فكري من يكون؟»

«ألن تخبرني يا تي كيك. لا أعرف. لكنه لن يكون موتور بوت».

«إنه هو بالفعل. موتور نفسه! ابن الحرام ذاك نام في المنزل وجاءت البحيرة وحركت المنزل لمكان ما ولم يعرف موتور شيئًا حتى اقتربت العاصفة من نهايتها».

«لا!!!!!»

«نعم. ركضنا نحن كالحمقى من الخطر وهو نام هناك وجرف بعيدًا».

«حسنًا أنت تعرف أنهم يقولون إن الحظ ثروة».

«هذا صحيح. لقد وجدت وظيفة. للمساعدة في ترتيب الأشياء بشكل عام، وسوف يعيدون بناء ذلك السد بالتأكيد. هذه الأرض يجب أن تشذب أيضًا. هناك الكثير من العمل، وهم يحتاجون إلى الكثير من الرجال».

لذا فقد قضى تي كيك ثلاثة أسابيع حماسية أخرى. اشترى بندقية ومسدس جديدين وتنافس هو وجاني حول من يستطيع التصويب أفضل بينهما كانت جاني تغلبه بالبندقية دائمًا. كان بإمكانها أن تقتلع رأس دجاجة جالسة على قمة شجرة صنوبر. كان تي كيك يحس بالغيرة قليلًا، ولكنه كان فخورًا كذلك بتلميذته.

في أحد الأيام خلال الأسبوع الرابع أتى تي كيك مبكرًا يشتكي من رأسه. صداع جعله يستلقي لفترة. واستيقظ جائعًا. كانت جاني قد حضرت

له العشاء، ولكن في المسافة التي مشى فيها من غرفة النوم إلى المطبخ قال إنه فقد شهيته.

«ظننت أنك قلت لي أنك جائع!» قالت جاني.

«لقد ظننت ذلك»، قال تي كيك بهدوء ووضع رأسه بين يديه.

«ولكنني خبزت لك فطيرة فاصوليا».

«أعرف أنها طيبة المذاق لكنني لا أشتهي شيئًا الآن يا جاني، شكرًا لكِ».

عاد إلى فراشه. وفي منتصف الليل استيقظت جاني على صوت حشرجة في حلقه وهو يصارع كابوسًا. أشعلت جاني المصباح وأيقظته.

«ما الأمر حبيبي؟» هدأته جاني. «عليك أن تخبرني لكي أحس بما تحس به. دعني أحمل الألم معك يا حبيبي. ما الذي يؤلمك يا حلوي؟»

«شيء طاردني في منامي يا جاني». قال منتحبًا، «وحاول خنقي حتى الموت. لو لم تكوني إلى جانبي يا جاني لكنت ميتًا».

«لقد كنت تعاني بالفعل. لكنك بخير الآن يا حبيبي. أنا هنا لأجلك».

عاد للنوم، ولكن لم يتحسن الأمر. كان مريضًا في الصباح التالي أيضًا ولم تسمح له جاني بمغادرة المنزل إطلاقًا.

«لو أن بإمكاني إنهاء عملي لهذا الأسبوع»، قال تي كيك.

«بإمكان الآخرين أن يعملوا في هذا الأسبوع. استلقِ يا حبيبي تي كيك. سوف أذهب لأحضر لك طبيبًا».

«الأمر ليس بهذا السوء يا جاني. انظري إليّ! أستطيع أن أمشي في كل أنحاء المكان».

«لكنك مريض حتمًا، لقد أصابتك الحمى عدة مرات منذ الإعصار».

«أعطني كوبًا من الماء قبل أن تغادري إذن». ملأت جاني كوبًا من الماء وأحضرته له. حمل تي كيك الكوب وملأ فمه ثم كح بشدة، وأخرج الماء الذي في فمه ورمى الكأس على الأرض. ارتعبت جاني كثيرًا.

«ما الذي جعلك تفعل ذلك بالماء يا تي كيك؟ لقد طلبت مني أن أحضره لك».

«هناك شيء في هذا الماء. لقد كاد يخنقني حتى الموت. لقد أخبرتك أن شيء أتى وخنقني في الليلة الماضية. وقد قلت إنني كنت أحلم».

«ربما كانت مشعوذة تحاول أذيتك يا حبيبي. سأرى لو كان بإمكاني أن أحضر بعض بذور الخردل بينما أن بالخارج. ولكنني متأكدة من أني سأجد طبيبًا وأعود به إليك».

لم يقل تي كيك أي كلمة اعتراض وأسرعت جاني. مرضه بالنسبة لها كان أسوأ من الإعصار. حالما توارت عن الأنظار قام تي كيك وسكب دلو الماء وغسله. ثم جاهد ليصل إلى الصنبور ليملأه مرة أخرى. لم يكن يتهم جاني بالخبث والتخطيط لشيء. كان يتهمها بعدم الاكتراث. كان عليها أن تعلم أن دلو الماء يحتاج لأن يغسل ككل الأشياء الأخرى. سوف يخبرها عن الأمر بجدية عندما تعود. ما الذي كانت تفكر به على أي حال؟ ووجد نفسه غاضبًا جدًا من الأمر. وضع الدلو على الطاولة وجلس قليلًا قبل أن يشرب منه.

أخيرًا ملأ كوبًا. بدا الماء باردًا وجيدًا! عندما فكر في الأمر، تذكر أنه لم يشرب شيئًا منذ البارحة. وقد ظن أن هذا ما يحتاجه لكي تفتح شهيته لتناول الطعام.

أرجع رأسه وقرب الكوب من شفتيه، لكن الشيطان كان هناك يحاول

خنقه بسرعة. كانت هناك راحة كبرى بقذفه الماء خارج فمه. عاد ليستلقي في الفراش مرة أخرى وهو يرتجف حتى وصلت جاني ومعها الطبيب. ذلك الدكتور الأبيض كان هناك في حقول الوحل منذ وقت طويل، وكان يحكي للرجال الذين يعملون هناك حكايات لطيفة. أتى معها إلى المنزل سريعًا وقبعته موضوعة على جانب رأسه.

«مرحبًا يا تي كيك ما الأمر؟»

«أتمنى لو أنني أعرف يا دكتور سيمونز. ولكنني مريض بالتأكيد».

«أعلم يا تي كيك، ولكن ليس هناك شيء لا يشفيه الويسكي. لم تكن تتناول الكحول بانتظام مؤخرًا هاه؟» ضحك وضرب تي كيك برفق على ظهره وحاول تي كيك الابتسام كما كان متوقعًا منه. لكن الأمر كان صعبًا. فتح الطبيب حقيبته وبدأ بعمله. «أنت تبدو وهنًا قليلًا يا تي كيك. لديك حمى ونبضك ضعيف. ما الذي كنت تفعله مؤخرًا؟»

«لا شيء، فقط العمل والمرح يا دكتور. ولكن يبدو أن المياه انقلبت ضدي».

«المياه؟ ما الذي تعنيه بذلك؟»

«لا أستطيع أن أبقي ماء في معدتي على الإطلاق».

«وماذا غير ذلك؟»

اقتربت جاني من الفراش بقلق. «تي كيك لا يخبرك بكل شيء يا دكتور. لقد علقنا في الإعصار الذي حدث منذ فترة، واضطر تي كيك إلى أن يحملني على ظهره ويسبح بي مسافة طويلة، ثم اضطر للمشي عدة أميال قبل أن نجد مكانًا لنرتاح فيه، واضطر أيضًا لإخراجي من المياه والتقاتل مع كلب ضخم عضه في وجهه في النهاية. لقد ظننت أنه سيمرض منذ وقت طويل».

«عضه كلب تقولين؟»

«لم يكن الأمر كبيرًا يا دكتور. لقد شفى الجرح خلال يومين أو ثلاثة»، قال تي كيك بصبر نافد. «لقد كان ذلك قبل شهر يا دكتور. وهذا شيء جديد. أظن أن الماء لم يصفُ بعد. لابد أن الأمر هكذا، فهناك الكثير من الموتى فيه لذلك لن يكون صالحًا. هذا ما أفكر فيه».

«حسنًا يا تي كيك سوف أرسل لك بعض الأدوية وأطلع جاني على كيفية الاعتناء بك. على كل حال أريدك أن تبقى في الفراش حتى أعود لرؤيتك مرة أخرى. لكن ابقي جاني بعيدة عن فراشك لفترة أتسمعني؟ تعالي معي إلى السيارة يا جاني. أريد أن أعطيك بضع حبوب ليأخذها تي كيك في الحال».

في الخارج بحث في حقيبته وأخرج لجاني زجاجة بها حبوب صغيرة.

«أعطيه واحدة من هذه كل ساعة لكي يظل هادئًا يا جاني، وابقي بعيدة عنه عندما يبدو في نوبة من الاختناق أو التقيؤ».

«كيف عرفت أنه يعاني من الاختناق والتقيؤ يا دكتور؟ هذا ما جئت إلى هنا لإخبارك به».

«أنا متأكد يا جاني أنه كان كلبًا سعرًا ذلك الذي عض زوجك. الأعراض كلها تشير إلى ذلك. من السيء أن هذا حدث من وقت طويل. لأن إعطاءه بضع حقن عقب حدوث هذا على الفور كانت ستجعله يتماثل للشفاء».

«أتعني أنه قد يموت يا دكتور؟»

«بالتأكيد سيموت. ولكن ما هو مؤسف أنه سيعاني أمرًا شنيعًا قبل أن يحدث ذلك».

«أنا أحبه حتى الموت يا دكتور. أخبرني بما يمكنني فعله لأجله وسأفعله».

«كل ما يمكنك فعله يا جاني هو أن تضعيه في مشفى المقاطعة حيث يمكنه ربطه والعناية به».

«ولكنه لا يحب المستشفيات أبدًا يا دكتور. سيظن أنني لا أريد أن أعتني به، بينما الرب يعلم أنني أريد ذلك. لا أستطيع احتمال فكرة أن نعامل تي كيك وكأنه كلب سعران».

«لقد صار الأمر كذلك يا جاني. ليس لديه فرصة للنجاة من ذلك وربما سيحاول عض شخصٍ آخر، بالأخص أنتِ، وعندها سوف تكونين في نفس حالته. الوضع سيء جدًا».

«أليس هناك ما يمكن فعله في حالته يا دكتور؟ لدينا الكثير من المال في البنك في أورلاندو. ألا يمكنك أن تفعل شيئًا لإنقاذه. مهما كلف الأمر يا دكتور، لا أهتم، لكن أرجوك يا دكتور».

«سأفعل ما باستطاعتي. سوف أتصل بمشفى بالم بيتش على الفور ليرسلوا لنا المصل الذي كان من المفترض أن يأخذه منذ ثلاثة أسابيع. سوف أفعل ما بإمكاني لإنقاذه يا جاني. لكن يبدو أن الوقت قد تأخر كثيرًا. الناس الذين في حالته لا يستطيعون ابتلاع الماء تعرفين ذلك، وفي بعض الحالات الأخرى يكون الأمر فظيعًا».

جالت جاني في الخارج قليلًا لتفكر في الأمر. لو لم تكن ترى المرض في وجهه لظنت أن كل هذا غير حقيقي. فكرت جاني أن الكلب الضخم ذا العينين اللتين تبعثان الكراهية قد قتلها على كل حال. تمنت لو أنها تركت ذيل تلك البقرة وغرقت في تلك اللحظة. ولكن أن يقتلها من خلال قتله لتي كيك فذلك شيء ليس بإمكانها احتماله. تي كيك، ابن شمس الغروب كان عليه أن يموت لأجل حبها. نظرت إلى السماء لبعض الوقت. هناك في مكان

ما فوق السماء يجلس هو في حضن الأثير الأزرق. هل لاحظ ما يحدث هنا؟ لابد أنه فعل لأنه يعرف كل شيء. هل قصد أن يفعل هذا الشيء بتي كيك وبها؟ لم يكن شيئًا بإمكانها محاربته. يمكنها فقط أن تنتظر بقلق. ربما كان يمازحها فقط وحين يعلم أن الخدعة استمرت لوقت طويل سيعطيها إشارة. نجمة في وضح النهار ربما، أو قد تصرخ الشمس، أو حتى يهمهم الرعد. رفعت ذراعها في تضرع يائس لدقيقة. لم يكن تضرعًا بالمعنى الحرفي، كان أقرب للسؤال. لكن السماء ظلت ساكنة لذا فقد دخلت إلى المنزل. سيفعل الرب أقل مما في قلبه.

كان تي كيك يرقد هناك وعيناه مغلقتان وتمنت جاني أن يكون نائمًا. لكنه لم يكن كذلك. خوف كبير تملكه. ما كان ذلك الشيء الذي أحرق دماغه وقبض على حنجرته بأصابع حديدية؟ من أين أتى ولمَ يمسك به؟ تمنى أن يتوقف كل هذا قبل أن تلاحظ جاني أي شيء. أراد أن يشرب الماء مرة أخرى لكنه لم يرد لها أن تراه وهو يفشل. قرر أنه سيذهب للشرب بسرعة حالما تخرج هي من المطبخ قبل أن يتمكن شيء من إيقافه. لا داعي لأن يقلق جاني، حتى يصبح الأمر جديًا. سمعها تنظف الفرن ورآها تتوجه للخارج لرمي الرماد. وثب على الدلو بسرعة. ولكن هذه المرة كانت رؤية الماء كافية. كان راقدًا على الأرض بألم كبير عندما عادت. داعبته هدأته وأعادته إلى السرير. وقررت أن تذهب لتفقد أمر الدواء القادم من بالم بيتش. ربما تجد شخصًا ليذهب لإحضاره لها من هناك.

«أتحس أنك بحال أفضل الآن يا تي كيك يا طفلي الحبيب؟»

«نعم، قليلًا».

«أعتقد أنني سأخرج لأنظف الفناء الأمامي. فقد ألقى الرجال قشر الفول السوداني في كل مكان. لا أريد أن يعود الطبيب ويجد المكان كما وجده

المرة الماضية».

«لا تتأخري يا جاني فأنا لا أحب أن أكون وحيدًا عندما أمرض».

ركضت أسفل الطريق بأسرع ما يمكنها. وفي طريقها التقت بسوب دي بوتووم ودوكري آتيان باتجاهها.

«مرحبًا يا جاني، كيف حال تي كيك؟»

«حالته سيئة جدًا. أنا ذاهبة الآن لأرى ما حدث بخصوص الدواء».

«لقد أخبرنا الطبيب أنه مريض لذلك أتينا لرؤيته. كما أنه لم يأتِ إلى العمل أبدًا».

«ابقيا معه حتى أعود. فهو يحتاج إلى الرفقة الآن».

ركضت مسرعة نحو المدينة ووجدت الدكتور سيمونز الذي أخبرها أنهم لم يجدوا المصل في بالم بيتش وأرسلوا إلى ميامي لإحضاره، وأنه لا يجب عليها أن تقلق فالعلاج سيكون هنا في الصباح الباكر لو لم يصل قبل ذلك فالناس لا يمزحون في حالات كتلك. إذن أن تستأجر عربة للذهاب إلى هناك لم يكن ليفيد. عليها أن تعود إلى المنزل وتنتظر. هذا كل ما في الأمر. عندما وصلت إلى المنزل كان الضيوف يهمون بالرحيل.

عندما صارا وحيدين أراد تي كيك أن يضع رأسه في حضن جاني ويدعها تهدهده بطريقتها اللطيفة تلك. ولكن شيئًا أخبره به سوب جعل لسانه يثقل ويتدلى مثل سحلية ميتة بين فكيه. لقد عاد شقيق السيدة تيرنر إلى حقول الوحل بينما هو الآن مريض بهذا الشكل. الناس لا يأخذون موضوع المرض بخفة.

«ماذا يفعل شقيق السيدة تيرنر هنا في حقول الوحل يا جاني؟»

«لا أعرف يا تي كيك. لم أكن أعرف أنه عاد حتى».

«أراهن أنك عرفتِ. لماذا ذهبتِ وتركتني وحيدًا قبل قليل؟»

«لا أحب أن تسألني مثل هذه الأسئلة يا تي كيك. هذا يبين أنك مريض جدًا بحق. أنت تغار لأنك تظن أنني سأتركك».

«إذن لماذا تسللتِ من المنزل دون أن تخبريني أين تذهبين. أنت لم تفعلي شيئًا كهذا من قبل».

«هذا لأنني لم أكن أريدك أن تقلق بسبب حالتك. لقد أرسل الدكتور لإحضار بعض الأدوية ولقد ذهبت لأعرف ما إذا وصلت تلك الأدوية أم لا».

بدأ تي كيك بالبكاء وضمته جاني بين ذراعيها مثل طفل. جلست على جانب الفراش وهزته ليهدأ مرة أخرى.

«لم تعتد أن تكون غيورًا هكذا يا تي كيك. في المقام الأول أنا لن أستطيع أن أحب أحدًا غيرك. وفي المقام الثاني، فأنا امرأة كبيرة لا يريدها أحد سواك».

«لا أنت لست كذلك، أنت تبدين مسنة فقط عندما تبدأين بإخبار الناس عن وقت ولادتك، ولكن أمام الأعين أنت صغيرة كفاية لتناسبي أي رجل. هذه ليست كذبة. أعرف العديد من الرجال الذي يريدونك وبإمكانهم أن يعملوا جاهدين لأجل هذا الأمر».

«ربما يا تي كيك لم أحاول أن أفكر في الأمر من قبل. كل ما أعرفه أن الرب انتزعني من الجحيم خلالك. وأنني أحبك وأفتخر بذلك».

«شكرًا لكِ يا سيدتي، لكني لا تقولي إنك مسنة. أنت طفلة حلوة صغيرة. لقد قرر الرب أن تقضي سنواتك الماضية مع شخص آخر، وحفظ أيام شبابك

لكي تقضيها معي».

«أنا أحس بالأمر ذاته يا تي كيك، وأشكرك لقوله».

«ليس هناك عناء في قول الحقيقة. أنت امرأة جميلة جدًا».

«أوه يا تي كيك».

«نعم أنت جميلة جدًا. في كل مرة أرى فيها بقعة مليئة بالورود تحاول جاهدة أن تظهر للعين أنها جميلة، أقول إنها يجب أن ترى حبيبتي جاني وجمالها. لابد للِك من أن تدعي الورود تراك أحيانًا، أليس كذلك يا جاني؟»

«يجب عليك أن تستمر بقول هذا يا تي كيك، ربما سأصدقك بعد مدة»، قالت جاني ذلك بمكر وأعادته إلى السرير وعندها أحست بالمسدس تحت المخدة. جعلها ذلك تحس برجفة شديدة ولكنها لم تخبره بشيء بما أنه لم يتحدث عن الأمر. لم يحدث أن نام تي كيك بمسدس تحت مخدته من قبل. «لا تكترثي بتنظيف كل تلك القذارة في الفناء الأمامي»، قال لها عندما قامت لترتب الفراش. «ابقي هنا حيث يمكنني رؤيتك».

«حسنًا يا تي كيك، كما تود».

«وإذا أتى شقيق السيدة تيرنر الغبي إلى هنا أخبريه أنني سوف أقوم بصدمه بسيارة دون مكابح. فلا حاجة لبقائه في الجوار».

«لن أخبره بأي شيء لأنني لا أظن أنني سأراه».

مر تي كيك بنوبتين في تلك الليلة. رأت جاني النظرة المختلفة في وجهه. كان تي كيك قد مضى. شيء آخر كان ينظر من خلال وجهه. كانت قد قررت أنها ستذهب إلى الطبيب حالما يظهر وهج الصباح الأول. لذا فقد كانت مرتدية ملابسها بالكامل عندما استيقظ تي كيك من نومه المتقطع. وعندما

رآها سألها.

«إلى أين تذهبين يا جاني؟»

«لأرى الطبيب يا تي كيك. أنت مريض جدًا ولا يمكنك البقاء في هذا المنزل دون طبيب. ربما علينا أخذك إلى المشفى».

«لن أذهب لأي مشفى في أي مكان. أعتقد أنك تعبتِ من رعايتي وتمريضي. لكنني لم أكن أعاملك بهذه الطريقة، كنت دائمًا أحاول فعل المستحيل لأجلك».

«تي كيك، أنت مريض. ولقد أخذت كلامي بطريقة مختلفة عن مقصدي. أنا لن أتعب من رعايتك يومًا. أنا خائفة فقط من أنك مريض أكثر مما يجب. كل ما أريده هو أنت تتحسن يا حبيبي، هذا كل ما في الأمر».

رمقها بنظرة مليئة بشراسة كبيرة وأطلق قرقرة من حنجرته. رأته يجلس على السرير ويميل ليرى كل خطوة تقوم بها. وقد كانت تحس بالخوف من تلك الأشياء الغريبة التي غزت جسد تي كيك. لذلك عندما ذهب إلى المرحاض الخارجي هرعت لترى ما إذا كان المسدس ملقمًا أم لا. وقد كان ملقمًا بالفعل. بدأت تخرج الرصاصات ولكنها خافت أن يتفقده ويعلم أنها عرفت الأمر. وربما يجعل ذلك الأمر عقله المضطرب يجمح أكثر. لو أُحضر ذلك العلاج فقط! لفت الأسطوانة لكي تضمن أنه حتى لو أشهر المسدس في وجهها فهو سيفرقع ثلاثة مرات قبل أن يبدأ بإطلاق الرصاصات. وعندها سيكون قد تم تنبيهها. وربما بإمكانها أن تركض وتحاول انتزاعه منه قبل أن يفوت الأوان. على كل حال تي كيك لم يكن ليؤذيها. لقد كان غيورًا ويحاول إخافتها. سوف يضحكان حول الأمر عندما يتحسن. على كل حال فقد وجدت صندوق الأعيرة النارية وأفرغته. وكذلك أخذت البندقية من

وراء السرير. فتحتها ووضعت القذائف في مئزرها ووضعت البندقية خلف الفرن حيث لا يمكنه رؤيتها. سوف تتمكن من النجاة من سكينه لو وصل الأمر لذلك. بالطبع كانت متوترة جدًا، ولكن لم يكن هناك مانع من أخذ احتياطاتها. لم تكن لتدع المسكين تي كيك يقوم بشيء سيجعله يجن عندما يدرك ما فعله.

رأته قادمًا من المرحاض الخارجي وهو يمشي بطريقة غريبة، ويؤرجح رأسه من جانب إلى آخر وفكاه مضمومان بشكل مخيف. كان هذا فظيعًا جدًا! أين كان الدكتور سيمونز وذلك الدواء؟ كانت مسرورة لأنها كانت هناك لتعتني به. فالناس كانوا ليفعلوا أشياء لئيمة بحبيبها تي كيك لو لم تكن معه. كانوا سيعاملونه وكأنه كلب مسعور بينما لا أحد في العالم أكثر لطفًا منه. كل ما كان يحتاجه هو أن يأتي الطبيب ومعه ذلك الدواء. عاد إلى المنزل دون أن يتكلم، في الواقع، لا يبدو أنه لاحظ أنها كانت هناك وسقط بقوة على السرير ونام. كانت جاني واقفة على الموقد عندما تحدث إليها بصوت بارد عليل.

«لم لا تنامين في نفس الفراش معي يا جاني؟»

«لقد أخبرك الطبيب أن تنام بمفردك يا تي كيك. ألا تتذكر عندما أخبرك بذلك في الأمس؟»

«كيف تفضلين النوم على فراش من القش بدلًا من أن تنامي معي في الفراش؟» رأت جاني حينها أنه كان يحمل المسدس في يده. «ردي عليّ عندما أتحدث إليكِ».

«تي كيك، تي كيك، حبيبي! استلقِ قليلًا! سوف أكون سعيدة بالعودة إلى ذلك الفراش إلى جانبك حالما يخبرني الطبيب بذلك. استلقِ قليلًا. سوف

يكون الطبيب هنا ومعه بعض الدواء بعد وقت قليل».

«جاني، لقد ضحيت بكل شيء كي أكون معك ويؤلمني أن تعامليني بهذا الشكل وأنا مريض». رفع المسدس بسرعة وبعدم ثبات نحو صدر جاني. ولاحظت أنه حتى في هذيانه فإن تصويبه ما زال جيدًا. ربما يوجهه نحوها ليخيفها. انطلق المسدس مرة. بصورة غريزية حركت جاني ذراعها خلفها وأخذت البندقية. على الأغلب أن هذا سيجعله يتراجع. فقط لو أتى الطبيب! لو أتى أي شخص! فتحت البندقية وأدخلت فيها القذائف عندما أخبرتها الطلقة الثانية أن عقل تي كيك المتعب يخبره بأن يقتلها.

«ضع هذا المسدس جانبًا يا تي كيك وعد إلى الفراش!» صرخت به جاني بينما يتمايل المسدس بضعف في يده.

ثبت نفسه على عضادة الباب وفكرت جاني في الركض نحوه وإمساك يده، لكنها شهدت الحركة السريعة للتصويب نحو الهدف وسمعت نقرة. رأت النظرة الشرسة في عينيه وجنت من الخوف كما حدث عندما كانت في الماء معلقة بذيل تلك البقرة. لقمت البندقية بأمل محموم وخوف. متمنية أنه سوف يراها ويهرب، كانت خائفة على حياتها بيأس. ولكن لو كان تي كيك قد فكر في الأخطار لما وقف هناك مع مسدس في يديه. لا خوف ولا بنادق ولا أي شيء آخر هناك. لم يلتفت إلى البندقية المشهرة نحوه. رأته يثبت نفسه بينما يقوم بتوجيه سلاحه. لابد أن يموت الشيطان داخله، وقد كانت جاني هي الشيء الوحيد الذي رآه حيًا.

انطلق المسدس والبندقية في نفس الوقت تقريبًا. ولكن صدى المسدس انتقل بعد فترة من البندقية. تأرجح تي كيك بينما دفنت رصاصته نفسه في العارضة فوق رأس جاني. رأت جاني النظرة في عينيه وركضت نحوه بينما انهار بين ذراعيها. كانت تحاول أن تحتضنه بينما أغلق هو أسنانه على لحم

ذراعها. سقطا بقوة. قاومت جاني لتجلس وتبعد أسنان تي كيك الميت عن ذراعها.

كانت هذه أكثر اللحظات وضاعة في الأبدية. قبل دقيقة كانت مجرد إنسان خائف يقاتل من أجل حياته. الآن صارت روحًا مذبوحة تحمل رأس تي كيك في حضنها. لقد أرادته أن يعيش بشدة ولكنه كان ميتًا. الساعة ليست أبدية أبدًا، لكنها تملك حق البكاء. حملت جاني رأسه بإحكام إلى صدرها وبكت وشكرته بدون كلام لإعطائها فرصة لخدمة المحبة. كان عليها أن تعانقه بحنان لأنه كان سيمضي قريبًا، وكان عليها أن تخبره بمشاعرها للمرة الأخيرة. ثم حل الظلام الخارجي.

لذا فيوم حزن جاني الكبير كان في السجن. وعندما أخبر الدكتور الشريف والقاضي عن حقيقة الأمر، قرروا جميعًا أن المحاكمة يجب أن تتم في نفس اليوم. لا داعي لمعاقبتها بالانتظار في السجن. ثلاث ساعات فقط في السجن ومن ثم بدأت محاكمتها. الوقت كان قصيرًا، لكن المختصين كانوا هناك. الكثير من البيض أتوا ليشهدوا هذه المحاكمة الغريبة. وكل الزنوج من مختلف الأماكن أتوا أيضًا. من الذي لم يسمع من قبل بقصة الحب التي بين تي كيك وجاني؟

عقدت المحكمة ورأت جاني القاضي وهو يرتدي معطفه العظيم ليسمع عنها وعن تي كيك. واثنا عشر رجلًا أبيض قد أوقفوا ما كانوا يقومون به ليحكموا على ما حدث بين جاني وتي كيك وودز، وكي يروا ما إذا كانت الأمور قد سارت بشكل جيد أم لا. كان هذا مضحكًا أيضًا، فاثنا عشر رجلًا أبيض لم يكونوا يعرفون شيئًا عن أناس مثلها هي وتي كيك كانوا سيقررون بشأنها. ثماني أو عشر نساء بيضاوات أتين ليرينها أيضًا. كنّ يرتدين ملابس جميلة وخدودهن محمرة في إشارة إلى حسن تغذيتهن. لم يكن هناك أولئك

البيض الفقراء. ولكن ما حاجة هؤلاء لترك غناهم والمجيء لرؤية جاني وهي ترتدي مئزرها؟ لكنهم لم يبدوا غاضبين جدًا، فكرت جاني. كان سيكون من الجيد لو جعلوها تحكي لهم كيف كان الأمر. أوه، لقد تمنت أن يكون الحانوتي قد حضر تي كيك بشكل لائق. يجب أن يدعوها تذهب لترى ذلك بنفسها. كان السيد بريسكوت الذي تعرفه جيدًا حاضرًا وكان سوف يخبرهم أن يقتلوها لإطلاقها النار على تي كيك. وكان هناك الرجل الغريب الذي أتى من بالم بيتش والذي كان سيقول لهم ألا يقتلوها، ولكن لا أحد منهم كان يعلم حقًا.

ثم رأت كل الملونين يقفون في مؤخرة القاعة. محتشدون كما كيس من الكرفس، فقط بشرتهم داكنة أكثر من الكرفس. كانوا جميعهم ضدها، كان بإمكانها أن ترى ذلك. كان هناك الكثيرون ضدها بحيث أن صفعة واحدة من كل واحد منهم كان يمكن أن ترسلها إلى حتفها. أحست أنهم يرشقونها بالأفكار القذرة. كانوا هناك بألسن جاهزة وملقمة، السلاح الحقيقي الوحيد ترك لأناس ضعفاء. أداة القتل الوحيدة التي كان مسموح لهم باستخدامها كانت وجود البيض.

كان كل شيء جاهزًا بعد فترة من الوقت، وكانوا يريدون أن يتكلم الناس حتى يتمكنوا من معرفة الحقيقة حول جاني وودز. وكلما أصبح الجزء الأبيض من الغرفة أكثر هدوءًا أصبحت الأمور جدية أكثر، ولكن عاصفة من الكلام ضربت الزنوج مثل الرياح بين أشجار النخيل. تحدثوا فجأة وفي وقت واحد مثل جوقة وتحركت الأجزاء العلوية من أجسادهم على إيقاعها. أرسلوا كلمة مع المأمور إلى السيد بريسكوت أرادوا أن يشهدوا في القضية. تي كيك كان ولدًا طيبًا. وقد كان جيدًا مع تلك المرأة. لم تعامل امرأة زنجية بشكل أفضل من قبل. لا يا سيدي! لقد عمل مثل الكلب لأجلها، وأوشك

على الموت في ذلك الإعصار محاولًا إنقاذ حياتها، ثم بمجرد أن أصابته حمى خفيفة بسبب الماء، حاولت أن تهرب مع رجل آخر كانت قد راسلته ليأتيها من مكان بعيد. المشانق كانت معلقة بشكل جيد جدًا. كل ما أرادوه هو فرصة للإدلاء بشهادتهم. ذهب المأمور وصعد هو والشريف نحو القاضي، وقائد الشرطة، والمحامين واجتمعوا كلهم للتباحث لبضع دقائق، ثم افترقوا من جديد ومن ثم اعتلى الشريف المنصة وحكى كيف أتت جاني والطبيب إلى منزله وكيف وجد الأشياء عندما قاد سيارته نحو منزلها.

ثم أحضروا الدكتور سيمونز ليدلي بشهادته، فأخبرهم عن مرض تي كيك وكيف كان يشكل خطرًا على حياة جاني وكل المدينة، وكيف أنه كان يخاف عليها وكان يفكر في أن يسجن تي كيك، ولكن وبرؤيته للطريقة التي كانت جاني ترعى بها تي كيك فقد أهمل الأمر. وكيف أنه وجد جاني معضوضة في ذراعها وتحمل رأس تي كيك بين ذراعيها عندما وصل إلى هناك. والمسدس بجانب يده على الأرض. ثم نزل عن المنصة.

«أي أدلة إضافية يا سيد بريسكوت؟» سأل القاضي.

«لا يا حضرة القاضي. الادعاء يستريح». رقص أشجار النخيل بدأ مجددًا بين الزنوج في الخلف. بدأوا يتحدثون. فالولاية لم تكن لترتاح حتى تسمع الأمر.

«سيد بريسكوت لدي شيء لأقوله»، تكلم سوب دي بوتووم بشكل مجهول خلال القطيع المجهول في الخلف.

نظر كل من في القاعة خلفهم ليروا من أين أتى الصوت. «لو أنك تعرف مصلحتك فمن الأفضل أن تغلق فمك حتى يطلب منك شخصٌ الكلام»، قال له السيد بريسكوت ببرود.

«حسنًا يا سيد بريسكوت».

«نحن لا زلنا نبحث في هذه القضية. كلمة أخرى منك أو من أي زنجي في هذه القاعة وسوف أجركم إلى المحكمة الكبرى».

«نعم». صفقت المرأة البيضاء قليلًا ونظر السيد بريسكوت بغضب نحو مؤخر القاعة ونزل. ومن ثم الرجل الأبيض الغريب الذي يتحدث بدلًا عنها صعد إلى هناك. همس في أذن الحاجب ومن ثم نادى على جاني لتقف وتتكلم. بعد أسئلة قليلة طلب منها أن تحكي ما حدث وأن تقول الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء غير الحقيقة. وليساعدها الرب.

جميعهم مالوا إلى الأمام لكي يستمعوا بينما هي تتحدث. في البدء كان عليها أن تتذكر أنها ليست في المنزل، وأنها في المحكمة تحارب شيئًا لم يكن الموت. بل كان أسوأ منه. كانت الأفكار الكاذبة. كان عليها أن تعود بذاكرتها لتخبرهم من هو تي كيك وكيف كانا يتعاملان مع بعضهما لكي يعرفوا أنها لم تكن لتطلق النار أبدًا على تي كيك بسبب الحقد.

حاولت جعلهم يرون كم كانت الأمور رهيبة وكيف أن تي كيك لم يكن ليعود لطبيعته ما لم يتخلص من ذلك الكلب السعران داخله وكيف أنه لم يكن ليستطيع التخلص من الكلب ومواصلة العيش في الوقت ذاته. كان عليه أن يموت ليتخلص من الكلب. يواجه الرجل لعبة خطرة وعليه أن يموت وهو يواجهها. جعلتهم يرون كيف أنها لم تحاول أبدًا التخلص منه. لم تتوسل لأي أحد. جلست هناك وحكت قصتها وعندما انتهت صمتت. وظلت هناك حتى أخبرها المحامي أن بإمكانها النزول.

«الدفاع يستريح»، قال المحامي. ثم أخذا يتهامسان هو وبريسكوت لبعضهما البعض ومن ثم ذهبا إلى حيث يجلس القاضي في الأعلى وتهامسوا.

وبعدها عادا كلاهما وجلسا.

«أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين أن الأمر في يدكم لتقرروا ما إذا ارتكبت المدعى عليها جريمتها بدم بارد أو إذا ما كانت مخلوقًا منكسرًا ومسكينًا، زوجة مضحية أحاطت بها ظروف سيئة جعلتها تطلق النار من البندقية على صدر زوجها الراحل لتريحه من عذابه. لو وجدتموها مذنبة فلابد أن تصدروا حكمًا من الدرجة الأولى. ولو لم تثبت الأدلة ذلك فعليكم إطلاق سراحها. ليس هناك شيء وسط بينهما».

خرجت هيئة المحلفين للبحث في الأمر وامتلأت القاعة بالأحاديث. بعض الأشخاص قاموا من أماكنهم وبدأوا يتجولون. وجلست جاني هناك كحجر وانتظرت. لم يكن الموت هو ما كانت تخشاه. بل سوء الفهم. لو أنهم أصدروا حكمًا بأنها لم تكن تريد تي كيك وأنها أرادت قتله، فذلك سيكون خطيئة حقيقية وأمرًا شائنًا. كان أسوأ من القتل حتى. ثم عادت هيئة المحلفين مرة أخرى. بعد مضي خمس دقائق بحسب ما أشارت ساعة المحكمة.

«نجد موت فرغيبيل وودز غير مقصود تمامًا ومبرر، وأن لا لوم يجب أن يلقى على المدعى عليها جاني وودز».

لذا فقد أطلق سراحها وابتسم لها كل من كانوا هناك وصافحوها. وبكت النسوة البيض ووقفن حولها مثل حائط حماية والزنوج هزوا رؤوسهم وذهبوا بعيدًا. كانت الشمس توشك على الغروب في اليوم الذي شهدت فيه جاني الشمس تشرق على حبها المعذب ومن ثم كان عليها أن تطلق النار على تي كيك وبعدها أن تسجن وأن تحارب لأجل حياتها في المحكمة ثم أن يطلق سراحها. لم يكن هناك الكثير لفعله خلال ما تبقى من ذلك اليوم سوى أن تذهب لأصدقائها البيض الذين فهموا شعورها وتشكرهم. وبعدها غربت

الشمس.

استأجرت غرفة في البنسيون لتلك الليلة وسمعت الرجال يتحدثون في الخارج.

«أوه أنتم تعرفون أن أولئك الرجال البيض لم يكونوا ليفعلوا شيئًا لامرأة مثل جاني».

«إنها لم تقتل رجلًا أبيض، أليس كذلك؟ حسنًا، طالما أنها لم تقتل رجلًا أبيض فبإمكانها أن تقتل أي عدد تريده من الزنوج».

«نعم فالنسوة الزنوج يمكنهن أن يقتلن أي عدد من الرجال يريدونه، ولكن لا يمكنك أن تقتل واحدة منهم. فالبيض سوف يشنقونك لو فعلت».

«حسنًا أنت تعرف ما يقولونه؛ فالرجل الأبيض والمرأة السوداء هما أكثر كائنين حرين على الأرض. فهم يفعلون ما يريدونه».

دفنت جاني تي كيك في بالم بيتش. كانت تعرف أنه كان ليحب أن تدفنه في إيفرغليدز ولكنها عرفت أن المكان منخفض هناك ويمكن أن تحمله المياه بعيدًا متى فاضت. على كل حال فإيفرغليدز ومياهها هي ما قتله. كانت تريده أن يكون بعيدًا عن الأعاصير، لذا فقد جعلتهم يبنون لها مدفنًا صلبًا في مقابر بالم بيتش. أرسلت جاني لأورلاندو لطلب مالٍ لدفنه. كان تي كيك ابن شمس الغروب، ولم يكن هناك شيء جيدٌ بما يكفي لأجله. قام الحانوتي بعمل جيد ورقد تي كيك في مضجعه الأبيض محاطًا بالورود التي اشترتها لأجله. بدا جاهزًا ليبتسم ابتسامته الماكرة تلك. اشترت له جاني غيتارًا جديدًا ووضعته بين يديه. سيكون قد فكر في أغانٍ جديدة يغنيها لها عندما تلتحق به هناك.

حاول سوب وأصدقاؤه أن يجرحوها ولكنها عرفت أن ذلك كان بسبب

أنهم أحبوا تي كيك وأنهم لم يفهموا ما حدث. لذا فقد أرسلت لسوب لكي يخبر الجميع بموعد الدفن. يوم الدفن أتوا جميعًا وهم يحسون بالخجل والأسف يملأ وجوههم. كانوا يريدونها أن تغفر لهم بسرعة. لذا فقد ملأوا العشر سيارات التي أرسلتها جاني لإحضار الجميع وأضافوا سيارات أخرى. ومن ثم بدأت الفرقة بالعزف، وحمل تي كيك مثل الفرعون لقبره. لم ترتدي جاني هذه المرة ثيابًا غالية. مضت في ملابس العمل. فقد انشغلت بحزنها عن ارتداء ملابس توحي بالحزن.

# 20

ولأنهم أحبوا جاني أقل بقليل مما أحبوا تي كيك، فقد أرادوا أن يشعروا بشعور جيد تجاه أنفسهم. أرادوا أن يصبح تصرفهم العدائي طي النسيان. لذا فقد ألقوا اللوم بأكمله على شقيق السيدة تيرنر وطردوه من حقول الوحل مرة أخرى. لقد حذروه من العودة مرة أخرى والتصرف وكأنه وسيم وبإمكانه أن يضع نفسه بين امرأة وزوجها. حتى لو أنهم كانوا يعرفون أن الأمر ليس خطأه، فقد ظنوا أنه وضع نفسه في ذلك المكان.

«لا، أنا لست غاضبًا من جاني»، شرح سوب. «لقد جن تي كيك، ولا يمكننا لومها على الدفاع عن نفسها. لقد كانت مجنونة بحبه. انظروا إلى الطريقة التي أقامت جنازته بها. لا شيء في قلبي ضدها. لم أكن لأفكر في الأمر بذاك الشكل لو لم يأتِ ذلك الزنجي القذر في ذلك اليوم ليقول إنه يبحث عن عمل، وقد سألني كيف هو حال السيد والسيدة وودز. وذلك يبين أنه كان يخطط لشيء ما».

«لذلك عندما ركض خلفه ستو بيف وبوتناي وآخرون أتى إليّ لأحميه منهم. لكنني قلت له لا تأتي إليّ وشعرك مسرح بهذا الشكل لأنني سأعيدك إليهم وهذا ما فعلته. ابن الزانية القذر!» كان هذا كافيًا، فقد نفّسوا عن مشاعرهم من خلال ضربه وإرساله بعيدًا. عل كل حال فغضبهم نحو جاني استمر يومين كاملين لذلك فقد كان من الصعب تذكر كل التفاصيل. لقد كان هناك الكثير من التوتر.

توسلوا لجاني لكي تبقى معهم لوقت قليل، وقد بقيت بضعة أسابيع

حتى لا يحسوا بالسوء. ولكن حقول الوحل كانت تي كيك وتي كيك لم يكن هناك. لذا فقد كان المكان بالنسبة لها بقعة كبيرة من الوحل الأسود. قامت بوهب كل شيء في منزلها ما عدا عبوات من البذور كان تي كيك قد أحضرها ليزرعوها. لم يقوموا بزراعتها أبدًا لأنه كان ينتظر الوقت المناسب لذلك عندما ألم به المرض. البذور ذكرت جاني بتي كيك أكثر من أي شيء آخر لأنه كان يحب أن يزرع الأشياء. لقد رأتها على رف المطبخ عندما عادت من الجنازة فوضعتهم في جيبها. والآن بما أنها عادت إلى المنزل فعليها أن تزرعهم في ذكراه.

وضعت جاني قدميها في حوض المياه. كان التعب قد مضى لذلك فقد جففتهما بمنشفة.

«حسنًا هكذا حدثت الأشياء يا فيبي، كما أخبرتك بالضبط. لذا فقد عدت إلى المنزل مرة أخرى وأنا سعيدة بأن أكون هنا. لقد اكتفيت من التحليق في الأفق وقد عدت الآن إلى منزلي لأعيش من خلال المفاضلات. هذا المنزل لم يعد يخلو من الأشياء كما كان قبل أن يأتي تي كيك. فهو الآن مليء بالذكريات، خاصة غرفة النوم تلك».

«أعرف أن الأخوات الثرثارات لن يسترحن أو ينمن حتى يعرفن ما كنا نتحدث عنه. ولكن بإمكانك إخبارهن يا فيبي، لا بأس بذلك. سوف يحزنّ لأن قصة حبي لم تجرِ بالطريقة التي أردنها. ومن ثم يجب أن تخبريهن أن الحب ليس مثل حجر الرحى له نفس الهيئة في كل وقت ويفعل نفس الشيء لأي شيء يلمسه. الحب مثل البحر. إنه شيء متحرك، ولكن رغم كل شيء فهو يأخذ شكله من الشواطئ التي يلاقيها، والأمر يختلف مع كل شاطئ».

«يا يسوع!» تنهدت فيبي بصعوبة، «لقد زاد طولي عشرة أقدام من الاستماع إليكِ يا جاني. أنا لست راضية عن نفسي بعد الآن. سوف أجعل

سام يأخذني للصيد معه. ومن الأفضل ألا يحاول أحد انتقادك في حضوري».

«لا فيبي. لا داعي لأن تكوني لئيمة مع الباقين، فهم جافون بسبب عدم معرفتهم بالأشياء. وهم يظنون أن عليهم أن يثرثروا ليتمكنوا من البقاء أحياء. دعيهم يعزون أنفسهم بالكلام. وبالطبع الكلام لا يساوي حبة فاصوليا عندما تكون عاجزًا عن الفعل. والاستماع لهذا النوع من الكلام يشبه فتح فمك لجعل القمر يرسل نوره إلى حنجرتك. إنها حقيقة يا فيبي، عليك أن تعبر لتعرف ما هو موجود هناك. أبوك وأمك وأي شخص آخر لن يستطيع إخبارك بما ينتظرك هناك. شيئان يجب على الجميع أن يفعلوهما لأنفسهم. عليهم أن يذهبوا إلى الرب، وعليهم أن يتعلموا العيش لأنفسهم».

كان هناك صمت طويل عقب ذلك ولبقية الوقت كان بإمكانهما سماع الرياح وهي تحرك أشجار الصنوبر. جعل ذلك فيبي تفكر في سام وهو ينتظرها ويصبح عصبيًا. وجعل جاني تفكر في الغرفة في الطابق العلوي ـــ غرفتها. عانقت فيبي جاني بقوة ومضت في طريقها المظلم.

حالما أصبح كل شيء في الطابق السفلي مغلقًا. صعدت جاني الدرج بمصباحها. كان الضوء في يدها مثل شرارة من الشمس تغسل وجهها بالنار. ظلها تراجع أسفل الدرج. الآن، في غرفتها، بدا طعم المكان جديدًا مرة أخرى. الرياح القادمة من خلال النوافذ المفتوحة كنست كل المشاعر النتنة للغياب والعدم. أقفلت الغرفة وجلست. مشطت غبار الطرق من شعرها. وفكرت.

يوم المسدس. الجسد المدمّى، المحكمة التي بدأ كل ركن فيها يغني وينتحب ويتنهد؛ كل كرسي وكل شيء. بدأت في الغناء، بدأت في التنهد والتحسر، الغناء والتنهد. ثم جاء تي كيك ليتقافز حيث كانت تجلس وخرجت أغنية التنهد من النافذة وحطت على شجرة الصنوبر. جاء تي كيك وهو يرتدي

الشمس ككوفية. بالطبع لم يكن ميتًا. لا يمكنه أن يموت حتى تتوقف هي عن الشعور والتفكير. قُبلة ذكراه صنعت صورًا من الحب والضوء قبالة الحائط. هنا كان السلام. سحبت أفقها مثل شبكة أسماك كبيرة. سحبته من خصر العالم ووضعته فوق أكتافها. كثير من الحياة في خيوطه! ونادت روحها لكي تأتي وتشاهد.

# خاتمة

# زورا نيل هيرستون: «طريقة حكي زنجية»

## I

القس هاري ميدلتون هايت، هو كاهن أسقفية جمع خمسة مجلدات كلاسيكية، الشؤم، الشعوذة والسحر، والكجور، وهو مجهود بحوث استغرقت أربعين عامًا، سألني ذات مرة خلال مقابلة في عام ١٩٧٧ عن باحثة أخرى غريبة الأطوار كان معجبًا بها. «التقيت بها في هذا المجال في الثلاثينيات أعتقد»، أخذ يتذكر لبضع ثوان، «اسمها الأول كان زورا». كان سؤالًا بريئًا، قدم بشكل معقول لعرض الخلط وغالبًا الشائعات المتناقضة التي تجعل أسطورة زورا نيل هيرستون الخاصة غريبة وغنية وكثيفة كما الأساطير السوداء التي قدمتها كثيرًا لتحافظ عليها في أعمالها الأنثروبولوجية الكلاسيكية، ومنها البغال والرجال، قل لحصاني، وفي رواياتها.

بعد تخرجها من بارنارد، حيث درسها فرانز بواس، نشرت زورا نيل هيرستون سبعة كتب - أربع روايات، كتابين من التراث الشعبي، وسيرة ذاتية - وأكثر من خمسين عملاً قصيرًا بين منتصف نهضة هارلم ونهاية الحرب الكورية، عندها كانت الكاتبة السوداء المهيمنة في الولايات المتحدة. الغموض المظلم الذي انتقلت إليه مسيرتها يعكس مواقفها السياسية المستقلة بقوة بدلاً عن عكس أي نقص في الحرفة أو الرؤية. لقد تم تجاهلها تقريبًا مع بداية الخمسينيات، حتى من قبل حركة الفنون السوداء في الستينيات، وقد كانت فترة صاخبة ومكثفة من الصور السوداء وصنع الأساطير وهو

الأمر الذي أنقذ الكثير من الكُتاب السود من أن يصبحوا طي النسيان، جسدت هيرستون تناغمًا متقلبًا وكذلك وحدة إشكالية بين الأضداد. وهذا التعقيد هو الذي رفض تقديم نفسه للفئات السطحية كـ «الراديكاليين» أو «المحافظين»، «السود» أو «الزنوج»، «الثوريين» أو «العم توم» - فئات ليس لها فائدة تذكر في النقد الأدبي. وهذا التعقيد نفسه هو ما تجسد في رواياتها؛ لكن نشر أليس ووكر لمقالها الهام («البحث عن زورا نيل هيرستون») في مجلة مِس في عام ١٩٧٥، هو ما ضمن لهيرستون مكانة في التاريخ الأدبي الأسود، مكانة غامضة في أحسن الأحوال.

إعادة اكتشاف الكُتاب الأفرو-أمريكيين اعتمد عادةً على معايير سياسية أكبر، حيث عمل الكاتب من المفترض أن يكون مجرد انعكاس. الجانب المرضي للغاية من إعادة اكتشاف زورا نيل هيرستون هو أن النساء السود طوروه في المقام الأول لإنشاء أصل أدبي أمومي. مقال أليس ووكر الثري يروي محاولاتها لإيجاد قبر هيرستون في المرقد السماوي، وهي مقبرة منفصلة في فورت بيرس، فلوريدا. لقد أصبحت هيرستون كناية عن بحث المرأة، الكاتبة، السوداء عن التراث. حرفة أليس ووكر، غايل جونز، غلوريا نايلور، وتوني كيد بامبارا ظهرت، بطرق مختلفة بشكل ملحوظ، وخلقت صلات قوية بينهن وبين هيرستون. انتباههن إلى هيرستون يدل على تطور الرواية في الأدب الأسود: فهن لم يكن يقرأن هيرستون فقط من أجل القرابة الروحية الكامنة في هذه العلاقات ولكن لأنها تستخدم الكلام والطقوس العامية السوداء، بطرق خفية ومختلفة، لتخطيط وعي النساء السود، والذي كان غائبًا بشكل كبير في الخيال الأسود. استخدام اللغة أصبح الإطار الأساسي لجميع رواياتها وقد كان فعالًا بشكل خاص في عملها الكلاسيكي «عيونهم كانت تراقب الرب»، الذي نشر في عام ١٩٣٧، والذي يرتبط بشكل وثيق

بهنري جيمس وروايته صورة سيدة ورواية الخيزران لجان تومر عن ارتباطه بالأدب البروليتاري للانغستون هيوز وريتشارد رايت، والذين كانا شعبيين جدًا في فترة الكساد.

وبرسم وفاء جاني كروفورد بوصفه خيالًا مستقلًا، فرواية «عيونهم كانت تراقب الرب» هي رواية شاعرية تربط حاجة زوجيها الأولين لتملك مساحة فعلية أكبر تدريجيًا (وتجهيزاتها المبهرجة للترقي) مع قمع الوعي الذاتي لزوجتهم. فقط مع زوجها الثالث وحبيبها الأخير، حمال يدعى تي كيك، والذي كان ينظم حفلات سمر غير هيكلية حول مستنقعات فلوريدا، أزهرت جاني أخيرًا، وكذلك شجرة الكمثرى الكبيرة التي تقف بجانب الكوخ الخشبي الصغير لجدتها.

تطلعت إلى غبار طل النحل وهو يتسلل إلى عرين البرعم؛ ألف كأس زهرة يتقوس لتلبية أحضان الحب ورجفة نشوة الشجرة من الجذر إلى أصغر فرع وهي تتقشد مع كل ازدهار وتزبد بفرحة. إذن كان هذا هو الزواج!

لرسم مخطط بياني لرحلة جاني من الهدف إلى الموضوع، سارد الرواية يتحول من السارد الثالث إلى مزيج من الشخص الأول والثالث (وذلك معروف باسم «الخطاب غير المباشر الحر»)، وهو ما يدل على هذا الوعي الذاتي داخل جاني. «عيونهم كانت تراقب الرب» هي رواية نسوية جريئة، وهي الأولى التي تسرد بهذه الصراحة في التراث الأفرو-أميركي. وبعد فهي رواية قلقة إزاء مشروع إيجاد الصوت، وإزاء اللغة بوصفها أداة للأذى والخلاص، وإزاء الذاتية والتمكين، وهي تقترح العديد من الموضوعات التي أحيت عمل هيرستون ككل.

II

أحد المقاطع المؤثرة في الأدب الأمريكي كان حديث زورا نيل هيرستون في لقائها الأخير مع والدتها المحتضرة، والذي وجد في الفصل المعنون «الشرود» في سيرتها الذاتية، «مسارات الغبار على الطريق» (١٩٤٢)

بينما أسرع إلى الداخل، كانوا يرفعون السرير ويلفونه كي تواجه عيون أمي الشرق. أعتقد أنها كانت تنظر إليّ وهم يقلبون رأس السرير. فمها كان مفتوحًا قليلًا، ولكن التنفس تطلب منها مجهودًا كبيرًا ولم تستطع التكلم. لكنها نظرت إليّ، أو هكذا كنت أحس، بالتحدث بلسانها. كانت تعتمد عليّ لأكون صوتها.

يمكننا أن نبدأ في فهم الأبعاد البلاغية التي كانت تفصل هيرستون عن معاصريها إذا ما قارنّا هذا المقطع بشيء مماثل نشر بعد ثلاث سنوات فقط وهو «فتى أسود» لريتشارد رايت، منافس هيرستون ومعاصرها الأسود: «ذات مرة، في الليل، نادتني أمي من فراشها وقالت لي إنها لا تستطيع تحمل الألم، وإنها تريد أن تموت. أمسكت يدها وتوسلت إليها أن تكون هادئة. في تلك الليلة كففت عن الاستجابة لوالدتي؛ مشاعري تجمدت». إذا قدمت هيرستون لحظاتها الأخيرة مع والدتها بسمات البحث عن صوت، إذن فكتابة رايت عن تجربة مماثلة مؤكد «كآبة الروح التي لم أكن أبدًا لأخسرها»، والتي «نمت إلى رمز في عقلي، حشدت مع ذاتها ... الفقر، الجهل، وقلة الحيلة .... » عدد قليل من الكتاب في التراث الأسود لديهم قواسم مشتركة أكثر من زورا نيل هيرستون وريتشارد رايت. وحين أن رايت كان سائدًا خلال الأربعينيات كمؤلفنا المسيطر، وصلت شهرة هيرستون إلى أوجها في عام ١٩٤٣م مع مراجعة في الصفحة الأولى ساترداي ريفيو تكرم نجاح «مسارات الغبار». بعد سبع سنوات، كانت تعمل خادمة في ريفو ألتو بولاية

فلوريدا؛ وبعد عشر سنوات ماتت في منزل رعاية المقاطعة، في فورت بيرس، فلوريدا.

كيف يمكن لحائزة على جائزتي غاغنهايم ومؤلفة أربع روايات، وعشرات القصص القصيرة، ومسرحيتين غنائيتين، وكتابين عن الأساطير السوداء، وعشرات المقالات، وسيرة ذاتية حائزة على جوائز أن «تختفي» عن قرائها على مدى ثلاثة عقود كاملة؟ لا توجد إجابات سهلة لهذا المأزق، على الرغم من المحاولات المنسقة من قبل الأكاديميين لحلها. فمن الواضح، على كل حال، أن الردود المحبة والمتنوعة، والحماسية التي ولدتها أعمال هيرستون اليوم لم تتم مشاركتها من قبل العديد من معاصريها الذكور السود.

أسباب ذلك معقدة وتنجم إلى حد كبير عما يمكن أن نفكر في كـ «أيديولوجيات عرقية».

جزء من تراث هيرستون الذي تلقيناه - وربما الفكرة التي تلقيناها والتي تربط رواية الأخلاق بنهضة هارلم، والواقعية الاجتماعية في الثلاثينيات، والقومية الثقافية لحركة الفنون السوداء - كانت أن العنصرية قد حولت السود لمجرد أصفار، إلى كائنات تتفاعل فقط مع القمع العنصري الشامل، والذين كانت ثقافتهم «المحرمة» مختلفة. ألبرت موراي، الكاتب والناقد الاجتماعي، يطلق على هذا «وحش الخيال العلمي الاجتماعي». وقد تم افتراس الاشتراكيين والانفصاليين، والمنادين بالحقوق المدنية جميعًا بواسطة هذا الوحش.

اعتقدت هيرستون أن هذه الفكرة مهينة، وأنها فخ، واحتجت عليها. كانت هذه الفكرة تؤيد حسب قولها، «المدرسة المتباكية على الزنجانية التي يعتقد مريدوها أن الطبيعة بطريقة أو بأخرى قد أعطتهم صفقة قذرة». على عكس هيوز ورايت، اختارت هيرستون عمدًا تجاهل هذه «الصورة الخاطئة

التي شوهت .... الحرية»، وكتبت في روايتها موسى، رجل الجبل، «كان شيئًا داخليًا .... الرجل نفسه يجب أن يصنع تحرره». وأعلنت روايتها الأولى كمانيفستو ضد «غطرسة» البيض الذين يفترضون أن «الحيوات السوداء ليست سوى ردود فعل دفاعية للإجراءات البيضاء». إستراتيجيتها لم يقصد منها أن تكون مرضية.

ما يمكن أن نفكر فيه كواقعية هيرستون الأسطورية الخصبة الكثيفة داخل اللغة الغنائية السوداء، يبدو رجعيًا من الناحية السياسية لأنصار الواقعية الاجتماعية أو النقدية. فلو كان رايت، وإليسون، وبراون، وهيرستون منخرطين في معركة وسائط خيالية مثالية لتمثيل الزنجي، فسيبدو بوضوح أن هيرستون خسرت المعركة. ولكنها لم تخسر الحرب.

بعد أن تم إسكات هيرستون وخيارها لنمط الرواية السوداء منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، ما شهدناه منذها كان بشكل واضح نموذجًا رائعًا لعودة المكظوم. لأن زورا نيل هيرستون تم «إعادة اكتشافها» بطريقة لم يسبق لها مثيل قط في التراث الأسود: العديد من النسوة السود الكاتبات، من بينهم بعض أكثر الكاتبات إنجازًا في أمريكا اليوم، اتجهن علنًا لأعمالها كمصادر لإستراتيجيات السرد، ليكررنها، يقلدنها، وينقحنها، كفعل ترابط نصي. وردًا على نقد رايت، أعلنت هيرستون أنها أرادت كتابة رواية سوداء، و«ليس أطروحة في علم الاجتماع.» وهذا هو الدافع الذي يتردد صداه في كلمات «أغنية سليمان» و «محبوبة» لتوني موريسون، وفي تصور ووكر لهيرستون كرمز أولي لـ «التعافي العرقي ـــ الشعور بالسود ككائنات كاملة، معقدة، غير منقوصة، وهو الشعور الذي يفتقر إليه في الكثير من الكتابة السوداء والأدب». وفي التراث الذي نفى فيه الكُتاب الذكور بحماسة الأبوة الأدبية السوداء، كان هذا تطورًا كبيرًا، يبشر بصقل فكرتنا عن التراث: زورا

وبناتها هن تراث - داخل - التراث، صوت المرأة السوداء.

عودة القراءات الشعبية والأكاديمية لأعمال هيرستون تدل على تقديسها المتعدد الجوانب داخل التراث الأسود، الأمريكي، النسوي. أما داخل المؤسسة النقدية، وجد الأكاديميون من مختلف المشارب نصوص هيرستون صالحة لجميع المواسم. أناسٌ كثر قرأوا أعمال هيرستون بعد ١٩٧٥م مما كان بين ذلك التاريخ، ونشر أول رواية لها، في عام ١٩٣٤م.



عند إعادة قراءة هيرستون، يدهشني دائمًا كثافة الخبرات الحميمة التي تغلفها بغنى في المجازات المفصلة. إنه هذا الحرص على الطاقة التصويرية للغة السوداء، حيث شخصية في البغال والرجال تقول «هناك معنى خفي، تمامًا مثل الكتاب المقدس ... المعنى الداخلي للكلمات،» هذا يوحد الدراسات الأنثروبولوجية لهيرستون مع رواياتها. كانت هيرستون روائية أكثر من كونها عالمة اجتماع، حتى أن تراكماتها الأكاديمية ارتكزت على نوعية الخيال الذي يجعل هذه الحياة كاملة ورائعة. لكن من خلال الرواية استخدمت هيرستون الاصطلاحات السوداء واكتشفت أقصى تأثير لها. في كرمة قرع جوناه، أول رواية لها، على سبيل المثال، الواعظ الضال، جون، كما وصفه روبرت هيمنوي «هو الشاعر الذي نُعِمَ عالمه باللغة ولكنه لا يجد الكلمات لتأمين نعمته الشخصية». هذا الاهتمام باللغة والشعراء «الطبيعيين» الذي «يجلب روعة وحشية من الكلمة والأغنية لمخيم المستهزئين» لا يربط فقط تخصصيها ولكن أيضًا يجعل «اللحظة اللغوية الموقوفة» شيء منظور بالتأكيد.

دائمًا، كتابة هيرستون تعتمد على قوتها النصية وليس السياق، وكذلك كانت موعظة جون المناخية، سباق قوة للصورة السوداء والاستعارة. الصورة والاستعارة تحدد عالم جون. فشله في تفسير نفسه يؤدي في نهاية المطاف إلى تدميره الذاتي. كما لخص روبرت هيمنوي، كاتب سيرة هيرستون، «مثل هذه المقاطع تضيف في نهاية المطاف إلى نظرية اللغة والسلوك».

باستخدام «المنظار الأنثروبولوجي»، فعملها يحتفل بدلًا عن أن يعظ؛ ويُظَهر بدلًا عن أن يقول، وهكذا «يصبح كل من السلوك والفن أمرًا بديهيًا لأن النصوص الحكائية وطقوس الشؤم ملتحمة أثناء القراءة». وكمؤلفة فقد عملت كـ «قابلة، اشتركت في ولادة جسد الفولكلور،... الاتصال المتعجب الأول مع قانون الطبيعية». الأساطير التي تصفها بدقة هي في الواقع «وسائل بديلة لإدراك الواقع»، وليست أبدًا تصورات متعالية حول الأصيل. ترى هيرستون، على سبيل المثال، أن الطقوس السوداء القديمة للكياسة المهينة، كما، من بين أمور أخرى، كدفاع لفظي عن حرمة الأسرة، يتم استحضارها من خلال تلاعبات بارعة في الكلمات. لكن على الرغم من هجوم رايت عليها وتجاهلها من قبل ورثته الأدبيين، أفكار هيرستون حول اللغة والحرفة هي الأساس في دراسة العديد من المساهمات الأكثر نجاحًا في الأدب الأفرو-أميركي الذي أعقب ذلك.

## VI

يمكننا أن نفهم إرث هيرستون المعقد والمتناقض بشكل كامل إذا تأملنا «مسارات الغبار على الطريق»، السيرة الذاتية المثيرة للجدل عن حياتها. لقد

اختلقت هيرستون أجزاء كبيرة من حياتها، مثل المتخفي الذي يموه نفسه، مثل شخصية في قصصها. بهذه الطريقة، كتبت هيرستون نفسها، وسعت في أعمالها لإعادة كتابة «الأنا» لـ «العرق»، والتي في مظاهرها الخاصة والعامة العديدة، إلى حد كبير كانت لأسباب أيديولوجية. ما اختارت أن تكشفه هو حياة خيالها، كما أنها سعت لأن تقولب وتفسر بيئتها. ما سكتت عنه أو حذفته، بالمثل، هو كل ما سيعتمد عليه قراؤها لتحديد أو تصنيف حياتها باعتبارها مجازًا مرسلًا لـ «مشكلة العرق»، جزء استثنائي يدافع عن الكلية المرفوضة.

إنجاز هيرستون في «مسارات» الغبار ذو شقين. أولًا، فقد أعطتنا حياة الكاتب، عوضًا عن تقديم تقرير فقط حولها، كما تقول، في «مشكلة الزنوج». كثير من الأحداث في هذا النص برزت من خلال الوعي المتزايد لهيرستون وتمكنها من الكُتب واللغة، ومن خلال تمكنها تحدثًا وكتابة من الشعائر الخطابية واللغوية. كانت هذه مصادر هيرستون العظيمة للإلهام ليس فقط في رواياتها ولكن أيضًا في سيرتها الذاتية.

تمثيل مصادرها في اللغة يبدو أنه اهتمامها الرئيسي، حيث تتحول باستمرار جيئة وذهابًا بين صوت الراوي «الأدبي» والصوت الأسود الاصطلاحي للغاية الذي تجده في المقاطع الرائعة للخطاب غير المباشر الحر. تتحرك هيرستون داخل هذه الأصوات المتميزة وخارجها دون جهد، بسهولة، تمامًا كما فعلت في «عيونهم كانت تراقب الرب» لترسم وصول جاني إلى الوعي. إنه هذا الاستخدام للصوت المقسم، الصوت المزدوج الذي لم تتم تسويته، هو ما يبدو لي إنجازها العظيم، التماثلية اللفظية لخبراتها المزدوجة كامرأة في عالم يسيطر عليه الذكور وكشخص أسود في عالم غير أسود، هو مراجعة لمجاز وليام إدوارد بورغاردت دو بويز عن «الوعي المضاعف» للمواصلة من

أصل إفريقي.

هناك شيء حول الفقر تنبعث منه رائحة الموت. الأحلام الميتة تسقط من القلب مثل الأوراق في موسم الجفاف وتتعفن حول الأقدام؛ النبضات تُخنق لوقت طويل في الهواء النتن من الكهوف تحت الأرض. الروح تعيش في هواء مريض. يمكن للناس أن يتحولوا إلى سفن عبيد ترتدي الأحذية.

من جهة أخرى فقد حللت «التعابير الاصطلاحية» السوداء التي تستخدمها الثقافة «والتي تثار حول التشبيه والذم. فهم يعرفون كيفية إطلاق الشتائم»، لخصت، ومن ثم سردت بعضها، مثل «فم التمساح، ذو الأحشاء العفنة، ذو الكاحل المربع، ذو قدمي المجرفة، عيون تبدو وكأنها بيوض جني، وفم يبدو كطبق مقعر مليء بالأواني الفخارية المكسرة!»

فورًا بعد المقطع حول موت والدتها، كتبت:

السيد الصانع خلال عمله صنع الموت. جعل له أقدامًا كبيرة، أقدامًا ناعمة وأصابع مربعة. وجعل له وجهًا يعكس وجه كل الأشياء، دون تغييرات فيه هو نفسه، أو أن ينعكس في أي مكان. صنع جسد الموت من الجوع اللانهائي. صنع سلاحًا من يده لتلبية احتياجاته. وكان هذا صباح يوم بداية الأشياء.

اللغة، في هذه المقاطع، ليست مجرد «زينة»، كما تصف هيرستون الممارسة اللغوية السوداء؛ بدلًا عن ذلك، فالأسلوب والمعنى هنا في تناغم تام: فهي تقول الشيء بالطريقة الأكثر وضوحًا. ولا تحاول أن تكون «الطيفة»، أو تتنازل لإرضاء القراء البيض. إنها «تسمي» المشاعر، كما تقول، في لغة شخصية عميقة ومحددة ثقافيًا على حد سواء.

السبب الثاني كان نجاح «مسارات الغبار» كطرح أدبي من البداية: توتر

هيرستون غير المحلول بين صوتيها المزدوجين يدل على فهمها الكامل للحداثة. تستخدم هيرستون الصوتين في النص للاحتفال بالتشرذم النفسي بين الحداثة والسود الأمريكيين على حد سواء. وكما كتبت باربرا جونسون، فما تقدمه هيرستون هو خطاب انقسام، وليس تخييلًا للوحدة النفسية أو الثقافية. زورا نيل هيرستون، زورا نيل هيرستون «الحقيقية» التي نتوق لتحديد موقعها في هذا النص، تكمن في الصمت الذي يفصل بين هذين الصوتين: هي الصوتان، وما دونهما؛ ثنائية اللغة، والصامتة. تساعد هذه الإستراتيجية على شرح انجذاب الكثير من النقاد والكتاب المعاصرين إليها، الذين يمكن أن يقرأوا أعمالها مرارًا وتكرارًا لكي يندهشوا فقط بفنياتها الرائعة.

ولكن الحياة التي كتبتها هيرستون لم تكن الحياة التي تستطيع أن تعيشها. في الواقع، فحياة هيرستون يسيرة أكثر بكثير مما تقدمه المعايير السوسيولوجية، وتكشف كيف تقرر الحدود الاقتصادية خياراتنا أكثر حتى مما يفعل العنف أو الحب. ببساطة، فهيرستون كانت تكتب جيدًا عندما كانت مرتاحة، وكتبت بشكل سيء عندما لم تكن كذلك. المشكلات المالية ـــ مبيعات الكتب، المنح والزمالات كانت قليلة جدًا وتافهة جدًا، المحررين الجهلة والمديرون الخانقون ـــ أنتجوا هذا الاعتماد الذي أثّر، إن لم يكن قد حدّد، أسلوبها، علاقة استكشفتها بسخرية إلى حد ما في «الذي لن يطبعه الناشرون البيض». لا يمكننا تبسيط العلاقة بين فن هيرستون وحياتها؛ ولا يمكننا أن نقلل من تعقيد سياسة ما بعد الحرب خاصتها، والتي تضرب بجذورها في نفورها من الصورة الباثولوجية للسود.

لا يمكننا أن نتعاطف مع عقدها الكارثي الأخير في الحياة، عندما وجدت نفسها تعمل كخادمة في نفس يوم مساء السبت الذي نشرت فيه

صحيفة البوست قصتها القصيرة «ضمير المحكمة»، فغالبًا ما وجدت نفسها من دون مال، وتعيش بعد عام 1957 على إعانات البطالة، وبدلات التعليم، وشيكات الرعاية. «في أيامها الأخيرة»، اختتم هيمنوي بشكل غير عاطفي، «عاشت زورا حياة صعبة ـــ كانت وحيدة، فخورة، مريضة، مهووسة بكتاب لن تتمكن من إنهاءه».

ساعد التنقيب عن حياتها المدفونة جيلاً جديدًا على قراءة هيرستون مرة أخرى. ولكن جوهريًا يجب علينا أن نجد إرث هيرستون في فنها، حيث «حرثت بعض الكتابة وزرعت بعض الحروف». وكما أشارت هيرستون نفسها، «لُف عينيك بنشوة وقلد كل حركاته؛ ولكن حتى نضع شيئًا على زاوية الشارع الذي يسكن فيه يخصنا، فإننا سنظل حيث كنا عندما انتزعوا عنا أطواقنا الحديدية». وإذا كانت، كما أشاد صديق ما بأنها، «لم تأتك فارغة»، فإنها لم تترك الأدب الأسود فارغًا. ولو أن غموضها وإهمالها المبكر بدا اليوم غير معقول، فربما الآن، كما كتبت عن موسى، فإنها قد «عبرت».

هنري لويس غيتس الابن.

## نبذة عن الكاتبة

زورا نيل هيرستون (1891–1960) روائية، فولكلورية، وأنثروبولوجية، تعتبر رواياتها الخيالية والواقعية عن التراث الأسود لا مثيل لها. وهي مؤلفة العديد من الكتب، بما في ذلك كرمة قرع جوناه، البغال والرجال، ساروف في سواني، موسى، رجل الجبل، كل لسان يجب أن يعترف، وعيونهم كانت تراقب الرب.



# عيونهم كانت تراقب الرب

لعقود عديدة، ونأمل أن تكون لقرون قادمة، ستظل رواية« عيونهم كانت تراقب الرب »هي مركز تراث زورا نيل هيرستون باعتبارها روائية .ربما لأنها كتبت في فترة قصيرة وانفعالية، كما ذكر .هذه رواية بها إحساس طاغ بالاستعجال والإلحاح في حبكتها المتعددة الطبقات، وتيرتها السريعة، سردها المعقد، وفي الكرب الخّام التي تحركها المسارات المتعارضة التي وضعت لجاني كروفورد وهي تحاول النجاة من تصور جدتها المقيد حول حياة المرأة السوداء، وتحقق تحررها الذاتي .

**إيدودج دانتيكات**

إذا كان هناك أي شيء تعلمناه من الدراسات الكثيرة لرواية« عيونهم كانت تراقب الرب»، فهو أن النص غني ومعقد، وأن كل جيل من القراء سوف يجلب شيئًا جديدًا لفهمنا لها .إذا كنا أحسسنا في السابق بالوصاية تجاه النص ولم نكن مستعدين لإخضاعه للتحليل الأدبي خلال السنوات الأولى من ولادته الجديدة، فذلك لأنه كان نصًا محببًا لمن اكتشف منا فيه شيئًا من تجاربنا، ولغتنا، وتاريخنا.

**ماري هيلين واشنطن**

لأن زورا نيل هيرستون تم« إعادة اكتشافها »بطريقة لم يسبق لها مثيل قط في التراث الأسود العديد من النسوة السود الكاتبات، من بينهم بعض أكثر الكاتبات إنجازًا في أمريكا اليوم، اتجهن علنًا لأعمالها كمصادر لإستراتيجيات السرد، ليكررنها، يقلدنها، وينقحنها، كفعل ترابط نصي

**هنري لويس غيتس الابن**






@darathar
#عيونهم_كانت_تراقب_الرب